روبرت لويس
ستيفنسون

المخطوف
KIDNAPPED

فريق
متميزون
E-BOOK

ترجمة: إسراء يونس

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المخطوف

رواية مترجمة..

الكاتب: روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة: إسراء يونس

عن الرواية..

المخطوف هي رواية تجمع بين الإثارة والرومانسية والمغامرة، أحبتها أجيال مختلفة. إنها ملحمة «ديفيد باللور» ذلك الوريث الصغير الذي يريد عمه الجشع أن يحتال عليه لينتزع منه ميراثه، لكن بفضل شجاعته وإخلاصه، وقيمه النبيلة ينجو ذلك اليتيم من الاختطاف ومن غرق سفينته، حيث ينطلق بعدها في ربوع الحرية في مرتفعات «اسكتلندا» يقول «هنري جيمس» إن هذه الرواية هي أفضل روايات «روبرت لويس ستيفنسون». رواية المخطوف تؤكد ما أسماه «ستيفنسون». النصر العظيم للفنان، ليس مجرد نصر فحسب بل النصر الذي يتشرف به الأديب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المخطوف..

ذكريات مغامرات ديفيد بلفور في عام ١٧٥١، كيف اختُطِف وسُرِقت أمواله؟ كيف استطاع أن يحيا فوق جزيرة نائية بمفرده؟ رحلته إلى المرتفعات البرية، وصداقته مع (آلان بريك ستيوارت) وغيره من اليعاقبة الخارجين عن القانون، بالإضافة إلى كل ما عاناه بين يدَي عمه (إبينيزير بلفور شو).

بقلم: روبرت لويس ستيفنسون

كما كتبت المقدمة: السيدة ستيفنسون

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

عندما تَشَارَك زوجي والسيد هينلي([1]) في كتابة مسرحيات في بورنماوث([2])، كَوَّنَا العديد من الافكار والعناوين على أمل استخدامها في المستقبل، بالنسبة لزوجي لم يكن التكوين الدرامي ما يُفضله، ولكن سيل حماس السيد هينلي شجَّعَه على المشاركة والانغماس في هذا العمل الملهم، وبعد التعاون معًا والانتهاء من كتابة عدة مسرحيات بدأت صحته في التراجع بسبب سعيه المستميت لمواكبة السيد هينلي، حتى تم التخلي عن كتابة المسرحيات إلى الأبد، وعاد زوجي إلى عمله الأساسي مرة أخرى، وبعد أن تم إضافة العنوان الأخير (القاضي المشنوق) إلى قائمة المسرحيات المؤجلة، والتي تم إقصاؤها جانبًا الآن بطبيعة الحال، وبتشجيع شديد من زوجي على منحي أي مساعدة مطلوبة، اتفقنا على محاولة كتابتها بنفسي.

نظرًا لأنني أردت أن يكون مشهد المحاكمة بداخل محكمة أولد بيلي([3])، فقد اخترت فترة ١٧٠٠ لتنفيذ فكرتي؛ لكني كنت على درجة كبيرة من الجهل بالموضوع، وأيضًا زوجي لم يكن ملمًّا بالمعلومات التي ابتغيها بشكل كبير، وبناءً عليه تم تكليف بائع كتب في لندن لإرسال كل ما يمكنه الحصول عليه من محاكمات أولد بيلي. جاءت حزمة رائعة من الكتب استجابة لطلبنا، وسرعان ما اندمجنا في مطالعتها، ليس في القضايا بقدر متابعة الحياة المهنية الرائعة للسيد جارو، الذي ظهر كمستشار في العديد من القضايا، بعد ان أسرتنا تلك القضايا والمحاكمات أرسلنا في طلب المزيد من الكتب عاقدين العزم على متابعة أكبر قدر من أعمال السيد جارو، فقد كان استجوابه للشهود بدقة وبراعة، وطريقته في الوصول إلى الحقيقة أكثر إثارة من أي رواية.

من حين لآخر، كنا نجد قضايا أخرى غير تلك التي تمت بمحكمة أولد بيلي بداخل الكتب التي تلقيناها من لندن؛ من بين هؤلاء وجد زوجي هذه وقرأ بشغف هذا العنوان: -

محاكمة جيمس ستيوارت

في أوشارن بدورور أبين([4])

في قضية مقتل كولين كامبل غلينور

الوكيل الملكي الذي عمل

على جمع إيجارات الأملاك المصادرة

لطالما كان زوجي مهتمًا بهذه الفترة من تاريخ بلاده، وقد كانت لديه بالفعل نية لكتابة قصة تروي تفاصيل جريمة القتل الشهيرة في أبين. كان من المفترض أن تدور الرواية حول الأحداث السياسية والاجتماعية لتلك الفترة من خلال سرد مغامرات صبي يُدعَى (ديفيد بلفور)، وهو شخص ينتمي إلى عائلة زوجي، والذي كان يتوجب عليه السفر إلى أسكتلندا (كما لو كانت دولة أجنبية) للحصول على ميراثه، ويواجه في طريقه العديد من المصاعب والمشكلات.

من خلال أوراق محاكمة جيمس ستيوارت، حصل زوجي على الكثير من المعلومات الأساسية لبناء روايته، وأهمها شخصية (آلان بريك)، فقد جعله أحد الأبطال الرئيسيين، وأظهره في الرواية كما هو تمامًا نفس مظهره وحتى لبسه الشخصي الموجود بالمحاكمة.

بعد فترة من نشر رواية (المخطوف) سافرنا أنا وزوجي في رحلة عمل، توقفنا لفترة وجيزة في (أبين)، وذهبنا لاستطلاع مكان مقتل الثعلب الأحمر[5] مقتادين بفضول جامح قد تمكن منا، اجتاحتنا مشاعر مضطربة مفعمة بالحماس، كما لو كانت المأساة قد وقعت في اليوم السابق.

حققت (المخطوف) نجاحًا ساحقًا، وتأثر بها المجتمع في تلك الفترة بشدة مثلما تأثرت بها تمامًا، ذات يوم بينما كان زوجي مشغولًا في العمل جلست بجانبه أقرأ كتابًا قديمًا للطبخ يُسمَّى (ربة المنزل الكاملة)، كان يُقدم وصفات الأرانب والفراخ والمخللات القديمة، وغيرها من الوصفات المنسية، بالإضافة إلى العديد من مستحضرات العناية بالبشرة والجمال أيضًا، واحدة من بينهم كانت لطيفة للغاية، لدرجة أنني قاطعت زوجي وقرأتها بصوت عالٍ، فأعقب صائحًا:

«هذا تمامًا ما كنت أريد...». لقد كانت وصفة فوائد زهرة زنبقة الوادي كما تم ذكرها تمامًا في رواية المخطوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

بداية رحلتي إلى منزل عائلة شو

في صباح مشرق من أحد أيام شهر حزيران عام ١٧٥١، انتزعتُ المفتاح لآخر مرة من باب منزل والدي، وقد بدأت الشمس تُشرق فوق قمة التلال المنحدرة عندما كنت أسير في الطريق إلى منزل القس، كانت طيور الشحرور(6) تغرد فوق حدائق الليلك(7)، وانقشع الضباب الذي كان يهيمن على الوادي وقت بزوغ الفجر.

كان السيد كامبل كاهن مدينة (إسندين)(8) ينتظرني بالقرب من بوابة الحديقة، كم كان رجلًا طيبًا! ما أن رآني حتى سألني إن كنت قد تناولت الفطور، وعندما تأكد أنني لست بحاجة إلى أي شيء، أخذ يدي بين راحتَي يديه وربت عليها في رفق قائلًا:

- حسنًا يا ديفيد يا بني، سوف أسير معك حتى ضفة النهر لأضعك على الطريق الصحيح.

بدأنا في السير سويًّا، ثم سألني بعد فترة من الصمت:

- والآن أخبرني، هل أنت نادم على مغادرة (إسندين)؟

رددتُ قائلًا:

- لماذا يا سيدي؟ ما دمت لا أعرف إلى أين سأذهب، أو إلى ماذا ستئول الأمور، سأخبرك بما يجول في خاطري، ان (إسندين) مكان لطيف حقًّا، حيث قضيتُ أوقاتًا سعيدة للغاية، ولكنني لم أذهب إلى أي مكان غيره من قبل، فمنذ موت والداي لم يعد هناك فارق بين (إسندين) وأي مكان آخر في مملكة المجر (9) بأكملها، ربما لو وجدتُ فرصة عمل في أي مكان لأحيا حياة كريمة لن أتردد في المكوث به.

قال السيد كامبل:

- حسنًا يا ديفيد، يتوجب عليّ الآن أن أطلعك على ميراثك، فعندما ماتت والدتك وتمكن المرض من والدك الرجل المسيحي الطيب، وشعر باقتراب نهايته، حملني المسئولية تجاهك، أعطاني رسالة وأبلغني: إنها وصيته وميراثك الذي ستحصل عليه قريبًا، قائلًا: عندما أموت ويباع المنزل والأثاث، أعط ولدي هذه الرسالة، ودعه يذهب إلى منزل عائلة شو بالقرب من كراموند(10)، فهذا هو المكان الذي أتيت منه ويتوجب على ابني أن يعود إليه مرة أخرى، إنه فتى قوي وشجاع، وأنا متأكد من أنه سيكون على ما يرام.

صحتُ قائلًا باندهاش:

- منزل عائلة شو! هل كان أبي يعيش بمنزل عائلة شو؟

قال السيد كامبل:

- لا أحد يستطيع أن يثبت ذلك سواك الآن، ولكن اسم تلك العائلة يا ديفيد هو نفس الاسم الذي تحمله (ديفيد بلفور شو)، على كل حال إنه بيت عتيق يضم عائلة محترمة، ربما في هذه الأيام الأخيرة لم يعد كالسابق، فلم تعد هذه العائلة ثرية ومشهورة كما كانت في الأزمنة الماضية، والدك أيضًا كان رجل علم جدير بمنصبه كمعلم فاضل، فلم أرى رجلًا مخلصًا لعمله ومتفتح الآفاق مثله من قبل، لقد سعدت كثيرًا -كما تتذكر أنت نفسك- يوم جاء إلى الدير لمقابلة طبقة النبلاء: كامبل من كيلرينت، كامبل من دونسواير، كامبل من مينش، وآخرون غيرهم، جميعهم من السادة المحترمين أصحاب المقام الرفيع والنفوذ الواسع، وأخيرًا إليك خطاب الوصية الذي سلمه لي بنفسه.

أعطاني الرسالة التي كتب على غلافها الخارجي هذه الكلمات:

«يتم تسليمها إلى يدي إبينيزر بلفور المبجل من منزل عائلة شو، يسلمها إليه ابني ديفيد بلفور شو».

كان قلبي ينبض بقوة أمام هذه الآفاق المفاجئة التي فُتحت أمامي، فأنا ما زلت صبيًّا في السابعة عشرة من العمر، ابن لمُعلم فقير عاش طوال عمره وسط غابات إتريك([11])، تلعثمتُ قائلًا للسيد كامبل:

- سيد كامبل، لو كنتَ مكاني هل كنت ستذهب؟

- طبعًا يا ابني، كنت سأمضي في طريقي فورًا دون تردد، فتى قوي مثلك يجب أن يصل إلى كراموند -التي تقع بالقرب من إدنبرة- في غضون يومين من المشي، في أسوء الظروف لو لم يرحب بك أقاربك الأثرياء الذي يُفترض أنهم من لحمك ودمك، فعليك أن تقطع نفس الرحلة لمدة يومين آخرين، وتعود إلى الدير مرة أخرى، لكنني آمل أن تلقى ترحيبًا وتحظى بقبول حسن، وأنا على يقين تام بأنك ستُصبح رجلًا عظيمًا في المستقبل.

ثم اختتم كلامه قائلًا:

- والآن يا ديفيد العزيز عليَّ أن أحذرك من المخاطر التي ربما ستواجهك في أثناء الطريق.

أخذ يتجول للحصول على مكان مريح يصلح للجلوس، حتى وجد صخرة كبيرة تحت شجرة البتولا([12]) محاطة بالزرع على جانبيها، فجلس فوقها زامًّا شفتيه في ضيق واضح، كانت الشمس تُشرق فوقنا بين قمتين صخرتين والحرارة الشديدة تنصب على رءوسنا، فأخرج منديلًا قماشيًّا من جيبه، ووضعه فوق قبعته الذي كان يحتمي بها من الحرارة، ثم رفع سبابته أمام وجهي وأخذ يحذرني من بعض الخطايا التي لم أخوضها من قبل، وحثني على أن ألتزم بصلاتي وقراءتي الكتاب المقدس، بعد ذلك رسم خريطة بسيطة حتى أتمكن من الوصول للمنزل العظيم الذي سوف أقصده، موضحًا كيف يجب عليّ التصرف مع سكانه، وفي النهاية أوصاني قائلًا:

- كن عاقلًا يا ديفيد، والتزم بالطاعات الروحية، فهي أهم شيء لا بد أن تتمسك به خلال تلك الفترة، فقد نشأت في بيئة ملتزمة، لا تلحق بنا العار في هذا المنزل الكبير المليء بالخادمات من أعلاه إلى أسفله، أظهر الاحترام والخجل، كُن لبقًا سريع الفهم وقليل الكلام، فصاحب هذا المنزل هو لورد أسكتلندي محترم، وإنه ليشرفك بأن تصبح مطيعًا ومخلصًا له، كما ينبغي لشاب على خلق مثلك.

- حسنًا يا سيدي، أعدك بأن أنفذ كل وصاياك، وأحاول أن أُنَجِّح الأمر بكل قوتي.

قال السيد كامبل بنبرة ودودة:

- قول حسن يا بني، أما الآن فلدي شيء آخر لك، إنها علبة صغيرة تحتوي على أربعة أشياء مهمة.

ثم أخرج من جيب معطفه بشيء من الصعوبة هذه العلبة الصغيرة قائلًا:

- أول شيء هو حقك القانوني، الأموال التي تركها لك والدك من مدخراته، وأيضًا أموال بيع المنزل، أما بالنسبة للهدايا الثلاث المتبقية فسنكون أنا والسادة المحترمون من النبلاء الذي ذكرتهم لك من قبل سعيدين للغاية لقبولك بها، أعلمُ أنك ستفتحها عما قريب، وترى ما بداخلها، ولكني سأخبرك بالقليل عنهم، الأولى دائرة صغيرة ستفيدك في وقت الحاجة بالتأكيد، ولكني أجزم يا بني بأنها ضئيلة كالنقطة في البحر، تعمل لغرض واحد فقط، وتزول كشمس الصباح، الثانية مربعة سوف تمدك بالقوة في أوقات الصحة، وتعمل كوسادة تضع عليها رأسك في أوقات المرض، وأما الأخيرة، فهو مكعب مبارك سيحفظك طوال الحياة، ويعينك على تحمل الصعاب.

ثم هَمَّ ناهضًا على قدميه، وخلع قبعته، وأخذ يصلي قليلًا بصوت مرتفع، ودعوات مؤثرة لشاب منطلق لمواجهة العالم بمفرده، وفجأة أخذني بين ذراعيه واحتضنني بقوة، ثم نظر إلى عيني بأسف وحنان، ورجع إلى الخلف ملوحًا لي بالوداع، وانطلق عائدًا في طريقه بسرعة، ولم ينظر إلى الخلف مرة أخرى، وقفتُ أتابعه حتى أصبح على مرمى البصر، لقد تأثرت كثيرًا بكل هذا الحزن الذي أبداه على رحيلي، وبدأ ضميري يؤنبني بشدة لأنني في داخلي كنتُ أشعر بنوع من السعادة لمغادرتي هذا الريف الهادئ، والذهاب إلى منزل كبير مزدحم، والعيش بين النبلاء الأثرياء الذين يحملون اسمي ودمي.

قلت لنفسي:

- ماذا دهاك يا ديفيد؟ لم أعهدك ناكرًا للجميل كهذا من قبل، لا يمكنك أن تنسى المعروف الطيب والأصدقاء القدامى بمجرد رؤية اسم عائلة ثرية؟ يا له من عار!

جلستُ على الصخرة التي كان الرجل الصالح جالس فوقها للتو، وفتحت العلبة لمعرفة طبيعة هداياي. أولًا ما قد سماها مكعب، لم يكن لدي شك أنه كان كتابًا مقدسًا صغيرًا محفوظًا في نسيج منقوش بكل عناية، وما كان يسميه دائرة، وجدته شلنًا ([13])؛ والثالث المربع، وهو ما سوف يساعدني بشكل رائع سواء في الصحة أو المرض طوال أيام حياتي، كان قطعة صغيرة من الورق الأصفر الخشن، مكتوب عليها باللون الأحمر: ((سر زهور زنبق الوادي ([14])))

عليك بقطف زهور زنبق الوادي وتقطيرها في كيس، ثم اشرب ملعقة أو اثنتين حسب الحاجة: يعيد النطق لمن يفقده، لعلاج النقرس وأمراض القلب وتقوية الذاكرة.

طريقة التحضير: توضع الزهور في علبة زجاجية، وتغلق جيدًا، يتم تخزينها في بيت النمل لمدة شهر، ثم عليك أخراجها، والاحتفاظ بالمياه المقطرة التي تأتي من الزهور في قارورة زجاجية، إنه جيد في كلِّ الأحوال، في الصحة والمرض، سواء كان لرجلٍ أو لامرأة.

تم إضافة جملة أخرى بخط القس نفسه: كما أنه مضاد للالتهابات، تناول ملعقة واحدة كل يوم.

لقد كان الأمر يسترعي الضحك، ضحكت من هذه الوصفة السحرية لعلاج الخرس والتي من المتوقع أن تفيدني في يوم ما، لكنني في الحقيقة كنتُ ممتنًا للحصول على هذه العلبة الصغيرة بين أشيائي ولو كذكرى من أهلي وأصدقائي القدامى، انطلقت مبتعدًا عن التلال، وعندما وصلت إلى الطريق الزراعي الكبير بدأت في الركض بين الحقول الممتدة عبر نباتات الخلنج([15])على نطاق واسع، ثم استدرتُ لألقي نظرة أخيرة على (إسندين) والأشجار الضخمة حول الدير، وشجرة السمن([16]) الكبيرة فوق مقبرة كيركيلاند([17])، حيث يرقد أبي وأمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

نهاية سفري وبلوغ مقصدي

في ظهر اليوم الثاني، وأنا أصعد إلى قمة تلة كبيرة، رأيت الريف بأكمله أمامي ينحدر إلى البحر، وفي نهاية هذا المنحدر على امتداد سلسلة طويلة من التلال، رأيت مدينة إدنبرة بارزة وسط سحابة من الدخان الكثيف. كان هناك علم فوق القلعة، ورأيت السفن تتحرك وأخرى ترسو في مياه النهر، على الرغم من أنهما بعيدان، فقد كان يمكنني التمييز بينهما بوضوح؛ كلاهما جلب إلى قلبي إحساسًا مفاجئًا بالرهبة.

بعد ذلك، وصلتُ إلى منزل يسكنه راعي غنم عجوز، وحصلتُ على الاتجاه الصحيح لكراموند، هكذا من شارع إلى آخر، أخذت طريقي إلى غرب العاصمة بواسطة كولنتون[18]، حتى خرجت على طريق غلاسكو[19]، ولدهشتي وسروري رأيت فريق الطبول الملكي، يمشي في نظام واحد وخطوة واحدة، يتقدمهم جنرال عجوز أحمر الوجه على حصان رمادي، وفي النهاية الغرينادير[20] مع بابا الفاتيكان، شعرت بروح الحماسة تتصاعد في داخلي عند رؤية المعاطف الحمراء، وسماع تلك الموسيقى الحماسية. بعد قليل، عرفت بأنني وصلت إلى أبرشية كراموند، بدأت في الاستدلال على منزل آل شو، بدت الكلمة كأنها مفاجئة لهؤلاء الذين سألتهم في أثناء طريقي، وكانت إجابتهم بأنهم لا يعرفون، في البداية أرجعت هذا إلى سوء مظهري، ثيابي الرثة المغبرة من الطريق، بالنسبة لعظمة المكان الذي كنتُ أقصده، ولكن بعد أن سألت اثنين أو ثلاثة آخرين منحوني نفس النظرة والإجابة نفسها، حتى بدأتُ أعتقد بأن هناك شيئًا ما غريب بشأن هذا المنزل خصيصًا.

من الأفضل أن أضع هذا الشك جانبًا الآن، غيرتُ شكل أسئلتي، وعند رؤيتي لمزارع آتيًا فوق عربته سألته إذا كان سمع يومًا من الأيام عن منزل عائلة شو، أوقف عربته ونظر إليّ نظرة ريبة مثل الآخرين ثم قال:

- لماذا تسأل عنه؟

- أهو منزل فخم؟

- بالطبع، إنه قصر كبير للغاية.

- ماذا عن القوم الذي يعيشون به؟

- قوم! هل أنت معتوه؟ ليس هناك أحد لتدعوهم قوم.

- يا إلهي! وماذا عن السيد إبينيزر؟

- أوه، بلى، إنه هناك بالتأكيد، إن كان هو مَن تريده، لماذا تريد أن تراه يا بني؟

قلتُ وأنا أتظاهر بالتواضع قدر المستطاع:

- كنت أعتقد أنني ربما أستطيع الحصول على وظيفة ما هناك.

صاح الرجل ذاهلًا بصوت مرتفع مما جعل حصانه يصهل بشدة:

- ماذا؟ -ثم أضاف- حسنًا يا بني أعلم أنه ليس من شأني، ولكنك تبدو شابًّا مهذبًا خذ بنصيحتي وابقى بعيدًا عن عائلة شو.

الشخص التالي الذي صادفته كان رجلًا صغيرًا أنيقًا بشعر مستعار أبيض جميل، كان حلاقًا يقوم بدورته اليومية على رجال المدينة، وكنت أعلم أن الحلاقين يمتازون بالنميمة، فسألته بوضوح هل يعرف السيد بلفور شو؟ وأي نوع من الرجال يكون؟

صاح الرجل بفظاظة:

- أوه! أوه! أوه! نوع من الرجال؟ إنه ليس رجلًا على الإطلاق.

بدا يسألني عن عملي وشأني في البلاد، ولكني لم أكن بالنسبة له أكثر من مجرد عمل، وما لبث أن انتقل إلى الزبون التالي بسرعة، لا يمكنني وصف حجم الأوهام التي هاجمتني في ذلك الوقت، فكلما زاد الغموض حول هذا المنزل كلما قل إعجابي به وازداد توتري، لقد عبث هؤلاء الناس بعقلي وتركوني لأتخيل أسوء التوقعات، أي نوع من المنازل كان هذا المنزل العظيم الذي يجعل الناس يحدقون بي لمجرد سؤالي عن الطريق إليه؟ أي نوع من الرجال كان هذا الرجل بحيث تكون سمعته السيئة متداولة بهذا الشكل على جانبي الطريق؟ لو كان المشي لمدة ساعة سيعيدني إلى (إسندين)، لكنتُ تركت رحلتي في ذلك الوقت وعدت إلى السيد كامبل على الفور، ولكني قطعت طريقًا طويلًا وابتعدت كثيرًا بالفعل، ليس الخوف من الخزي وحده ما جعلني أتقدم، ولكن لا يمكنني العودة حتى أضع حدًّا لهذه المسألة؛ استكملت طريقي وسؤالي وتابعت التقدم.

كان الوقت قد قارب على الغروب عندما التقيت بامرأة بدينة، داكنة البشرة، كئيبة المظهر، ذات ملامح متجهمة، قادمة تمشي فوق التلة ببطء، وعندما طرحت عليها سؤالي المعتاد، استدارت بشكل حاد وقادتني إلى أعلى التلة التي كانت قد هبطت من فوقها للتو، وأشارت إلى منزل ضخم يقع في أسفل الوادي المجاور، كان الريف المحيط به جميلًا، الأراضي الخضراء تمتد من حوله، ومياه النهر بجواره تروي الأشجار ممتلئة الثمار، والمحاصيل جيدة ونضرة، ولكن المنزل نفسه بدا وكأنه مهجور، فلا يوجد طريق واحد يصلح للمرور إليه، ولا يوجد دخان يتصاعد من فوهة أي مدخنة من المداخن، ولا يبدو أن هناك حتى حديقة صغيرة في مدخله، غاص قلبي بين قدماي وصحتُ متعجبًا:

- أهذا هو قصر عائلة شو؟

أشرق وجه المرأة بغضب دفين، وقالت:

- هذا هو، الدم بناه والدم أوقف بناءه، والدم سيهدمه، لقد بصقت على الأرض وقمت بطقطقة إبهامي عليه([21])، سيكون مصيره مشئومًا عما قريب، إذا قابلت رب المنزل فأخبره بما سمعت مني، أبلغه أن جانيت كلوستون قد استدعت اللعنة عليه هو ومنزله، سيكون سقوطه أسود بلون الليل، أسود بلون الليل تمامًا.

وبعد ذلك التفت المرأة بسرعة، وغادرت التلة، وقفتَ متسمرًا في مكاني وقد تملكني الذعر تمامًا، ففي تلك الأيام كان الناس يؤمنون بالساحرات ويخشون لعناتهم، فأفقدني الخوف القدرة على جرّ ساقي إلى هدفهما.

جلستُ في مكاني محدقًا إلى منزل عائلة شو، وكلما تأملته أكثر، أغراني جمال الريف من حوله أكثر، كان مزين بشجيرات الزعرور([22]) المليئة بالورود؛ الحقول ممتلئة بالأغنام، والغربان تحلق في عنان السماء، الطقس جميل، ويبدو أن التربة جيدة، ولكن المنزل نفسه أمدني بشعور غريب بعدم الراحة، مرت جماعة من المزارعين بجانبي وأنا جالس هناك فوق التلة، لكني كنت شاردًا، حتى إنني لم ألقِ التحية أو أتمنى لهم أمسية سعيدة.

أخيرًا غابت الشمس، فرأيت لفافة من الدخان تتصاعد من إحدى مداخن المنزل إلى عنان السماء الصفراء وقت الغروب، لم يكن كثيفًا للغاية كما بدا لي فكان أقرب ما يكون من دخان شمعة؛ ولكن هذا يثبت وجود نار ودفء، وربما طعام يُطهى، إذن فهناك أناس يجب أن تكون هي مَن قامت بذلك، وهذا ما أعزى قلبي قليلًا.

نهضتُ مقررًا الاتجاه صوب المنزل وفحصه عن قرب، فسلكت طريقًا مظلمًا باتجاهه، كان طريقًا ضيقًا للغاية، ويبدو أنه الطريق الوحيد المؤدي إلى المنزل، كلما اقتربتُ منه كلما أزداد كآبة، قادني إلى بعض العواميد الحجرية، ثم إلى كوخ غير مسقوف، حيث استطعت أن أرى شعارات النبالة فوق قمته، كان هناك بوابة رئيسية من المفترض أن تكون هي المدخل الأساسي، لكنها لم تكن مكتملة؛ فبدلًا من وجود مصاريع حديد قوية كان هناك حاجزان ضعيفان مربوطان بحبل من القش، لم يكن هناك أسوار للحديقة الذابلة، وكان أحد جوانب المنزل غير مكتمل البناء، ولا يوجد به سقف، أمامه بعض الدرجات المكسورة، كما كانت العديد من النوافذ بلا زجاج، فكانت الخفافيش تطير إلى داخل القصر وتخرج منه مثل برج الحمام.

قد بدأ الليل يخيم مع اقترابي، فرأيت ضوءًا خافتًا يشع من النوافذ السفلية الثلاث، هل هذا هو المنزل الذي أتيت كل هذه المسافة من أجله؟ هل سأقابل أهلي وأقاربي وأجمع ميراثي بين هذه الجدران؟ تذكرت منزل والدي المسكين الكائن في (إسندين) حيث قضيتُ عمري بأكمله، كانت الأضواء والنيران تُرى من على بُعد ميل، كما أن أبوابه كانت دائمًا مفتوحة لأي عابر سبيل.

تقدمت بحذر، وأخذت استرق السمع خلف الباب، سمعت صوت قعقعة الأطباق، وصوت سعال جاف وقاسٍ بعض الشيء، جاء في نوبات متتالية، ولكن لم يكن هناك صوت كلام، ولم ينبح كلب، كان الباب كما رأيتُه من خلال الضوء الخافت عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب الممتلئة بالمسامير؛ رفعت يدي المرتجفة من تحت سترتي، وطرقتُ مرة واحدة.

وقفتُ أنتظر لحظة، حيث كان المنزل بأكلمه يقع في صمت تام، مرت دقيقة كاملة ولم أسمع سوى صوت الخفافيش المحلقة فوق رأسي، طرقتُ مرة أخرى، وأرهفت السمع مرة أخرى، ومع الوقت أصبحت أذني معتادة جدًّا على السكون التام لدرجة أنه كان بإمكاني سماع دقات الساعة في الداخل ببطء تعد الدقائق، لا بد أن مَن بالداخل قد حبس أنفاسه، أوشكت على الاستسلام والهرب، ولكن بدلًا من ذلك اجتاحني غضب عارم فجأة، وبدأت أمطر الباب بالركلات والضربات، وصحت بصوت

مرتفع أنادي السيد بلفور، وبينما كنت أقوم بذلك سمعتَ صوت سعال قوي من فوقي، نظرت إلى أعلى فوجدت رأس رجل طويل القامة، وفوهة بندقية مصوبة إليّ من إحدى النوافذ.

- إنها محشوة.. قال الصوت من أعلى.

قلت:

- لقد جئت برسالة إلى السيد إبينيزر بلفور، سيد عائلة شو هل هو موجود؟

- ممن هذه الرسالة؟

- أترى أن الأفضل التحدث هنا أم بالداخل؟

- حسنًا، يمكنك تركها عند عتبة الباب والانصراف الآن.

- لن يحدث ذلك، لن أغادر حتى أضعها بين يدي السيد بلفور شخصيًّا، كما ينبغي أن أفعل، إنها رسالة تعريف.

- «ماذا؟» صرخ الصوت بحدة.

كررت ما قلته.

- من أنت إذن، عرفني بنفسك؟

كان هذا سؤاله التالي، بعد أن ساد الصمت لدقيقة أو دقيقتين.

أجبته:

- أنا (ديفيد بلفور).

بعد صمت طويل وبصوت مختلف تمامًا سألني الرجل:

- هل مات والدك؟

لقد فوجئت كثيرًا بهذا التغيير في النبرة، لدرجة أن صوتي لم يخرج ليجيب عليه على الفور، لكنه وقف يحدق بي ثم استأنف كلامه:

- لقد مات بلا شك؛ وهذا ما جعلك تأتي لتطرق بابي الآن.

ثم خيم صمت أخير قبل أن يقول بنبرة مستسلمة:

- حسنًا يا فتي، سأدعك تدخل، واختفى من النافذة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

لحظة تعارُفي علي عمي

سرعان ما سمعتُ قعقعة السلاسل والمسامير، ثم فُتح الباب بحذر، وتم إغلاقه مرة أخرى خلفي بمجرد أن مررت، قال الصوت:

- ادخل إلى المطبخ، ولا تلمس شيئًا في طريقك.

وفي أثناء قيام هذا الشخص بغلق ترباس الباب من خلفي تلمست طريقي للأمام ودخلت المطبخ في الظلام، كانت النار تتقد بشدة، فأظهرت لي الغرفة الأكثر عراءً التي رأيتها في حياتي، رأيت نصف دزينة من الأطباق مرتصة على الرفوف، وأمامي كانت المائدة معدة للعشاء، طبق من العصيدة، وملعقة من العاج، وكوب صغير من البيرة، إلى جانب ما ذكرته لم يكن هناك شيء آخر يستحق الذكر في تلك الغرفة الكبيرة الفارغة المقببة بالحجر، باستثناء صناديق الثياب المقفلة المرتصة على طول الحائط، وخزانة زاوية ذات قفل كبير.

انضم الرجل إليّ بعدما أغلق الباب الكبير، كان رجلًا في حوالي الخمسين أو الستين من العمر، ضعيف البنية، محني الظهر، ضيق المنكبين، كان يرتدي قلنسوة نوم صوفية، وثياب نوم بدلًا من المعطف، ذقنه طويلة ومشعثة، كأنه لم يحلقها منذ زمن بعيد، ما أقلقني بشدة هو أنه لم يحيد بنظره عني، بالرغم من أنه لم يكن ينظر إلى وجهي تمامًا، فإنني لم أستطِع أن أخمن مَن هو، لكنه بدا لي لأول وهلة كخادم عجوز يحرس المنزل، سألني بصوت جاف:

- هل أنت جائع؟ يمكنك تناول العصيدة.

أجبته بأنني أخشى أن يكون هذا عشاءه، فأجابني:

- لا تقلق لست بحاجة إليه، سأشرب البيرة؛ لأنها تهدئ من سعالي.

شرب نصف الكوب، بينما كان يراقبني، ثم مدّ يده فجأة قائلًا:

- دعني أرى الرسالة.

أخبرته أنها من أجل السيد بلفور، وليست له، أجابني قائلًا:

- ومَن تعتقد أنني أكون؟ أعطني رسالة ألكسندر.

- هل تعرف اسم أبي؟

- سيكون من الغريب ألا أعرف؛ لأنه أخي الصغير، مع أني أعتقد بأنك لا تستلطفني ولم يعجبك بيتي أو حتى عصيدتي الطيبة، ولكنّ الحقيقة أني عمك يا ديفيد، لذا أعطني الرسالة الآن واجلس لتناول طعامك.

سلمته الرسالة، وجلستَ لتناول العصيدة، مع قليل من الشهية للحم الذي بداخلها، قام عمي وهو ينحني فوق النار ليرى الرسالة جيدًا، ثم أخذ يقلبها بين يديه مرارًا وتكرارًا.

سألني فجأة:

- هل تعلم ما بداخلها؟

- انظر بنفسك يا سيدي، إن الختم لم يُكسر بعد، فهي مغلقة تمامًا كما تسلمتها.

- حسنا، لكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لإعطائك الرسالة.

- لا، ليس هذا هو السبب الوحيد -قال بمكر- لا شك بأن لديك بعض الآمال؟

قلت:

- للحق يا سيدي، أعترف أنه عندما علمتُ أن لديّ أقارب أثرياء، شعرتُ بالفعل بالأمل، وقلتُ ربما يكون هناك أحد ليساعدني في هذه الحياة، لكني لست متسولًا، أنا لا أسألك مالك ولا أطمع بأي شيء ليس من حقي، كما أن لدي أصدقاء في حياتي السابقة يسعدهم مساعدتي.

- أوه! لا تغضب يا بني، أعتقد أننا سنكون على وفاق في الأيام القادمة، والآن هل انتهيت من تناول العصيدة؟ إذن مرِّرها لي، سأتناول الباقي.

قال وهو يسحب الملعقة من يدي، وبدأ في تناول الطعام، قائلًا:

- شهية للغاية! لقد كان والدك يحب اللحم الذي بداخلها كثيرًا، لقد كان ذواقًا على الرغم من أنه لم يكن يأكل كثيرًا.

ثم تناول كوب البيرة، والتي ربما ذكرته بآداب الضيافة؛ لأنه قال لي بعدها:

- إذا كنت ظمآنًا، فستجد صنبور الماء خلف هذا الباب.

لم أُجب على هذا، نهضتُ من مكاني واقفًا بثبات، ونظرت إلى عمي بغيظ شديد، ولكنه استمر في الأكل وهو يُلقي نظرة خاطفة على حذائي، وجواربي المنسوجة يدويًّا، وعندما خاطر برفع بصره قليلًا التقت أعيننا، ولا يمكن لنظرة لص يضع يده في جيب رجل ليسرقه بأن تكون أكثر قلقًا من تلك النظرة التي رماني بها. فكرتُ ربما تكون هذه النظرة طبيعية بالنسبة لرجل يعيش منعزل بمفرده هكذا منذ فترة، ربما بعد مرور بعض الوقت ومع الاعتياد سيتحول عمي إلى رجل طبيعي تمامًا، قال بصوت حاد:

- هل مات والدك منذ فترة طويلة؟

- منذ ثلاثة أسابيع.

- لطالما كان كتومًا قليل الكلام، هل أخبرك شيئًا عني؟

- لم يسبق لي أبدًا أن علمتَ بأن لديه شقيقًا حتى أخبرتني أنت بنفسك الآن. ثم تجرأتَ قائلًا: حتى إنني لم أسمع من قبل عن عائلة شو.

- حسنًا، إنه تصرف طبيعي لرجل غريب الأطوار مثله.

بدا راضيًا بعض الشيء بعد هذا الحديث، من المؤكد أنه تجاوز ذلك النفور أو سوء النية الذي تصوره تجاهي منذ البداية، هَمّ ناهضًا وجاء من خلفي واضعًا يده فوق كتفي قائلًا:

- أنا سعيد بمجيئك، هيا معي لأريك غرفتك.

ولدهشتي لم يضئ أي مصباح أو حتى شمعة، بل انطلق يسير في الممر المظلم يتلمس طريقه، ويتنفس بعمق، صعدنا بعض الدرجات، ثم توقف أمام الباب الذي كان مغلقًا، أخرج مفتاحه وفتحه، وطلب مني الدخول، فعلت مثلما قال لي، ولكني طلبتُ منه بعض الشموع حتى أستطيع أن أصل إلى السرير، فأجابني:

- هناك قمر جميل يضيء السماء، فما حاجتك إلى الشموع؟

- لا قمر ولا نجوم يا سيدي، فأنا لا أرى السرير، لا أرى سوى ظلام دامس مثل الحفرة.

- أعتذر لك، ولكني لا أسمح بالإضاءة في منزلي، أنا أخاف النار، وأخشى الحرائق، عمت مساءً يا ديفيد.

وقبل أن يتسنى لي الاعتراض أو المناقشة أغلق الباب، وأدار المفتاح، وتركني بمفردي في الغرفة، لم أدرِ إن كان عليّ أن أفرح أم أبكي، كان السرير رطبًا للغاية، حيث استحال النوم عليه، كما كانت الغرفة شديدة البرودة، ولكن لحسن الحظ كنتُ أحمل غطاءً من الصوف معي بين أغراضي، لففتُ نفسي به جيدًا، واستلقيت على الأرض بجانب السرير، وسرعان ما غرقت في سبات عميق.

فتحت عيني على زقزقة العصافير في اليوم التالي لأجد نفسي في غرفة كبيرة، معلق على جدرانها سجاجيد من الجلد المطبوع، مفروشة بأثاث جيد، ومضاءة بثلاث نوافذ متوازية، لا بد أنها كانت غرفة مريحة للاستلقاء والاستيقاظ كما يتمنى المرء تمامًا قبل عشر سنوات، أو ربما عشرين سنة، إلا أن الرطوبة والفئران والعناكب خربوها تمامًا، بالإضافة إلى أن بعض النوافذ كانت مكسورة، لقد لاحظت أنها سمة مشتركة بين كل نوافذ هذا المنزل، لا بد أن عمي تعرض لفترة طويلة من الزمن لبعض مضايقات من جيرانه الحاقدين، ربما كانت جانيت كلوستون على رأسهم. أشرقت الشمس بالخارج، أما في داخل الحجرة فما زال الجو باردًا للغاية، أخذت أنادي على عمي حتى أتى وأخرجني، قادني إلى الجزء الخلفي من المنزل، حيث توجد بئر قديمة، وأخبرني أن أغسل وجهي هنا، وعندما انتهيت كان عليّ أن أبذل بعض الجهد حتى أصل إلى المطبخ بمفردي، وجدته هناك وقد أوقد النار ليصنع العصيدة. كانت الطاولة مجهزة بوعائين وملعقتين من العاج، وكوب واحد فقط من البيرة الصغير، ربما استقرت عيني لبعض الوقت على هذا الكوب خصيصًا باندهاش، وربما لاحظ عمي ذلك؛ لأنه تكلم على الفور كما لو أنه قرأ أفكاري، سألني عما إذا كنت أرغب في شرب البيرة حتى يجلب لي.

أجبته بأنها كانت عادتي في المنزل، ولكن ليس عليه الانشغال بهذا، قال بنبرة ودودة:

- لا، لا، لن أحرمك من شيء أبدًا.

جلب كأسًا آخر من فوق الرف، وبدلًا من سكب المزيد من البيرة، سكب نصف الشراب من كوبه إلى الكوب الآخر، تأكدت حينها كم هو بخيل!

عندما انتهينا من تناول الطعام، فتح عمي إبينيزير الدرج وسحب منه أنبوبًا من الفخار وكتلة من التبغ. ثم جلس تحت أشعة الشمس بجوار واحدة من النوافذ وأخذ يدخن في صمت، من وقت لآخر كان يدير عيناه ناحيتي، ثم أطلق واحدًا من أسئلته النارية المباشرة:

- ماذا عن والدتك؟

وعندما أخبرتُه بأنها توفيت قبل والدي اعتذر مني معزيًا، ثم سألني إن كان لي أصدقاء أو معارف في بلدتي، فجاوبته بأنه كان لوالدي صحبة صالحة كلهم من عشيرة كامبل، في الواقع لم يكن هناك سوى رجل واحد فقط منهم يمكنني أن أدعوه صديقًا مخلصًا، ولكني لم أخبر عمي بذلك، فقد بدأتُ أعتقد أن عمي يريد أن يستطلع وضعي بالكامل، ولم أكن أرغب أن يعتقد بأنني عاجز ووحيد في هذه الحياة.

بدا وكأنه يقلب الأمر في رأسه جيدًا، ثم قال:

- عزيزي ديفيد، لقد فعلت خيرًا بمجيئك إلى عمك إبينيزير، فأنا أعلم أهمية الأسرة في حياة أي صبي في مثل سنك، لكن ريثما أفكر فيما هو أفضل شيء عليك القيام به سواء كان الدراسة أو العمل أو الخدمة العسكرية، وهو أكثر ما يرغب به الشباب، فلا أريد لأحد من عشرة كامبل، بأن يعرفوا شيئًا عن عائلة شو، لذا أطلب منك إبقاء لسانك داخل فمك، لا تبعث برسائل ولا خطابات إلى أي صديق، لا تخرج كلمة منك أبدًا مع أي مخلوق خارج بابي.

- عمي إبينيزير، لا يوجد سبب لتفترض أي سوء تجاهي، ولذلك أود أن أعلمك بأن لدي كبرياء وكرامة، لم يكن بإرادتي أن آتي لأبحث عنك؛ ولكن بناءً على وصية والدي لكي آخذ ميراثي، ولو أردتني أن أخرج من هنا لنفذت كلمتك فورًا دون جدال.

- انتظر يومًا أو يومين آخران، أنا لست ساحرًا لأخرج لك ميراثك من وعاء ذهبي تحت الأرض؛ لكن فقط عليك الانتظار، ولا تتفوه بكلمة مع أحد، وبالتأكيد سأفعل الصواب تجاهك.

- حسنًا، إذا أردت مساعدتي سأكون ممتنًا وشاكرًا، من الأفضل أن أتلقى المساعدة من عائلتي على أن أتلقاها من الغرباء.

كان يريد فرض سيطرته الكاملة عليّ، تقبلتُ الوضع وأبلغته أنه يجب تهوية السرير والأغطية، ووضعها في أماكن مشمسة لتجف، فلن أستطيع النوم مع هذا الوضع السيئ.

قال بنبرة منخفضة وشيء من الامتعاض:

- ربما نسيتَ أن هذا منزلي، أليس كذلك؟

لم أنطق بحرف ولكني تسمرتَ مندهشًا من قوله، وبعد لحظات من الصمت أدرك مدى خطئه، فقال بشيء من التوتر والارتباك:

- لا تسئ فهمي من فضلك، لم أقصد ما تفوهتُ به بالطبع، فما هو ملكي يعتبر ملكك، وما هو ملكك فإنه ملكي، لا يمكن للدم أن يتحول إلى ماء يا عزيزي ديفيد، فلا أحد غيري أنا وأنت يحمل اسم شو.

ثم استرسل في وصلة من الحديث المطول عن عائلته العظيمة، ووالده الذي بدأ بتوسيع البيت، وهو نفسه الذي أوقف البناء، ذكرني هذا الحديث برسالة جانيت كلوستون، وعندما أخبرتُه بها، صرخ قائلًا:

- العاهرة القذرة! آه يا ديفيد، سأقوم بتحميصها على الفحم الأحمر الملتهب لو رأيتها مرة أخرى، إنها ساحرة ملعونة!

سأذهب لمقابلة القس وإبلاغه بالأمر، ثم هَمَّ بفتح صندوق، وأخرج معطفًا وسترة زرقاء قديمة جدًّا محفوظة بعناية، وصدرية جيدة، وقبعة متآكلة الأطراف دون دانتيل، ألقى بها بعيدًا بأي حال من الأحوال، وأخذ عصا من الخزانة ثم أغلقها مرة أخرى، أصبح مستعدًا للانطلاق، عندما طرأت برأسه فكرة أوقفته قائلًا:

- لا أستطيع أن أتركك في المنزل بمفردك، يجب أن تخرج من هنا الآن حتى أعود.

صعد الدم إلى وجهي وشعرتُ بغيظ وإحراج شديد، فقلتُ له:

- إن كنت تعني ما قلتَه حقًّا، فستكون هذه هي المرة الأخيرة التي تراني بها في منزلك.

شحب وجهه وزم شفتيه بامتعاض موجهًا نظره إلى الأرض، ثم قال بشراسة:

- هذه ليست طريقة للحديث مع عمك يا ديفيد، فلن تكسب ودي هكذا.

- اعذرني فمع كامل احترامي لسنك وتقديري لصلة القرابة بيننا، أنا لا أحاول أن أكسب ودك بطريقة مصطنعة تخالف طبيعتي، لقد نشأتُ عزيز النفس، حتى لو أصبحت أنت كل عائلتي الآن، وكل ما تبقى لي في هذه الحياة فلن أقبل أبدًا بأن تهينني.

مضى العم إبينيزر في اتجاه النافذة، ونظر من خلالها للحظة، كان بإمكاني رؤيته يرتجف ويرتعش محاولًا السيطرة على انفعاله، لكنه عندما استدار كان هناك شبح ابتسامة فوق شفتيه.

- حسنًا، لا بد أن نتحامل على أنفسنا، لنتجاوز نقاط الاختلاف بيننا، لا مفرّ من ذلك.

- لا أستطيع التعامل مع هذا الأمر يا عمي، أنت تعاملني كاللص، وتكره وجودي داخل منزلك، أنا أشعر بذلك في كل ثانية تمر على وجودي هنا، لا يبدو أنك تحبني أو ترغب بوجودي، لم أكن لأتخيل أبدًا بأني سأقول هذا الكلام لأحد يومًا ما، ولكني أتحدث إليك بكلّ صراحة، لماذا تصر على بقائي معك إذن؟ اسمح لي بالعودة إلى بلدي وأصدقائي مرة أخرى، فهم مثلي، يحبونني ويفهمونني جيدًا.

- لا، لا تقل هذا، إنك ابن أخي الراحل، ومن أجل شرف هذا المنزل لن أسمح لك بالعودة إلى المكان الذي جئت منه، فقط ابق هادئًا ومطيعًا، وسيكون كل شيء على ما يرام.

- حسنًا عليّ أن أبقى هنا بعض الوقت مثلما قلت من قبل، سأحاول بذل ما في وسعي لأتقبل اختلافاتنا الكثيرة، وإن لم نتفق فآمل ألا يكون هذا خطأي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

خطر عظيم يواجهني داخل قصر شو

مضى النهار على نحو جيد، تناولنا العصيدة الباردة في الظهيرة، والعصيدة الساخنة مرة أخرى في الليل، كانت العصيدة وكوب البيرة الصغير بالنسبة لعمي بمثابة نظام غذائي دائم. قلما كنا نتكلم، ربما كان يطرح سؤالًا أو سؤالين بعد فترات صمت طويلة، وبنفس الطريقة التي كان يتحدث بها من قبل، وعندما حاولت أن أقوده للحديث عن مستقبلي، فلم يَحِرْ جوابًا محددًا.

كان بالمنزل غرفة مجاورة للمطبخ دفعني عمي للذهاب إليها ذات مرة لأجلب غرضًا ما، وهناك وجدتُ عددًا كبيرًا من الكتب، باللغتين اللاتينية والإنجليزية، كنتُ أستمتع بقراءتها طوال فترة ما بعد الظهيرة. في الحقيقة كان هذا هو الوقت الوحيد الممتع الذي أتذكره داخل هذا القصر، فقد قضيتُ بعض الساعات اللطيفة بصحبة هذه الكتب القيمة، وبدأت أتصالح مع مسكني في قصر شو؛ لم يكن هناك شيء يبعث الريبة في نفسي ويكدر صفو مزاجي سوى نظرات عمي المتلصصة بين الحين والآخر، وفي يوم ما بينما كنتُ بداخل هذه الغرفة اكتشفتُ شيئًا بالصدفة وضعني في حالة من الحيرة، ففي داخل غلاف أحد الكتب (وكان كتاب لباتريك ولكر) كُتب بخط والدي: «إلى أخي إبينيزر في عيد ميلاده الخامس»

ما حيرني هو بما أن والدي هو الآخر الأصغر بالطبع، فلا بد أن هناك خطأ غريبًا في هذه الكلمات، فمن المؤكد أنه كتبها قبل أن يبلغ الخامسة من العمر، رغم ذلك لقد كان خطه واضحًا وممتازًا!

حاولت إخراج هذا الأمر من رأسي، ولكن على الرغم من أنني قمتُ بعدها بالاطلاع على أعمال العديد من المؤلفين المثيرين للاهتمام، القدامى والجدد، وفي مختلف المجالات، التاريخ والشعر والروايات، فقد ظلت جملة والدي المكتوبة بخط يده عالقة في ذهني، وحين عدت بعد برهة من الوقت إلى المطبخ، وجلست مرة أخرى لتناول العصيدة وكوب البيرة الصغير، فكان أول شيء أنطق به لعمي إبينيزر هو أن أسأله إن كان والدي ماهرًا جدًّا في الكتابة:

- ألكسندر؟ لا، ليس هو، أنا مَن كنتُ أمهر بكثير، كنت شابًّا ذكيًّا عندما كنتُ صغيرًا لقد كنت أستطيع أن أقرأ وأكتب بأسرع ما يمكن.

زادني الأمر حيرة، فطرأت فكرة في ذهني على الفور وسألته إذا كان هو وأبي توأمان.

قفز من فوق كرسيه فسقطت ملعقة العاج من يده على الأرض، قال وهو يمسكني من سترتي وينظر إلى عيني مباشرة هذه المرة كانت عينه صغيرة وضيقة كالطائر، وكان يرمش ويغمز بغرابة في حركات عصبية متكررة.

- لماذا تسألني هذا السؤال أيها الفتى؟

- ماذا تقصد؟

سألته بهدوء شديد لأنني كنت أقوى منه بكثير، ولم أكن أخاف بسهولة، ثم قلتَ بنبرة حازمة نوعًا ما:

- أبعد يدك عن سترتي من فضلك، لن أسمح لك بهذا.

بدا لي وكأنه يبذل جهدًا كبيرًا للسيطرة على نفسه، ثم بدأ يتراجع قائلًا:

- ديفيد يا صغيري! لا ينبغي أن تتحدث معي عن والدك مرة أخرى، هذه هي المشكلة.

جلس على الكرسي مرة أخرى، كانت فرائسه ترتعد من التوتر، ثم قال بصوت خال من النبرة، وهو يمسك بالملعقة ويعود لتناول طعامه مرة أخرى:

- رغم أنه كان أخي الوحيد.

كان من الصعب عليّ فهم الأمر، تملكني إحساس بالحنين لوالدي والخوف مما هو قادم، من ناحية أخرى فكرتُ في أن عمي هذا قد يكون مجنونًا أو رجلًا خطيرًا، تذكرتُ فجأة قصة بسيطة كنت قد سمعتها من قبل عن ولد فقير كان الوريث الحقيقي لعائلة ثرية، وله عم شرير يحاول سرقة أرضه وماله، ومنعه من الحصول على حقه الشرعي، لماذا يتصرف عمي بهذه الطريقة ما لم يكن هناك سبب يجعله يخشاني إلى هذا الحد، ترسخت هذه الفكرة في ذهني أكثر نتيجة لهذه الأفعال المريبة التي يقوم بها، فبدأتُ أراقبه عن كثب، كنا نجلس لتناول الطعام مثل القط والفأر، كل منهما يراقب الآخر خلسة، لم يكن هناك حديث بيننا، بدا مشغولًا بأمر ما يدور في عقله. وكلما تمعنت في النظر إليه أكثر، تيقنت أن هذا الأمر الذي يشغله كان أمرًا غير وديّ تجاهي.

نهض من فوق الطاولة بعد أن تناول العشاء، واتجه إلى الحوض لينظف طبقه ثم أخرج أنبوبًا واحدًا من التبغ كما هو الحال في الصباح، وجلس فوق كرسي خشبي بجوار المدفأة يُدخن في صمت، ثم توجه بنظره إليّ وقال:

- ديفيد يا بني، لقد كنتُ أفكر-توقف لبضع ثوانٍ ثم استكمل حديثه- لقد وعدتُ والدك قبل أن تولد بأن أمنحك بعض المال، إنه ليس إرثًا محررًا في أوراق أو شيء من هذا القبيل كما تعلم، مجرد أحاديث عابرة بين رجلين في أثناء تناول الشراب، لقد تاجرتُ بهذا المال لفترة طويلة حتى أصبح اليوم مبلغًا كبيرًا للغاية ولكن لا يهمني، فالوعد يبقى وعدًا، لقد أصبح هذا المبلغ اليوم... توقف للحظة ثم قال: أربعين جنيهًا. قال هذه الكلمة الأخيرة وهو يسترق النظر إليّ من فوق كتفه.

كان الأثر الذي تركته هذه الكلمات في نفسي كبيرًا للغاية، شعرتُ أن هذه القصة كلها كانت ملفقة، ولم أستطِع تخمين نهايتها، لماذا كان يريد عمي اختلاق قصة كهذه؟ ولذلك لم أبذل أي جهد لمحاولة إخفاء نبرة السخرية وأنا أقول له:

- أوه، فكر مرة أخرى يا عمي! أربعون جنيهًا إسترلينيًّا؟

- هذا ما قلتُه تمامًا، فإذا خرجت لدقيقة واحدة ربما لتتفقد حالة الطقس في الخارج مثلًا، سأخرج المال وأنادي عليك لتتسلمه فورًا.

فعلتَ ما طلبه مني، مبتسمًا، وأنا أفكر كم أنه ساذج ليعتقد أنه من السهل عليه خداعي، كان الظلام دامسًا في الخارج، سمعتُ هديرًا أجوف لريح بعيدة بين التلال، كان الطقس متقلبًا اليوم، وتنبأت بوقوع عاصفة رعدية قريبًا، وعندما استدعاني إلى المنزل مرة أخرى، كان المال هناك في يده سبعة وثلاثون جنيهًا ذهبيًّا! وكان الباقي في يده الأخرى عملات صغيرة من الذهب والفضة حشرهم في جيبه وهو يسعل ثم قال:

- هذا يثبت لك أنني وإن كنت رجلًا غريب الأطوار بعض الشيء، وأتعامل بحذر مع الغرباء، ولكني أحافظ على وعودي.

لقد كان عمي بخيلًا للغاية، لدرجة أنني أصبتُ بالصدمة من هذا الكرم المفاجئ، ولم أجد الكلمات المناسبة التي يجب على قولها لشكره.

قال:

- لا تقل أي شيء، لا تشكرني؛ أنا لم أفعل ذلك ابتغاء شكرك، أنا أؤدي واجبي، لا أقول إن الجميع يفعلون مثلي بكل سهولة؛ لكن بالنسبة لي إنه لمن دواعي سروري أن أساعد ابن أخي، ويسعدني أيضًا أن أقول إننا الآن على وفاق تام كما ينبغي للأصدقاء بأن يكونوا.

تحدثت معه في المقابل بلطف بالغ قدر استطاعتي؛ لكن في داخلي كنتُ أتساءل ما الذي سيحدث بعد ذلك، ولماذا قرر التنازل عن أمواله وثروته الثمينة بهذه السهولة؛ فالسبب الذي قدمه لي لا يبدو منطقيًّا أبدًا، ولا يمكن أن يصدقه طفل صغير نظرًا لما رأيته منه من شدة وبخل.

جلسنا نتطلع إلى بعضنا البعض في صمت لبعض الوقت، حتى قال أخيرًا بنبرة ودود:

- والآن، كما يقولون «واحدة بواحدة»، فلكل شيء مقابل أليس كذلك؟

أخبرته أنني مستعد لإثبات امتناني بالقيام بأي شيء باستطاعتي فعله من أجله، فانتظر لبعض الوقت يفكر في طلبه، وعندما استجمع الشجاعة أخيرًا للتحدث، قال إن العمر تقدم به وأصبح عجوزًا الآن لا يستطيع القيام بالكثير من الأشياء بمفرده، وأنه يتوقع مني أن أساعده في أعمال المنزل والحديقة.

أعربتُ عن استعدادي للخدمة في أي وقت، قال في نبرة واضحة:

- حسنًا، لنبدأ.

ثم أخرج من جيبه مفتاحًا صدئًا، قائلًا:

- هذا مفتاح البرج أعلى الدرج في أقصى نهاية المنزل، اصعد سلم البرج وأحضر لي الصندوق الموجود في الغرفة عند القمة.

صمت للحظة، ثم أضاف:

- توجد به بعض الأوراق الهامة.

- هل يمكنني الحصول على مصباح أو شمعة يا سيدي؟

قال بمكر وحزم شديد:

- لا، لا أنوار تضاء في منزلي.

فقلت:

- حسنا، هل الدرج جيد؟

- جيد للغاية.

وعندما هممت بالمغادرة، أوقفني قائلًا بصوت مرتفع:

- احترس جيدًا، لا يوجد درابزين، ابق بجانب الحائط.

عندما خرجت كان الظلام حالكًا والعاصفة قد بدأت، لم أسر في جو أشد ظلمة من هذا من قبل، التمستُ طريقي على طول الجدار إلى باب البرج، ثم أخرجت المفتاح من جيبي ووضعته في مكانه، أدرته عندما ضرب الرعد فجأة في عنان السماء وأضاءت بأكملها بوهج عظيم ثم عادت إلى السواد بسرعة، اضطررت إلى وضع يدي فوق عيني لأعتاد على الظلام مرة أخرى؛ وبالفعل شعرت أنني نصف أعمى عندما كنت أصعد إلى البرج.

كان الظلام شديدًا في الداخل، تابعت طريقي في الصعود وأنا أتلمس كل درجة بيدي، بدا لي أن منزل شو يبلغ ارتفاعه خمسة طوابق كاملة مع عدم حساب الغرفة العلوية، شيئًا بشيء بدت الدرجات أكثر إضاءة، رغم أن الظلام كان ما زال حالكًا، ولم أتمكن من رؤية ما قد تؤدي إليه هذه الدرجات، فرحت أتساءل عن سبب هذه الإضاءة الغريبة، وعندما لمع البرق فجأة للمرة الثانية استطعت أن أرى الدرجات بوضوح من تحت قدمي، ويا للهول! شعرت بصدمة بالغة عندما رأيت أنه لم يتم بناء الدرجات بعد هذا الارتفاع أمامي، لم ينجز بناء درجات البرج عند هذا الارتفاع، وأن السلم غير مكتمل، كان هذا ضوء القمر المتسلل، لو أنني خطوت بوصة واحدة جهة اليمين لوقعت في هاوية الموت، عجزتُ عن الصراخ في تلك اللحظة، كان الخوف قد أمسك بحنجرتي مثل قاتل يحبس أنفاسي، ولو أنني لم أسقط، فالفضل يعود لعناية السماء وحدها.

هل هذه هي حالة الدرج الجيدة للغاية كما قال عمي؟ لم يكن هناك صندوق بانتظاري ولا غرفة من الأساس، لقد أرسلني عمي لأواجه خطرًا كبيرًا للغاية بكامل إرادته، كان هدفه موتي، زحفت على يدي وركبتي هابطًا الدرج مرة أخرى باتجاه عكسي، انهال المطر وقتذاك فانزلقت قدمي مرارًا على الحجارة الرطبة، فقط الغيظ الكامن في قلبي هو الذي منحني الشجاعة لأهبط بثبات، دون التفكير في الموت المحتم الذي يكمن تحتي إذا ما انزلقت في أي لحظة. عندما هبطتُ تمددت فوق الأرض للحظة حتى أتمكن من استرداد قوتي للنهوض مرة أخرى، تطلعت نحو باب المطبخ الذي أغلقته ورائي عندما غادرت، كان الآن مفتوحًا يخرج منه بصيص من الضوء، تمكنتُ من رؤية ظل شبح ما يقف خارج المنزل تحت المطر كرجل يسترق السمع أو ينتظر حدوث شيء ما، أضاء البرق مرة أخرى فظهر عمي بوضوح، كما كنت أتخيله تمامًا؛ يقف مرهفًا السمع يتوقع صوت ارتطام جسدي بالأرض إثر سقوطي، ولكن عندما أضاء البرق للحظة استولى عليه نوع من الخوف والذعر، ربما كان هذا صوت غضب السماء تستنكر فعلته، فركض إلى المنزل وترك الباب مفتوحًا خلفه. تبعته بهدوء على

قدر المستطاع، وقفتَ أراقبه عند عتبة الباب، كان منحني فوق خزانة المطبخ يخرج زجاجة من النبيذ، ثم جلس إلى المائدة يشرب موليًا ظهره إليّ، كان يرتجف من البرد ويئن بذعر بين كل رشفة والأخرى، أدركت أنه يظن خطته قد نجحت وأنه الآن يجرع النبيذ احتفالًا بموتي، أو في الغالب سعيًا إلى تهدئة أعصابه، تقدمتُ إلى الأمام بهدوء، واقتربتُ من خلفه حيث كان يجلس، وفجأة كشرتُ عن أسناني وضعت يديّ فوق كتفيه بقوة صارخًا:

- آه يا عمي!

أطلق نوعًا من الصراخ المنبوح مثل شاة مذعورة تستغيث قبل الذبح، رفع يديه وارتمى فوق الأرض فاقدًا الوعي مثل رجل ميت، صدمني منظره إلى حدّ ما؛ لكن فكرت أنه عليّ تزويد نفسي بالأسلحة قبل أن ينهض وتتلبسه روح الشر مرة أخرى.

كانت المفاتيح معلقة تناولتها وفتحت الخزانة، كان بداخلها مجموعة من الزجاجات، بعضها من النبيذ، وبعضها الآخر من الأدوية على ما يبدو؛ كان هناك عدد كبير جدًّا من الفواتير والأوراق الأخرى، ومن ثم تحولت للتفتيش بداخل الصناديق. الأول كان مليئًا بالمعدات الغذائية؛ الثاني كان مليء بأكياس النقود والأوراق المربوطة في حزم؛ أما الثالث كان يحتوي على أشياء مختلفة كثيرة أكثرها ملابس وشراشف قديمة.

وجدت وسطها خنجرًا صدئًا قبيح المظهر دون غمد، فأخفيته بسرعه داخل سترتي، والتفتُ إلى عمي، كان مستلقيًا كما سقط، اصطبغ وجهه بلون غريب كالأزرق القاتم، يبدو أنه توقف عن التنفس أو يمر بأزمة ما. توقعت للحظة بأنه قد يكون مات، ولكني عندما ألقيت بعضًا من الماء على وجهه فتح عينيه الذي تملكهما الذعر حين رآني، قال بصوت مبحوح:

- هل أنت حي يا بني؟

- للأسف! مع إنك بذلت ما بوسعك لتقتلني، شكرًا جزيلًا لك!

بدأ يبحث عن أنفاسه بتنهدات عميقة، ثم قال:

- ناولني الدواء بسرعة يا ابني، إنها القنينة الزرقاء بالخزانة.

أصبح تنفسه أبطأ فركضت إلى الخزانة، ووجدتها أمامي مباشرة قنينة زرقاء صغيرة والجرعة مكتوبة عليها من الخارج ناولته إياها، فقال وهو يستعيد أنفاسه قليلًا:

- يا إلهي! إنه القلب، أنا أعاني من مرض خطير بالقلب يا ديفيد.

أسندته فوق كرسي ونظرت إليه، شعرت ببعض الشفقة تجتاح قلبي على رجل ضعيف مثله، بدا مريضًا جدًّا في تلك اللحظة كإنسان يحتضر، لكنني كنت ممتلئًا أيضًا بغضب جامح تجاهه، توجهت إليه بالأسئلة التي أردت توضيحها: لماذا كذب عليّ في كل كلمة؟ لماذا حاول قتلي؟ لماذا خاف أن أتركه وأرجع إلى بلدي؟ لماذا لم يعجبه أن أُلمح إلى أنه وأبي توأمان- هل هذا لأنه صحيح؟

لماذا أعطاني المال وهو مقتنع بأنه ليس من حقي؛ أصغى إلى في صمت، وأخيرًا توسل إلى كي أدعه يذهب إلى الفراش اليوم قائلًا بصوت واهن:

- ستحصل على أجوبتك غدًا لكنني مريض جدًّا الليلة أيها الفتي، ولن أقوى على الكلام.

كان ضعيفًا جدًّا حقًّا، ولم يكن بيدي سوى الرضوخ، وهكذا اصطحبته إلى غرفته، حبسته بداخلها ووضعت المفتاح في جيبي، ثم عدتُ إلى المطبخ، تمددت فوق الصناديق مدثرًا بغطائي، مرت أمام عيني ذكرى الدرج والبرق والأمطار فارتعشتُ من البرد، وأغمضت عيني في محاولة مني لنسيان ما ألمّ بي من وجع وقهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

عندما ذهبت إلى كوينزفيري([23])

هطلت أمطار كثيرة في الليل. وفي صباح اليوم التالي هبّت رياح شتوية باردة من الشمال الغربي تقود غيومًا متفرقة، رغم كل ذلك استيقظتُ مبكرًا وقبل أن تبدأ الشمس في السطوع وقبل اختفاء آخر النجوم، شققتُ طريقي لإلقاء نظرة خاطفة على الحديقة، فكرت في الانغماس قليلًا في دوامة الغدير الباردة لأستفيق وأنتعش، ومن ثم أشعلتُ بعض الحطب الذي جلست بجواره، وبدأتُ في التفكير بجدية في وضعي الحالي، لم يكن هناك شك الآن في عداوة عمي، وبأنني أحمل حياتي فوق كفي بوجودي في هذا المنزل، إنه لن يدّخر جهدًا في توجيه ضربة قاضية أخرى تجاهي في أسرع وقت، لكنني كنتُ فتى صغيرًا، مغامرًا وقويًّا بطبيعة الحال مثل معظم الفتيان الذين تم تربيتهم في الريف، لقد أتيتُ إليه أطرق بابه بحسن نية لمساعدتي، فقابلني بالخيانة والعنف، سيكون رد اعتبار جيد حين آخذ حقي وأموالي وأتركه بمفرده من جديد. جلستُ هناك أعتني بركبتي المجروحة، وأبتسم إلى النار وأنا أفكر في الثروة التي ستصبح ملكًا لي عما قريب.

صعدت السلالم وأطلقت سراح سجيني؛ قابلني بتحية الصباح فبدالته التحية بجفاء. وسرعان ما جلسنا على المائدة لتناول الإفطار، تمامًا كاليوم السابق.

قلتُ بنبرة ساخرة:

- حسنًا يا سيدي، ليس لديك شيء لتخبرني به؟ لقد حان الوقت على ما أعتقد لنفهم بعضنا البعض، لقد ظننتني فتى ساذجًا ضعيفًا كعصا العصيدة، لا يقوى على فعل شيء، ولقد ظننتك رجلًا عجوزًا طيبًا، أو ليس أسوأ من غيره على الأقل. يبدو أن كلانا كنا على خطأ، ما السبب الذي يجعلك تخافني وتخدعني وتحاول إنهاء حياتي؟

تمتم بأنها كانت دعابة طريفة، وأنه يحب إضفاء القليل من المرح؛ وعندما رآني لا أبتسم، غيّر لهجته، وأكد لي أنه سيوضح كل شيء بمجرد أن نتناول الفطار. رأيت من وجهه أنه ليس لديه كذبة جاهزة لإخباري بها، رغم أنه كان يجتهد في إعداد واحدة، كنتُ على وشك إخباره بذلك، عندما قاطعنا صوت طرقات على الباب، طلبت من عمي الجلوس حيث كان، وذهبت لفتحه، وجدت على عتبة الباب صبيًّا نصف بالغ يرتدي ملابس البحر.

لم يكد يراني حتى بدأ يرقص رقصة البحارة القدامى (التي لم أكن قد سمعت بها في ذلك الوقت من قبل أبدًا) يطقطق بأصابعه في الهواء ويحرك قدمه بمهارة بالغة في خطوات محفوظة، بالرغم من تصرُّفه المرح فقد حال لونه إلى الزرقة من البرد، وهناك لمحة حزن في وجهه، نظرة بين البكاء والضحك، كان منظره مثيرًا للشفقة، سألتُه ماذا يريد فبدأ في الغناء: «إنه يوم بهجتي، إنني نجمة لامعة في سماء ليلة سعيدة من السنة»

- حسنًا إذا كان هذا كل ما لديك، فاعذرني ينبغي أن أغلق الباب ثانية.

صاح الفتي قائلًا:

- توقف يا أخي، لدى رسالة عاجلة إلى السيد بلفور من قائدي، كما أنني جائع للغاية.

- إذن ادخل وستنال بعضًا من الطعام.

جلس على كرسي حول المائدة، وما أن وضعتُ له بقايا طعام الإفطار حتى انقض عليه في نهم بالغ، بينما عمي قد تناول منه الرسالة، وأخذ يقرأها في صمت، وبعدها نهض واقفًا في حماس ثم جذبني بعيدًا إلى أقصى زاوية في الغرفة.

قال: اقرأ ذلك، ووضع الرسالة في يدي.

«من نُزل هاوزن في كوينزفيري، أكتب إليك يا سيدي لأخبرك بأنني أرسو على الشاطئ مستعدًا لرفع المرساة للإبحار، فالرياح ستكون جيدة اليوم، لقد أرسلت إليك صبي المقصورة الخاص بي ليبلغك بالأمر، لو هناك أي تعليمات أخرى فعليك إخباري بها، لن أنكر بأنني واجهتُ بعض الصعوبات مع المحامي الخاص بك السيد رانكيلور، لو أنك متفرغ اليوم يا سيدي عليك المرور به للاطلاع على بعض الفواتير التي حررتها من أجلك وتركتها لديه.

خادمك المتواضع

إلياس هوسيزون».

قال عمي بمجرد أن رآني أنهي قراءة الخطاب:

- والآن يا ديفيد كما ترى، لدى أعمال مع هذا القبطان هوسيزون، فإذا مشينا أنا وأنت مع هذا الصبي الذي أحضر الرسالة، سأتمكن من إنهاء أعمالي وختم الأوراق المطلوبة، وبعد ذلك نستطيع أنا وأنت الذهاب إلى المحامي السيد رانكيلور، لا أعتقد بأنك ستوليني ثقتك، وستصدق ما سأخبرك به بعد كل ما حدث بيننا، لكنك بالتأكيد ستصدق السيد رانكيلور، إنه رجل محترم من النبلاء، وكانت تربطه بوالدك علاقة صداقة قوية منذ الصغر.

وقفتُ لحظة أفكر، إنه ذاهب إلى المرفأ، وهو مكان شحن السفن، وهو بلا شك مكان مكتظ بالناس، فلن يجرؤ عمي على محاولة إيذائي، بمجرد وصولي إلى هناك يمكنني الضغط على عمي لزيارة المحامي، حتى لو كان عمي الآن غير جادٍّ في اقتراحه؛ وربما في أعماق قلبي تمنيتُ أن أرى منظرًا قريبًا للبحر والسفن، فقد عشتُ طوال حياتي بين التلال والرمال، قبل يومين فقط رأيت الساحل فبدا مثل الأرضية الزرقاء، والسفن الشراعية تتحرك فوقه من بعيد كالألعاب الخشبية الصغيرة.

قلت:

- حسنًا، دعنا نذهب إلى كوينزفيري.

ارتدى عمي قبعته ومعطفه، ووضع القطلس ([24]) الصدئ حول خصره ثم أطفأنا النار، وأغلقنا الباب خلفنا، وانطلقنا في طريقنا.

كانت الريح الباردة التي تهب في الربع البارد من الشمال الغربي في ذلك الوقت من شهر حزيران تلفح وجوهنا أينما ذهبنا، وكان العشب كله أبيض، مشى العم إبينيزر في الطريق وهو يركض من جانب إلى جانب مثل فلاح عجوز عائد إلى منزله بعد العمل. لم يقل كلمة واحدة طوال الطريق، بينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مع الصبي، أخبرني أن اسمه رانسوم، وأنه تبع البحر منذ أن كان في التاسعة من عمره، ولكنه لم يعرف عمره الآن؛ لأنه لم يعد يحسب السنين التي تمر، كشف لي علامات الوشم فوق صدره في عز البرودة، على الرغم من اعتراضاتي؛ لأن قسوة الرياح من حولنا كانت كافية لقتله، كان فتًى هزيلًا ساذجًا، وتفاخر بالعديد من الأشياء الوحشية والسيئة التي قام بها: السرقات الخفية، والاتهامات الباطلة، وحتى القتل، ونظرًا للنقص في التفاصيل فلم أصدقه بالطبع بقدر ما أشفقت عليه، تحدث أيضًا عن بطله القبطان هوسيزون الذي بدا لي شخصًا خشنًا عنيفًا وغير صادق، وهذا ما كان يعجب به الصبي الصغير اعترف فقط بعيب واحد في معبوده، قائلًا:

- أنه ليس بحارًا جيدًا، اعترف بذلك، أن السيد شون هو الذي يبحر بالقبطان، إن السيد شون هو أفضل بحار عرفتُه في حياتي، كما أنه ماهر في تجارة النبيذ، إنني أؤمن بذلك، انظر هنا.

أظهر لي جرحًا أحمر كبيرًا أحدثه هذا السيد بساقه الهزيلة، جعل دمي يبرد وجسدي يرتجف، وقال بنوع من الفخر:

- السيد شون هو مَن قام بذلك.

صحتُ مستنكرًا:

- لماذا؟ أنت لست عبدًا لديهم حتى يتم التعامل معك هكذا!

قال الصبي الغر:

- لا، إنه يعلمني مواجهة المخاطر.

وقد قام بتغيير نبرة صوته على الفور قائلًا:

- وبهذه سأتعامل مع أي خطر بعد اليوم.

وأراني سكينًا رائعًا أخبرني أنه سرقه، وقال بفخر:

- سأفعلها يومًا ما، فإنها ليست المرة الأولى بالطبع.

وأكد ذلك بقسم سخيف، ساذج.

لم أشعر أبدًا بمثل هذه الشفقة على أي شخص في هذا العالم، كما شعرت تجاه هذا المخلوق النصف معتوه، وقد بدا لي أن تلك السفينة التي تُدعى (العهد) هي الجحيم متمثل فوق الأرض.

سألته:

- أليس لديك أقارب؟

قال إنه كان لديه أب يعمل في ميناء بحري إنجليزي، ولكنه نسي اسمه، ثم أردف:

- لقد كان رجلًا طيبًا، لكنه ميت الآن.

- ألا يمكنك أن تجد حياة أفضل على الشاطئ؟

- أوه، لا، ربما يأخذونني كسلعة، ويضعونني في تجارة ما.

سألته ما هي التجارة التي يمكن أن تكون مروعة مثل تلك الباخرة التي يتبعها، حيث يواجه خطرًا مستمرًا طوال الوقت، ليس خطر انقلاب الرياح وغضب البحر فقط، ولكن من خلال القسوة الفظيعة لهؤلاء الذين كانوا سادته. قال هذا صحيح جدًّا، ولكنه بدأ يثني على هذه الحياة من ناحية أخرى، ويخبرني كم كان يسعده الحصول على المال في جيبه، ينفقه كما شاء كالرجل الحر، يشتري التفاح، ويتبختر في السوق بين الأولاد، ثم قال:

- فالأمر ليس بهذا السوء كما ترى.

وأبلغني في النهاية أن هذه الباخرة تعمل في تجارة الرقيق، كان هؤلاء البحارة هم المجرمون التعساء الذين تم إرسالهم عبر البحار لتجارة العبيد في أمريكا الشمالية، والأكثر تعاسة منهم هم هؤلاء الأبرياء الذين تم اختطافهم من أجل المصالح الخاصة أو الانتقام.

عندما وصلنا إلى قمة التل ونظرنا إلى الأسفل رأينا ساحل فيرث أوف فورث([25])(كما كان يعرف بهذا الاسم في ذلك الوقت) وفي وسط المنحنيات الضيقة مباشرة كان هناك جزيرة عليها بعض الأنقاض؛ وعلى الشاطئ الجنوبي قاموا ببناء رصيف لخدمة المرفأ؛ في نهاية الرصيف كان هناك مبنى صغير يُدعى فندق هاوز، محاط بحديقة تمتلئ بالأشجار المقدسة والزعرور([26])، كان هناك مركب صغير مربوط إلى الرصيف وبعض البحارة مستلقون إلى جانبه فوق الأحجار، كان هذا القارب تابع للسفينة، كما أخبرني رانسوم، في انتظار القبطان، وعلى بُعد نصف ميل تقريبًا، كانت سفينة (العهد) تقف وحدها في المرسى وسط صخب مياه البحر، تتأرجح يمينًا ويسارًا وهي ثابتة في مكانها بفعل الرياح، تمكنت من سماع غناء البحارة وهم يسحبون الحبال في نشاط، وبعد كل ما استمعت إليه في الطريق، نظرتُ إلى تلك السفينة ببُغض شديد؛ وفي أعماق قلبي أشفقت على جميع النفوس المسكينة التي حكم عليهم العمل بها.

نزلنا نحن الثلاثة إلى أسفل التل؛ سرت عبر الطريق في هدوء مخاطبًا عمي:

- عليّ إخبارك يا سيدي، أنه لا يوجد شيء في العالم يجعلني أصعد على متن هذه السفينة.

بدا وكأنه استيقظ من حلم فجأة، قائلًا:

- ماذا؟! عما تتحدث؟

كررتُ على مسامعه ما قلتُه للتو، فقال:

- حسنًا، حسنًا، إن كان هذا ما تريده، لكن ما الذي ننتظره هنا؟ إن الجو قارس البرودة، وإذا لم أكن مخطئًا، فهم ينشغلون الآن بتحضير السفينة للإبحار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

أحداث كوينزفيري

بمجرد وصولنا إلى النزل، قادنا رانسوم إلى أعلى الدرج، حيث غرفة صغيرة بها سرير، ومدفأة كبيرة مثل فرن بنار هائلة متقدة، وعلى طاولة صلبة بجوار المدخنة، جلس رجل طويل، داكن البشرة، رصين المظهر، حاد الملامح، وعلى الرغم من حرارة الغرفة، كان يرتدي سترة بحر سميكة، بأزرار إلى الرقبة، وغطاء طويل كثيف الشعر منسدل على أذنيه؛ لم أر في حياتي أي رجل، ولا حتى قاضيًا فوق منصة الحكم، يبدو أكثر جدية، أو أكثر تكلفًا وثقة بالنفس مثل هذا الربان، وما أن رآنا حتى انتصب واقفًا على قدميه في الحال مقدمًا نفسه، ثم قال بنبرة قوية:

- يشرفني أن أراك يا سيد بلفور، إني سعيد للغاية بأنك استطعت الوصول في الوقت المحدد تمامًا، فنحن سنُبحر قبل حلول الليل.

قال عمي:

- أنت تُبقي غرفتك حارة جدًّا أيها القبطان هوسيزون.

أجاب القبطان:

- إنها عادتي يا سيدي، فأنا رجل لدي دم بارد، لا الفراء ولا الروم الحار يستطيع أن يدفئني، مثل معظم الرجال الذين عاشوا في المناطق الاستوائية.

أجاب عمي:

- حسنًا، حسنًا، علينا المضي إلى العمل الآن.

على الرغم من أنني كنتُ قد وعدتُ نفسي ألا أدع عمي بعيدًا عن أنظاري، فلم أستطِع صبرًا لكي أقوم بإلقاء نظرة أقرب على البحر، وأتخلص من حرارة الغرفة الخانقة، طرأت فكرة في رأسي بأن أسرع بالركوض إلى أسفل الدرج وأنفرد بنفسي قليلًا، لقد كنتُ غبيًا بما يكفي لتنفيذ هذه الفكرة، فذهبتُ بعيدًا، وتركتُ الرجلين جالسين على الطاولة إلى جانب زجاجة من النبيذ، وكتلة كبيرة من الأوراق؛ عبرتُ الطريق أمام النزل، ومشيت على طول الشاطئ، تلفحني الرياح الباردة، رأيت فقط موجات ضعيفة، ليست أقوى بكثير مما رأيته في بحيرة صغيرة. لكن الأعشاب كانت جديدة بالنسبة لي، بعضها أخضر وبعضها بني وطويل، وبعضها منتفخ ومتشعب مثل أصابع اليد، كانت رائحة مياه البحر المالحة تداعب أنفي، وبدأت السفينة في فتح أشرعتها التي كانت معلقة على العوارض في مجموعات، هذا الجو المتزاحم والشمس المشرقة والعمل على سطح السفينة ملأني بروح المغامرة والسفر في رحلات بعيدة، واكتشاف الأماكن الأجنبية، نظرت أيضًا إلى البحارة الأشداء في المركب الشراعي الصغير، كان بعضهم يرتدي قمصانًا، وبعضهم يرتدي سترات، وبعضهم يرتدون ملابس ملونة غريبة، حول حناجرهم مناديل معقودة وتتدلى من خصورهم السيوف والأسلحة والسكاكين.

اقتربت من شخص بدا أقل نشاطا من زملائه، وسألتَه عن وقت إبحار السفينة، قال إنهم سيهمون برمي المرساة فور انحسار المياه، وأخذ يعبر عن سعادته أن يكون خارج هذا الميناء البغيض، حيث لا توجد حانات ولا عازفون ولا راقصات، ولكن مع هذه النبرة المرعبة القوية التي تحدث بها أسرعت في الابتعاد عنه، رأيت رانسوم مرة أخرى، ركض نحوي وطلب مني أن نذهب لنشرب النبيذ، قلت له إنني لن أقوم بفعل شيء من هذا القبيل؛ لأنه لا هو ولا أنا في سن مناسب لشرب هذه الأشياء، ولكن قد يكون كأس من البيرة مناسبًا جدًّا، واصطحبته مرة أخرى إلى داخل النزل، حيث كان مسرورًا بالحصول على البيرة، كنا جالسين على طاولة في الشرفة الأمامية من النزل، وكلانا يأكل ويشرب في شهية طيبة.

خطر لي هنا بما أن المالك كان رجلًا من تلك المقاطعة، ربما أحسن صنعًا بالتحدث معه قليلًا، عرضت عليه أن يشاركنا كأسًا من البيرة كما كانت العادة في تلك الأيام، لكنه كان رجلًا أرقى من أن يجلس مع مثل هؤلاء العملاء الفقراء مثلي أنا ورانسوم، كان على وشك أن يغادر الغرفة، عندما ناديته مرة أخرى لسؤاله عما إذا كان يعرف السيد رانكيلور.

قال:

- بالطبع، إنه رجل أمين جدًّا.

- ثم نظر إليّ عن كثب وسألني بصوت منخفض:

هل أنت من أتيت مع إبينيزر؟

عندما قلت له نعم، أردف قائلًا:

- إنك لست صديقًا له، أليس كذلك؟

- مما يعني بالطريقة الأسكتلندية، أنني لست قريبًا له.

أخبرته أن لا، فهو ليس بالشخص الذي أعتز به على أي حال.

قال:

- ولكني أعتقد بأنك تشبه السيد ألكسندر إلى حدٍّ كبير.

قفز قلبي من مكانه على ذكر اسم والدي، ولكنني تجاهلت الإطراء قائلًا فقط إنه يبدو أن السيد إبينيزير ليس محبوبًا في البلاد.

فقال:

- بلا شك، إنه رجل شرير ظالم، يوجد الكثير في البلد يريدون لو يرونه يتأرجح في حبل المشنقة، مثل جانيت كلوستون والكثير غيرها الذين طردهم من بيتهم وهدمه، ومع ذلك فقد كان شابًا جيدًا يومًا ما قبل أن تشوه الشائعات المتعلقة حول أخيه سمعته.

- ما تلك الشائعات؟

- يقال إنه قتل أخيه، ألم تسمع بذلك من قبل؟

- ولماذا يقتله؟

- من أجل الحصول على القصر، قصر عائلة شو الضخم.

- آه إذن فإن ألكسندر كان هو الابن الأكبر.

- نعم لقد كان كذلك.

- من أجل ماذا أيضًا من الممكن أن يكون قتله؟

لم أكن قد أنهيت سؤالي حتى كان صاحب النزل قد ابتعد بالفعل نحو زبون آخر، بالطبع خمنت موضوع الإرث هذا منذ فترة طويلة، لكن التخمين شيء واليقين شيء آخر تمامًا، جلست مذهولًا بحجم هذه الثروة، إنه شيء صعب التصديق أن هذا الفتى المسكين الذي مشى عبر غبار الصحراء من غابة إتريك قبل يومين، سيكون بعد فترة أحد أغنياء أسكتلندا بأكملها، له قصر كبير وأراضٍ واسعة، يمكن أن يمتطي حصانه غدًا ويتجول خلالها في خيلاء وفخر. كل هذه الأشياء المبهجة، وآلاف الأشياء الأخرى كانت تتزاحم في ذهني، حيث جلست أحدق أمامي خارج نافذة النزل، غير مهتم بما أراه؛ فقط أتذكر أن عيني توقفت على الكابتن هوسيزون وهو يقف على الرصيف بين بحارته، يتحدث بهيئة صارمة وكأنه يعطيهم أوامر خاصة بالإبحار ويربت على أكتافهم، ثم عاد يسير في اتجاه النزل، أعجبت بمظهره الرجولي الطويل مع نفس التعبير الرصين والهادئ على وجهه، تساءلت عما إذا كانت القصص التي يحكيها عنه رانسوم حقيقية أم أن نصفها مختلقة، فمظهره لا يتناسب أبدًا مع هذا التعامل الوحشي الذي وصفه الصبي، لكن في الواقع، لم يكن الرجل جيدًا تمامًا كما توقعته، ولا سيئًا تمامًا كما يقول رانسوم؛ لأنه ببساطة كان كلاهما، يترك طبعه الجيد خلفه بمجرد أن تطأ قدمه متن سفينته، ثم سمعت عمي يناديني، كان الرجلان بجوار بعضهما ينتظراني في الطريق، وكان القبطان هو من توجه إليّ وتكلم باحترام بالغ، كان حديثه معي بمثابة إطراء شديد بالنسبة لولد في مثل سني، قال:

- سيدي، لقد أخبرني السيد بلفور عنك الكثير؛ ومن جانبي لقد أحببتُ مظهرك، واطمأننت لملامحك، أتمنى لو كنت هنا لفترة أطول لكي نصبح أصدقاء بشكل أفضل؛ لكن دعنا نحقق أقصى استفادة مما لدينا، ما رأيك أن تصعد معي على متن السفينة لمدة نصف ساعة فقط لنستريح ونتناول بعض الشراب المنعش؟

كنت أتوق إلى رؤية السفينة من الداخل، ولكنني ما كنت لأعرض نفسي للخطر، وأخوض أي مجازفة، فأخبرته أنني على موعد مع المحامي برفقة عمي.

قال:

- نعم، بالطبع أنا على علم بذلك، ولكن كما ترى، يمكن للسفينة أن تحملك إلى رصيف المدينة، وهو مجاور تمامًا لمنزل السيد رانكيلور.

ثم تأبط ذراعي هامسًا:

- احذر هذا الثعلب العجوز إبينيزر، سأحدثك عنه كثيرًا عندما أصعد إلى متن السفينة.

انطلق معي إلى السفينة وهو يقول بصوت مرتفع:

- أخبرني أولًا، ماذا تريد أن أجلب لك من كارولينا([27])؟ أي صديق للسيد بلفور بإمكانه أن يأمر بما شاء، لفة من التبغ الأصلي؟

تريد بعضًا من ريش الهنود الحمر؟ أم جلدًا وحشيًّا بريًّا؟ أم غليونًا حجريًّا؟ الطائر المغرد الذي يموه مثل القطة؟ أم طائر الكاردينال ذا اللون الأحمر([28]) كالدم؟ اختر كما تشاء وأخبرني، إنه لمن دواعي سروري. جاء عمي يسير خلفنا لذا لم أخف بأن يفرَّ مني.

وصلنا إلى جانب القارب، وكان يساعدني على الصعود؛ اعتقدتُ) ويا لي من أحمق مسكين) أنني وجدت صديقًا ومساعدًا صالحًا، وكنتُ سعيدًا برؤية السفينة، بمجرد أن تم صعود جميع البحارين، تم دفع القارب من الرصيف، وبدأنا التحرك فوق المياه لكي نصل إلى السفينة، كنت سعيد بهذه التجربة الجديدة، مظهر الشاطئ يبتعد، وكبر حجم السفينة الذي ازداد عندما اقتربنا منها.

بالكاد استطعت أن أفهم ما كان يقوله القبطان بينما كنا نجلس متجاورين على متن القارب، وبالتأكيد أنني قد أجبت عليه عشوائيًّا مشوشًا، كنتُ مأخوذًا بأزيز المد القوي المواجه للسفينة أنظر إلى جوانبها الضخمة بدهشة بالغة، أعلن هوسيزون أنه يجب أن نكون أول مَن يصعد على متن السفينة، تدلى حبل إلى أسفل أمسكتُ به، وتم رفعي إلى ظهر السفينة.

وهناك وقفت مصابًا بدوار بسيط، ولكنني في حالة من الغبطة المفاجئة بكل الأشياء التي أشاهدها من حولي، اصطحبني القبطان واضعًا ذراعه حول كتفي، وبدأ يفسر لي ما أراه، ويخبرني عن أسماء مكونات السفينة، ولكني انتبهتُ فجأة وسألته:

- ولكن أين عمي إبينيزير؟

قال هوسيزون بنبرة ساخرة فجأة:

- آه، هذا هو السؤال المنطقي.

شعرتُ بالضياع، أفلتُ نفسي منه بكل قوتي، وركضت إلى جانب السفينة. رأيت القارب الذي حملنا يتجه إلى البلدة مرة أخرى، ورأيت عمي يجلس في المؤخرة، أطلقت صرخات متتالية بأعلى صوت:

- ساعدني يا عمي أتوسل إليك، ساعدوني أرجوكم، إنهم يريدون قتلي!

استدار عمي حيث كان يجلس، شاهدتُ وجهه المتجهم من بعيد، ورماني بنظرة مليئة بالقسوة، كان هذا آخر شيء شاهدته، جذبتني يد قوية بالفعل من جانب السفينة، وشعرت بصاعقة تنهال فوق رأسي، تلقيت ضربة قوية بشيء ما؛ ورأيت وميض نار مشتعلة في عيني على إثرها، ثم سقطت فاقدًا الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

بداية رحلتي البحرية على متن سفينة العهد

أفقت في الظلام وأنا أشعر بألم شديد، يدي ورجلي مقيدتين بإحكام، شعرتُ أنني على وشك الإصابة بالصمم نتيجة أصوات كثيرة صاخبة غير مألوفة، سمعت هدير المياه كأنه نابع من سد ضخم بداخل أذني، رعد الأشرعة، وصيحات البحارة العالية، كان العالم كله يتمايل من حولي صعودًا وهبوطًا، جسدي يؤلمني بشدة، وذهني مشوش، لقد استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا حتى أدركت أنني مستلقٍ في مكان ما في تلك السفينة المشئومة، زمجرت الرياح في الخارج كعاصفة هوجاء، وفور صفاء ذهني وإدراكي الواضح لمحنتي، سقطت في دوامة اليأس والرعب وتأنيب الضمير لحماقتي، وامتلأت بالغضب والكراهية تجاه عمي حتى سقطتُ مغشيًّا عليّ مرة أخرى، وعندما أفقت ثانية، سمعت نفس الضجة، نفس الحركات العنيفة التي هزتني وصمت آذاني؛ السفينة ما زالت تترنح وكأنها ستتحطم، وفضلًا عن آلامي الجسدية أصابني دوار البحر. بالتطلع إلى أيام حياتي السابقة المحفوفة بالمخاطر لا أذكر وقتًا عانيت فيه جسديًّا ونفسيًّا أكثر مما عانيته في تلك الساعات الأولى اليائسة فوق سفينة العهد.

سمعت صوت إطلاق النيران، افترضت أن العاصفة كانت قوية جدًّا وكانوا يطلقون إشارات استغاثة، داهمني التفكير في الخلاص بأي طريقة، حتى الموت في أعماق البحار كان مرحبًا به في تلك اللحظة، رغم هذا لم يكن الأمر كذلك، ولكن كما قيل لي لاحقًا إنها عادة شائعة لدى القبطان -وهذا يثبت أنه حتى أسوأ الرجال قد يكون لديهم جانب من اللطف الخفي- إذ كنا على بعد أميال من ميناء ديسارت، حيث تم بناء هذه السفينة، وحيث انتقلت السيدة هوسيزون، والدة القبطان، قبل سنوات قليلة للعيش هناك، فإن سفينة العهد لا تستطيع المرور في ذلك المكان يومًا ما دون إطلاق النيران والمفرقعات والألوان الزاهية في عنان السماء.

لم تكن لدي أي فكرة عن الزمن، فالنهار والليل كانوا متشابهين في ذلك المكان كريه الرائحة، لم أدر كم من الوقت مضى وأنا ممدد هكذا أنتظر سماع تحطم السفينة وارتطامها بالصخور، وتدفق المياه من حولي، لم أكد أصحو حتى أغرق في النوم مرة أخرى من شدة التعب.

استيقظت على ضوء فانوس يدوي مقرب من وجهي، كان هناك رجل صغير في الثلاثين من عمره تقريبًا، بعيون خضراء وشعر أشقر واقفًا ينظر إليّ، ثم قال:

- حسنًا، كيف حالك الآن؟

تنهدت في ألم ولم أحر جوابًا، بعدها ركع الزائر أمامي، وبدأ ينظف الجرح في رأسي ثم قال:

- يا إلهي! لقد كانت ضربة قوية حقًّا! لكن لا تبتئس يا فتي فالعالم لم ينته بعد، لقد قمت ببداية خاطئة، ولكنك ستحقق أفضل من هذا فيما بعد، هل تناولت أي طعام؟

أخبرته بأنني غير قادر حتى أن أنظر إليه، وعندها أعطاني بعض البراندي وبعده بعض الماء في وعاء القصدير، ثم تركني وحيدًا مرة أخرى.

في المرة التالية التي جاء فيها لرؤيتي، كنت أرقد بين النوم والاستيقاظ، عيني مفتوحة على مصراعيها في الظلام، وقد خف التعب قليلًا، لكن ما زال دوار البحر مروعًا، من الصعب تحمله، إلى جانب ذلك كادت الحبال التي تربطني أن تكون من نار تحرق جلدي بشدة، أصبحت رائحة الحفرة التي استلقيت فيها جزءًا مني؛ وخلال تلك الفترة الطويلة منذ زيارته الأخيرة عانيت من عذاب الخوف والوحدة وصوت فئران السفينة التي كانت تثرثر بالقرب من وجهي أحيانًا، تطاردني التخيلات الكئيبة وسط الحمى، أضاء نور الفانوس مرة أخرى عندما انفتح الباب مثل الشمس الساطعة، وعلى الرغم من أنه أظهر لي مقدار الظلمة من حولي حيث كان سجني، أوشكت أن أصرخ ابتهاجًا، كان الرجل صاحب العيون الخضراء أول مَن نزل السلم، تبعه القبطان بنفسه.

لن يتفوه أحدهما بكلمة، لكن الرجل ذا العينين الخضراوين بدأ ينظف ويضمد جرحي مثلما فعل في المرة السابقة، بينما أخذ هوسيزون يرمقني بنظرة غاضبة وعندما انتهى الرجل قال:

- الآن يا سيدي كما ترى، حرارته مرتفعة، وليس لديه شهية لتناول الطعام ولا ضوء من حوله، يمكنك أن ترى بنفسك ما يعنيه هذا، إن بقي هنا سيموت بسرعة.

قال القبطان:

- أنا لست ساحرًا يا سيد ريتش، كيف علي أن أشفيه؟

- أريد أن يخرج هذا الفتى من هذه الحفرة.

- ما تريده هذا يا سيد ريتش، هو أمر لا يشغل أحد سواك، لكن يمكنني أن أخبرك أنه سيبقى هنا، وهنا يجب أن يقضي باقي أيامه، هيا بنا يا سيدي نحن نحتاجك في أعلى السفينة.

التقطه الرجل من كمه قائلًا:

- يدفع أجري هنا لأكون المعاون الثاني لقبطان هذه السفينة، وأنا أبذل ما في وسعي لأستحق هذا المال ولا شيء غير ذلك.

- إذا كنت تريد أن تتخلى عن هذه الوظيفة فافعل فورًا، ووفر أنفاسك اللاهثة هذه لتبريد العصيدة على العشاء.

- عليك الاعتراف بأنك قد حصلت على أموال مقابل ارتكاب جريمة قتل يا سيدي.

استدار هوسيزون إليه بوجه مرتبك وعيون زائغة، وصاح قائلًا:

- ماذا! ما هذا الكلام الذي تقوله؟

قال السيد:

- يبدو أن هذا الكلام هو الذي يمكنك فهمه.

كان ريتش يحدق إليه بثبات، فقال هوسيزون بصوت صارم بعد لحظة صمت:

- يا سيد ريتش، لقد أبحرتُ معك ثلاث رحلات بحرية من قبل، خلال هذا الوقت لا بد أنك عرفتني جيدًا، أنا رجل صلب وعنيد، ولكني لست بقاتل، كيف خطر ببالك مثل هذه الفكرة، أأنت ثملًا يا سيدي؟ حسنًا، إذا كنت متيقنًا بأن هذا الفتى سيموت...

قاطعه ريتش قائلًا:

- بالطبع سيموت.

- إذن ضعه حيثما شئت، أهذا كافيًا الآن؟

واستدار ليصعد الدرج دون المزيد من الكلام.

التفت السيد ريتش وقام بانحناءة تحية لقائده الذي توارى في ثوانٍ معدودة.

بالرغم من أنني مريض وحالتي يُرثَى لها، فإنني استطعت أن أدرك أمرين: أولًا أن معاون القبطان السيد ريتش كان ثملًا بعض الشيء كما توقع القبطان هوسيزون، والأمر الآخر أنه سواء كان ثملًا أو لا فإنه أثبت بكل الطرق أنه صديق صالح.

بعد خمس دقائق قُطعت الحبال التي أوثقتني، وحُملت على ظهر رجل، قادني إلى مقدمة السفينة، واستلقيت فوق فرش على الأرضية، وتدثرت ببعض البطانيات البحرية؛ كان أول شيء فعلته هو أنني غرقت في نوم عميق.

لقد كان شيئًا رائعًا حقًّا أن أفتح عيني مرة أخرى على ضوء النهار، وأجد نفسي بين الرجال. كانت مقدمة السفينة مكانًا فسيحًا بدرجة كافية، تم إعداده بالكامل لكي يجلس فيه رجال المراقبة، فكانوا أغلب الوقت يقومون بالتدخين أو الاستلقاء نائمين، لم أكد أفتح عيني حتى أحضر أحد الرجال لي شراب من شيء لا أعرفه أعده لي السيد ريتش، وأمرني بالراحة التامة، لكي أكون بحالة جيدة عما قريب، وأوضح أنه لم تكن هناك عظام مكسورة حمدًا لله، فقال:

- إنها ضربة على الرأس ليس إلا يا رجل، وأنا من قمتُ بها.

استلقيت هنا عدة أيام مثل السجين، ولم أستعد صحتي مرة أخرى فحسب، بل تعرفتُ على رفاقي، لقد كانوا كثيرًا حقًّا، مجموعة من الأشخاص الفظين، أبحر بعضهم مع قراصنة أخرى من قبل وشاهدوا أشياء من الخطر حتى التحدث عنها، جميعهم أصبحوا قساة القلب نتيجة ما مروا به، أغلبهم مستعدين لقتل حتى أفضل أصدقائهم، لكنني عندما عرفتهم أكثر أدركت أنهم مثل سائر الرجال، صالحون في قرارة أنفسهم، كانوا طيبين وصادقين في أغلب الوقت، جلس بعضهم بالقرب مني لساعات وهم يرون لي قصص حياتهم، كان هناك رجل من بينهم، ربما في الأربعين من عمره، يجلس إلى جانبي لساعات صامتًا وعندما تحدث إليّ في يوم ما، أخبرني عن زوجته وطفله. لقد كان صيادًا سعيدًا حتى هلك قاربه ولم يكن لديه مال لإصلاحه، وبالتالي تم نقله إلى هذه السفينة مع الكثير من البحارة مثله لكي يكسب رزقه، لقد مرّ الآن سنوات على هذه المحادثة، ولكني لم أنسَها أبدًا، زوجته (التي كانت صغيرة بالنسبة له ولكنها كانت مريضة، كما قال لي) انتظرت سنوات طويلة عبثًا لكي يعود زوجها؛

وهو الآخر قضى سنوات لم يستطع تقبل حقيقة أنه لن يراها ثانية هي وابنه الصغير، لن يشعل النار لها مرة أخرى في الصباح، ولن يعتني بالطفل عندما تداهمها إحدى نوبات المرض، كان يبكي ويتوسل إلى الله أن تنتهي حياته لأنه على قدر من الجبن لينهيها بنفسه، ليتخلص من هذا الألم وتأنيب الضمير اللذين سيظلان ملازمان له طيلة حياته.

في الواقع، كان العديد من هؤلاء المساكين (كما سوف تُثبت الأحداث) في رحلتهم البحرية الأخيرة؛ لقد استقبلتهم أعماق البحار وأسماك القرش المتوحشة بعد فترة قصيرة من معرفتي بهم؛ لذلك سأتوقف هنا لأن الحديث بالسوء عن الموتى هو عمل بغيض حقًّا.

كان من بين الأفعال الصالحة التي فعلوها هي إعادة مالي الذي سُرق مني عندما صعدت إلى متن السفينة في البداية، لقد كنت سعيدًا جدًّا باستعادتها، لأنني أملت بأن تكون مفيدة لي خلال هذه الرحلة البائسة، كانت السفينة متجهة إلى كارولينا، ولم أكن مسافرًا إلى هناك كمسافر فحسب، كانت التجارة في ذلك الحين تمر بحالة من الكساد الشديد، وذلك يرجع إلى تمرد المستعمرات، وبداية تشكيل الولايات المتحدة، لكن في تلك الأيام من شبابي، كان الرجال البيض لا يزالون يُباعون كعبيد في المزارع، وكان هذا هو المصير الذي أرسلني إليه عمي الشرير.

كثيرًا ما رأيت رانسوم صبي السفينة، الذي كان ينام ويعمل في القمرة الخلفية التي ينام بها القبطان، كان لديه كل يوم قصة جديدة عن وحشية وشراسة معاون القبطان السيد شون تجاهه، وغالبًا ما كان لديه جرح بالغ أو كدمة ليريني إياها، هذه الأفعال جعلت قلبي ينفطر حزنًا عليه، لكن الرجال كان لديهم احترام كبير للزعيم الذين أطلقوا عليه «بحارنا وقائدنا الوحيد»، لا يتم ذكر اسمه حتى يرددوا هذا اللقب فورًا، لم يكن رجلًا سيئًا للغاية، في الحقيقة وجدت أن هناك خصالًا غريبة تخص القبطانين، أن السيد ريتش كان متجهمًا وغير لطيف مع الآخرين وقاسيًا بطبيعة الحال طوال النهار وهو غير ثمل، وعلى العكس فلم يبدو لي السيد شون ذلك قادرًا على أن يؤذي ذبابة إلا عندما يشرب ويثمل.

لقد بذلت قصارى جهدي في الوقت الصغير الذي سُمح لي خلاله بالحديث مع هذا المخلوق المسكين رانسوم في محاولة الترويح عنه بالحديث عن أهله لم يستطع تذكر أي شيء منذ الوقت الذي جاء به إلى البحر، فقط أن والده كان صانع ساعات، وكان لديه زرزور[29] في المكان الذي يعيش به، لم يكن يتذكر أي شيء سوى ذلك، لقد تم مسح كل شيء من ذاكرته في هذه السنوات الذي عاني خلالها من المشقة والقسوة في هذا السن الصغير.

كان لديه فكرة غريبة عن الأرض خارج البحار، كونها من قصص البحارة حوله، أن في الخارج كان هناك نوع من التجارة، حيث يتم أخذ الفتيان لممارسة العبودية، كانوا يُضربون باستمرار، ويتراكمون فوق بعضهم في سجون كريهة، فلو قابل شخصًا لا يعرفه في الطريق يعتقد أنه فخ منصوب له، ولو شاهد منزل يخرج منه بعض البحارة يعتقد بأنه المكان حيث سيتم تخديره وقتله، أخذ يتردد بأنه سيرد هذه الضربات واللكمات ذات يوم، كان السيد ريتش هو الذي سمح لهذا الصبي أن يشرب الخمر، بلا شك أعتقد أن هذا لطفًا منه؛ ولكنه كان بجانب ذلك يدمر صحته، فأصبح أكثر شيء مثير للشفقة في الحياة هو رؤية هذا المخلوق التعيس يرقص ويتحدث بتراهات وهو يترنح ثملًا

بينما بعض الرجال يضحكون من منظره، ولكن ليس كلهم، فبعضهم يغضب بشدة -ربما يذكرهم منظره بقسوة طفولتهم أو أطفالهم- فينهرونه ويطلبون منه التوقف عن هذا الهراء، بالنسبة لي كنت أشعر بالخجل من النظر إليه، لا تزال صورة هذا الطفل المسكين تطاردني في أحلامي إلى الآن.

ذات يوم دارت بيني وبين السيد ريتش محادثة، والتي جعلت قلبه ضعيفًا لتحمل مشكلاتي، لقد نجحت في جذب انتباهه ليكون في صفي دائمًا، كان ثملًا في ذلك الوقت، ولقول الحق إنه لم يكن ينظر إليّ قط عندما يكون في حالته الطبيعية، تعهدته بالسرية وأخبرته قصتي كلها، وعدني أنه سيبذل قصارى جهده لمساعدتي، ونصحني أنه يجب أن يكون لدي ورق وقلم وحبر وأن أكتب حتى لو سطرًا واحدًا للسيد كامبل وآخر للسيد رانكيلور؛ فإذا كنت قد قلت الحقيقة، فسيكون قادرًا (بمساعدتهم) على أن يخرجني من هنا ويضعني على طريق أخذ حقوقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

القمرة المستديرة

ذات ليلة حوالي الحادية عشرة مساء، هبط رجل إلى مقدمة السفينة ليجلب معطفه، وأطلق خبرًا ما سرعان ما انتشر بين البحارة، وكان فيما معناه (لقد قتله شون أخيرًا)، لم يكن أحد بحاجة إلى أن يسأل مَن هو، لقد أدركنا جميعًا ما حدث عندما هبط هوسيزون الدرج، جال بنظره على المضاجع يمسك قنديلًا في يده، ثم أتى إليّ مباشرة ولدهشتي تحدث بلطف بالغ:

- حسنًا يا بني! نريدك أن تخدم في القمرة العلوية للقبطان، أنت ورانسوم عليكما أن تغيرا المراسي فورًا، هيا أسرِع إلى هناك.

وفيما كان يتحدث هبط رجلان يحملان الضحية فوق ذراعيهم، تأرجح القنديل بحيث أضاء وجه الفتى الذي كان شاحبًا كالشمع يحمل نظرة كابتسامة مروعة، وعندما شاهدني هوسيزون وأنا أنظر إلى رانسوم المقتول، صرخ فيّ بشدة:

- اخرج من هنا، اخرج على الفور.

انزلقتُ بين البحارين والفتى المحمول صاعدًا الدرج إلى قمة السفينة التي كانت تتأرجح صعودًا وهبوطًا فوق البحر الهائج، وأشد ما أدهشني أنني ما زلت أرى ضوء الشمس مع أن الوقت كان متأخرًا جدًّا، لكنني كنت جاهلًا جدًّا وقتها لأتوصل للاستنتاج الحقيقي بأننا كنا بلغنا شمال أسكتلندا، مبحرين بين جزر أوركني ([30])وجزر شتلند، لم أكترث لذلك، ومضيت مترنحًا على متن السفينة حتى كدت أسقط ولم ينقذني سوى يد بحار طيب.

كانت القمرة المستديرة التي كان يتوجب عليّ الإقامة بها على ارتفاع ستة أقدام فوق متن السفينة، كانت مؤثثة جيدًا من الداخل بالنسبة لباقي السفينة، تتكون من طاولة وكراسي وسريرين، واحد للقبطان والآخر للرفيقين المساعدين اللذين يتناوبان على النوم فوقه، كانت هناك خزائن من الأعلى إلى الأسفل، حيث تحفظ متعلقات القبطان، كان هناك تحت القمرة غرفة أخرى صغيرة للغاية بمثابة مخزن يمكن بلوغه عبر باب أرضي، حيث يتم تخزين كل اللحوم الفاخرة والنبيذ وجميع الذخائر والأسلحة النارية ما عدا مدفعين نحاسيين وضعا على رف مثبت في أحد جوانب القمرة المستديرة، كانت هناك نوافذ صغيرة بها مصارع على كل جانب وواحدة في السقف، تضيء القمرة نهارًا؛ وبعد حلول الظلام كان هناك مصباح مشتعلًا دائمًا. كان مشتعلًا عندما دخلت، لا يضيء بقوة ولكن يكفي لإظهار السيد شون جالسًا إلى الطاولة، مع زجاجة البراندي وكوب من الصفيح أمامه، كان رجلًا طويل القامة، قوي البنية، شديد السواد، لم ينتبه إلى مجيئي؛ ولم يتحرك أيضًا عندما جاء القبطان الذي أخذ يحدق بحزن إلى رفيقه، وقفت في خوف شديد من هوسيزون، كان لدي أسباب لذلك، لكن شيئًا ما قال لي بأنه لا يتوجب علي الخوف منه في هذا الوقت، همست في أذنه:

- كيف حاله الآن؟

هز رأسه مثل من لا يعرف ولا يرغب في التفكير، وكان وجهه شديد الصرامة، سرعان ما جاء السيد ريتش، رمق القبطان بنظرة أشارت بوضوح كما الكلمات إلى أن الفتى قد مات.

ثم أخذ مكانه بجانب الطاولة، ووقفنا نحن الثلاثة نحدق إلى السيد شون في صمت، بينما كان جالسًا دون أن ينبس ببنت شفة ينظر بشرود إلى الطاولة، وفجأة مد يده ليتناول زجاجة البراندي، وفي الحال انتشلها السيد ريتش منه وألقى بها من النافذة إلى البحر، نهض السيد شون وكاد أن يقترف جريمة قتل ثانية هذه الليلة لولا أن القبطان وقف بينه وبين ريتش صائحًا:

- اجلس أيها الثمل اللعين، هل تعلم ماذا فعلت؟ لقد قتلت الصبي! يبدو أن السيد شون عاد إلى وعيه؛ لأنه جلس مرة أخرى.

ورفع يده الى جبينه قائلًا:

- حسنًا، لقد أحضر لي كوبا قذرًا!

عند هذه الكلمة نظرنا أنا والقبطان والسيد ريتش لبعضنا البعض لمدة ثانية بنظرة متوترة؛ ثم سار هوسيزون إلى رئيس البحارة، وأخذه من كتفه وقاده إلى سريره، أمره بأن يستلقي ويخلد إلى النوم، تمامًا مثلما يتحدث المرء إلى طفل سيئ، بكى القاتل قليلًا، لكنه خلع حذاءه البحري وأطاع.

صاح السيد ريتش بصوت مريع:

- آه! كان ينبغي أن تضع حدًّا لذلك منذ زمن بعيد، لقد فات الأوان الآن.

قال القبطان:

- ما حدث هذه الليلة لا بد أن يبقى سرًّا ولا يعلم عنه أحد من ديسارت يا سيد ريتش، لقد سقط الصبي في البحر، هذه روايتنا، وكم كنت أتمنى لو كانت حقيقية.

ثم التفت إلى الطاولة قائلًا:

- ولكن ما الذي جعلك تلقي بزجاجة النبيذ الجيدة من النافذة يا سيدي؟ كان هذا فعلًا متسرعًا عديم النفع، اجلب لي زجاجة أخرى يا ديفيد، إنهم في الخزانة السفلية.

وألقي لي مفتاحًا، ثم استكمل قائلًا:

- ستحتاج إلى كأس أنت الآخر يا سيد ريتش، لقد كان حادثًا بغيضًا.

وهكذا جلس الاثنان يتحدثان، وبينما هم يفعلان ذلك كان القاتل مستلقيًا ينوح في مضجعه، رفع نفسه فجأة على مرفقه ونظر إليهم ولي، ثم نام مرة أخرى.

كانت تلك الليلة الأولى من عملي الجديد، بالإضافة إلى تقديم الوجبات كان عليّ الإسراع بالمشروب إلى البحارة الثلاثة خلال ساعات النهار والليل، وفي الليل كنتُ أنام على بطانية تم إلقاؤها على ألواح الأرضية في ركن من أركان القمرة المستديرة، عمل تيار الهواء البارد الذي يأتي من فتح البابين معًا على جعل هذا المكان صلبًا وباردًا؛ كنت أتمنى أن أنام ولو ساعة واحدة بلا مقاطعة، فهناك على

الدوام شخص ما يأتي من سطح السفينة للحصول على الخمر، وعندما تكون ليلة جيدة والهواء منعش يجتمع اثنان منهم، وأحيانًا الثلاثة يجلسون ويثملون معًا. كيف حافظوا على صحتهم، لا أعرف، ولكني أعرف كيف حافظت على خاصتي بالابتعاد عنها.

كانت الوجبات دائمًا من العصيدة أو من اللحم المملح، كان العمل سهلًا في أغلب الوقت، على الرغم من أنني كنت أخرق في كثير من الأحيان، تعثرت بعض المرات وأنا أحمل الطعام (لأنني لم أكن ملتزمًا بارتداء حذاء البحر)، ولكن كان السيد ريتش والقبطان صبورين معي، لم أتلقَّ أيًّا من الضربات القوية التي عانى منها رانسوم المسكين.

لم يكن السيد شون بكامل وعيه دائمًا، ربما من فرط الشراب، كان يشرب طيلة النهار نتيجة جريمة القتل هذه، جعل هذا منه شخصًا هادئًا تمامًا، بدا وكأنه يخشاني، كان يتنحى جانبًا بعيدًا عن يدي وأنا أخدمه، أحيانًا يظن أنني رانسوم وينادني باسمه، وأحيانًا يسألني قائلًا:

- أين الصبي الآخر؟

ربما تجدون ذلك غريبًا، ولكني في كل الحالات أشفقت عليه وأسفت لحالته، لقد كان رجلًا متزوجًا، لديه زوجة تعيش في ليث([31])ولكن سواء كان لديه عائلة أم لا، فلم يعد هذا يهم الآن.

لم تكن بالحياة القاسية -كما أنها لم تدم طويلًا- كنت أتغذى بشكل جيد حتى المخللات التي كانت شهية للغاية سمح لي بنصيب منها، كما أنني كنت برفقة جيدة وفريدة من نوعها. السيد ريتش، الذي ذهب إلى الكلية يومًا ما، كان يتحدث معي كصديق عندما لم يكن عابسًا، وأخبرني بالعديد من الأشياء الغريبة، وحتى القبطان، رغم أنه كان يعاملني بجدية في معظم الأوقات ولكنه في بعض الأحيان ينفصل قليلًا، ويخبرني عن الدول الجميلة التي زارها، لكن طيف رانسوم المسكين ظل مخيمًا علينا نحن الأربعة، وعلى السيد شون خصيصًا بشكل كبير.

ثم واجهت مشكلة أخرى خاصة بي، وهي أنني في كثير من الأحيان أنظر إلى حالي وأكره نفسي، في حقيقة الأمر لقد كنت أقوم بخدمة ثلاث رجال قذرين، من داخلي أنظر إليهم بازدراء وأحتقرهم، ثلاثتهم مجرمون، واحد منهم على الأقل يجب أن يعلق على حبل المشنقة، كان تفكيري هذا بخصوص الوقت الحاضر، لكن فيما يتعلق بالمستقبل، لم يكن بإمكاني إلا أن أرى نفسي أعمل جنبًا إلى جنب مع الزنوج في حقول التبغ، أما السيد ريتش وربما من الحذر، لم يعد يدعني أنطق كلمة أخرى عن قصتي، معاون القبطان الذي حاولت الاقتراب منه، رفضني مثل الكلب، ولم يسمح لي بالحديث عن حياتي السابقة، ومع مرور الأيام أصبحت أكثر تعاسة حتى إنني كنت ممتنًا للعمل الذي أبقاني منشغلًا عن التفكير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

صاحب حزام الذهب

مرّ أكثر من أسبوع رافقنا سوء الحظ خلاله، واجهت سفينة العهد طقسًا سيئًا متواصلًا، في بعض الأيام كانت تشق طريقها لمسافة بسيطة؛ وفي البعض الآخر كانت تعود أدراجها مرة أخرى، أخيرًا وجدنا أنفسنا داخل ضباب كثيف لم نستطع معه الرؤية، طوال فترة الظهيرة عندما كنت أهبط إلى ظهر السفينة، كنت أرى رجالًا وبحارة يستمعون بجدية إلى حركة الأمواج وهي ترتطم بالشاطئ القريب، وعلى الرغم من أنني لم أفهم الوضع جيدًا؛ فإني شعرت بأن هناك خطرًا يواجهنا.

بحلول المساء حوالي الساعة العاشرة، كنت بداخل القمرة أقدم وجبة العشاء إلى القبطان والسيد ريتش عندما اصطدمت السفينة بشيء أحدث ضجة هائلة، نهض الرجلان وقال هوسيزون:

- لقد اصطدمنا بالشاطئ.

فرد عليه السيد ريتش قائلًا:

- كلا يا سيدي، لقد اصطدمنا بقارب ليس إلا.

كان مساعد القبطان على حق، فعندما هبطنا إلى متن السفينة رأينا أنها صدمت قاربًا صغيرًا، غرق إلى قعر المياه بكل بحارية، ما عدا واحدًا فقط، هذا الرجل (كما سمعت فيما بعد) كان جالسًا في المؤخرة كراكب عادي وليس بحارًا، بينما كان الباقون على مقاعد التجديف، في اللحظة الذي ارتطمت بها السفينة بالقارب ارتفعت مؤخرة القارب في الهواء -وبالرغم من أنه كان مثقلًا بمعطف ثقيل للغاية يصل إلى أسفل ركبتيه- فقد تمكن من التعلق بجانب سفينتنا، كان لديه الكثير من الحظ والرشاقة والقوة غير العادية التي مكنته من إنقاذ نفسه من مثل هذه الميتة المروعة، عندما جلبه القبطان إلى القمرة الخلفية بدا هادئًا مثلي.

كان صغيرًا في القامة، رشيقًا كالماعز، وجهه يحمل تعبيرًا وديًّا، وبشرة داكنة لوحتها الشمس، وممتلئ بالنمش، كانت عيناه بلون فاتح وتلمعان بشكل غير عادي تستشعر فيهما نوع من الذكاء والحدة، كان ذلك لطيفًا ومقلقًا في آن واحد، وعندما خلع معطفه، وضع زوجًا من المسدسات الفضية الأنيقة على الطاولة، ورأيت سيفًا كبيرًا مثبتًا إلى خصره، كانت أخلاقه نبيلة إذ أخذ يشكر القبطان بأسلوب مهذب، للوهلة الأولى عرفت أنه من الممكن أن يكون صديقًا وليس عدوًا.

كان القبطان يتأمل ويكون ملاحظاته أيضًا، ولكن على ملابس الرجل بدلًا من شخصيته.

كان يرتدي قبعة ذات ريش في أعلاها، سترة حمراء، وبنطال من القطيفة السوداء، ومعطف أزرق بأزرار فضية ودانتيل فضي أنيق؛ ملابس باهظة الثمن على الرغم أنها فقدت رونقها بعض الشيء نتيجة سقوط الأمطار، وارتدائها لفترة طويلة.

نظر القبطان هوسيزون إليه قائلًا:

- آسف بشأن القارب يا سيدي.

قال الرجل:

- أنا أيضًا آسف للغاية، لقد غرق الكثير من الرجال النبلاء، الفرد الواحد منهم يساوي مئات القوارب.

- أهم أصدقاؤك؟

- لم أجد مثلهم في بلدي، فقد كانوا على استعداد للموت من أجلي.

قال القبطان بجدية، وهو ما زال ينظر إليه:

- حسنًا يا سيدي، ما زال هناك عدد كبير من الرجال في العالم يفوق عدد القوارب التي توضع فيها بكثير.

صاح الرجل:

- هذا صحيح أيضًا.

- لقد كنت في فرنسا يا سيدي.

كانوا يعنون شيئًا بكلامهم لم أستطع فهمه، وكان هذا الشيء أكبر بكثير مما يبدو على وجوههم، أسرع الرجل الغريب يضع يده على مسدساته، فقال القبطان:

- لا تتسرع يا سيدي، لا تقم بعمل لست بحاجة إليه، أنت ترتدي معطف جندي فرنسي وقبعة أسكتلندية فوق رأسك، من السهل معرفة اتجاهك.

- إذن هل أنت يعقوبي([32])؟

- لا يا سيدي -أجاب القبطان- أنا بروتستانتي([33]) أبا عن جد، وأشكر الله على ذلك (كانت هذه المرة الوحيدة التي تحدث بها عن أي أديان، ولكنني علمت بعد ذلك أنه كان يرتاد الكنيسة بشكل مستمر في أثناء وجوده على الشاطئ(ولكني أكره أن أجد أي رجل في مأزق.

أعقب الرجل:

- حسنًا يا سيدي، لكي أكون صريحًا معك فأنا واحد من أولئك السادة الذين اشتركوا في واقعة عام ([34])١٧٤٥، وبالتالي فإذا وقعت الآن في أيدي أصحاب المعاطف الحمراء (الجنود البريطانيين) سأكون في مأزق حقًّا، لقد كنت في طريقي إلى فرنسا الليلة، لكن السفينة الفرنسية التي كانت ستحملني ضلت طريقها في الضباب، وحدث مثلما شاهدت، أفضل ما يمكنني قوله الآن هو إنك لو استطعت أن تضعني على الشاطئ حيث كنت سأذهب سأكافئك بسخاء نظير مساعدتك.

قال القبطان:

- في فرنسا؟ لا سيدي؛ لا أستطيع أن أفعل ذلك، ولكن لو تريد أن ترجع من حيث أتيت فربما يمكننا أن نتحدث إذن.

وبعد ذلك ولسوء الحظ، لاحظني السيد ريتش واقفًا في ركن الحجرة وقادني إلى المطبخ لإحضار بعض الطعام للرجل، لم أستغرق الكثير من الوقت، وعندما عدت إلى القمرة المستديرة وجدت الرجل قد أخذ حزام نقوده من حول خصره ووضع غينيا ([35])أو اثنتين على الطاولة. كان القبطان ينظر إلى الغينيات، ثم إلى الحزام، ثم إلى الرجل وأعتقد أنه بدا متحمسًا، ثم قال:

- اعطني نصف المال وسوف أوصلك إلى حيث تريد، فأنا رجلك الآن.

قام الرجل بدفع المال إلى الحزام ووضعه مرة أخرى تحت سترته قائلًا:

- لا يمكنني يا سيدي، فهذا المال لزعيمي، وإذا كنت سأقترض منه جزءًا لكي يتم إيصال الباقي إلى صاحبه، ثلاثون جنيهًا لو أنزلتني على شاطئ البحر، أو ستون إذا أوصلتني إلى بحيرة لوخ([36])، خذها إذا كنت تريد وإن لا تريد يمكنك أن تفعل ما يرضيك.

قال هوسيزون:

- آه، وإذا سلمتك للجنود؟

- أنا آسف ولكنك بذلك ستقوم بصفقة حمقاء يا سيدي، دعني أخبرك، أن زعيمي تم مصادرة أملاكه مثل كل رجل غني في أسكتلندا، كما تم نفيهم إلى خارج البلاد، وأصبحت تلك الممتلكات والأراضي بين يدي الملك جورج؛ وكان ضباطه هم من يجمعون الإيجارات، أو يحاولون جمعها، لكن من أجل شرف أسكتلندا، فكر المستأجرون الفقراء في زعيمهم الذي يرقد في المنفى؛ وهذه الأموال هي جزء من ذلك الإيجار الذي يذهب إلى الملك جورج. والآن، يا سيدي، يبدو لي أنك رجل يفهم كيف تسير الأمور جيدًا، عليك أن تعمل على إيصال هذا المال إلى متناول يد زعيمي، وتفكر فيما ستجنيه من وراء ذلك.

قال هوسيزون:

- القليل، بالتأكيد.

- أفضل من لا شيء لو تمكن الجنود من إلقاء القبض علي.

- حسنا، ستون غينيا، اتفقنا ها هي يدي.

- وهذه يدي. تصافحا بحرارة وسرعان ما غادر القبطان القمرة، وتركني بمفردي مع الرجل الغريب.

في ذلك الوقت كان هنالك الكثير من النبلاء الأسكتلنديين المنفيين قد أتوا سرًّا عن طريق فرنسا لمقابلة أصدقائهم أو لجمع الأموال، وكان المستأجرون لممتلكات هؤلاء السادة الخارجين عن القانون يبذلون ما في وسعهم لتوفير الأموال وإرسالها إلى زعمائهم، وغالبًا ما سمعت عن مغامرات هؤلاء الأشخاص الذين جازفوا وتكبدوا المخاطر لتوصيل هذه الأموال، كنت أنظر في تلك اللحظة إلى واحد من أولئك الخارجين عن القانون.

كنت أسعى لكي أبادله الحديث، فقلت له بينما كنت أضع طبق اللحم المملح أمامه:

- إذن أنت يعقوبي؟ من أنصار ملك إنجلترا جيمس الثاني؟

أجاب وهو يشرع في تناول الطعام:

- وأنت؟ فكما يوحي لي وجهك البائس يبدو أنك من الرعاع أتباع الملك جورج.

قلت:

- نعم ولا. إذ لم أشأ أن أعارضه على الرغم من أنني كنت نصيرًا مخلصًا للملك جورج، بقدر ما استطاع السيد كامبل أن يجعلني كذلك.

- هذا لا يعني شيئًا، لكن هذه الزجاجة فارغة يا سيد (نعم ولا) وإذا كنت سأدفع ستين غينيا فأنا أريد أن أشرب شيئًا في المقابل.

- سأطلب مفتاح الخزانة على الفور.

ثم خرجت إلى متن السفينة، كان الضباب لا يزال كثيفًا، ولكن السفينة كانت ساكنة.

رأيت القبطان والمعاونين في جانب منزوٍ ورءوسهما مجتمعة معًا، لقد صدمني منظرهم، لا أعرف لماذا تحديدًا ولكنني شعرت أنهم يسعون وراء شيء ماكر؛ والكلمة الأولى التي سمعتها، عندما اقتربت بهدوء أكثر، كان السيد ريتش يصرخ كما لو طرأت إليه فكرة مفاجئة:

- ألا يمكن أن نخرجه من القمرة المستديرة؟

- إنه أفضل حيث هو الآن -أجابه هوسيزون- حيث لا يستطيع استخدام سيفه.

علينا مباغتته في أثناء الحديث معه، وتثبيت ذراعيه، ثم سلبه السيف والأموال، لكن كيف نحصل على مسدساتنا؟

شعرت بالخوف والغضب على هؤلاء الرجال الخونة الجشعين والدمويين الذين أبحرت معهم. للوهلة الأولى خطر في رأسي أن أفرَّ هاربًا لأتخلص من حديث هؤلاء المجرمين وخططهم الغادرة، بعد ذلك طرأت في ذهني الخطوة الأكثر شجاعة، فقلت بصوت مرتفع لكي ينتبهوا إلى وجودي:

- يا سيدي القبطان، إن هذا السيد يريد المزيد من النبيذ هلا أعطيتني مفتاح الخزانة؟

التفتوا إلى جميعًا ثم صاح ريتش:

- إنها فرصتنا الوحيدة، ديفيد يا بني هل تعرف مكان المسدسات بالقمرة المستديرة؟

قال هوسيزون:

- نعم بالتأكيد، إنه يعرف، اسمعني جيدًا يا ديفيد، هذا الرجل الغريب الذي جاء من الأراضي المرتفعة خطر على السفينة، كما أنه عدو للملك جورج -حفظه الله- المشكلة الآن لو دخل أحد منا ليجلب مسدسه ربما سينتابه الشك بنا ويحاول مواجهتنا، لكن صبيًّا مثلك يا ديفيد، يمكنه الحصول على واحد

أو اثنين من دون أن يلاحظ، ساعدنا في هذا الأمر يا ديفيد، وإذا تمكنت من فعل ذلك بذكاء، سأضع هذه المساعدة القيمة في الاعتبار عندما نصل إلى كارولينا، فمن الجيد أن يصبح لديك أصدقاء.

وهنا همس السيد ريتش:

- صحيح جدًّا يا سيدي، ثم توجه إليّ قائلًا:

- انظر إلى يا ديفيد، هذا الرجل لديه حزام ممتلئ بالذهب، وأنا أعطي لك كلمتي بأن يكون لديك نصيب منه.

وافقتُ على طلبهم، فأعطاني مفتاح الخزانة، بعدها سرت عائدًا إلى القمرة ببطء، ماذا على أن أفعل؟ إنهم حفنة من السفاحين واللصوص، خطفوني وقتلوا رانسوم المسكين، والآن يريدون أن يقحموني في عملية قتل شخص آخر، من ناحية أخرى، كان الخوف من الموت يهزني من الداخل، فماذا يمكن لصبي ورجل حتى ولو كانا شجاعين مثل الأسود، أن يفعلوا ضد سفينة كاملة؟ أخذتُ أقلب الأمر في رأسي يمينًا ويسارًا، ولكني لم أتوصل إلى شيء في النهاية، وعندما دلفت إلى داخل القمرة، وجدت اليعقوبي ما زال يتناول طعامه بنهم، اتخذت قراري في ثانية واحدة، لم يكن لدي خيار آخر، لقد كنتُ مجبرًا على فعل ذلك، سرت إلى الطاولة، ووضعت يدي فوق كتفه قائلًا:

- هل تريد أن تُقتل؟

قفز واقفًا على قدميه، ونظر إليّ بسؤال واضح في عينيه كما لو كان نطق به.

صحتُ قائلًا:

- أوه! إنها سفينة مليئة بالقاتلين اللصوص، لقد قتلوا صبيًا بالفعل، والآن يخططون لقتلك أنت.

نظر إليّ بفضول وهو يتمتم:

- هل ستقف معي؟

- بالطبع سأفعل، أنا لستُ لصًا ولا قاتلًا.

- ما اسمك؟

- أنا ديفيد بلفور من عائلة شو.

لم يخطر بباله أبدًا أن يشك بي؛ لأن واحدًا مثله من سكان المرتفعات معتاد على رؤية نبلاء كثيرين يعيشون في فقر مدقع؛ ولكن نظرًا لأنه لم يكن لديه أي ملكية خاصة به، فقد أوقعت كلماتي في نفسه نوعًا من الغرور الطفولي إذ قال في اعتزاز واضح:

- كنيتي هي ستيورات، أحمل اسمًا ملكيًّا ولكنهم يدعونني آلن بريك.

لم يكن لدينا وقت للتحاور، فالتفتنا على الفور لتفحص مراكز دفاعنا، كانت القمرة المستديرة متينة البنيان، تحتوي على خمسة مداخل، نافذتين وكوة في السقف وبابين

مصنوعين من خشب البلوط القوي، كل منهما مزود بخطافات معدنية لإبقائها إما مغلقان أو مفتوحان حسب الحاجة، أغلقتهما بطبيعة الحال، ولكن آلان أوقفني قائلًا:

- ديفيد، أعذرني لا أستطيع تذكر اسم عائلتك، ولذا سأكون جريئًا بما فيه الكفاية لأناديك ديفيد، هذا الباب لا بد أن يكون مفتوحًا، هذا أهم جزء من دفاعي لكي يتسنى لي رؤية عدوي وجهًا لوجه عندما يأتي.

ثم أعطاني من فوق الرف قطلس قديم للغاية (كان هناك القليل منها إلى جانب الأسلحة النارية)، اختارها بعناية كبيرة وهو يهز رأسه ويقول إنه لم يسبق له أن رأى أسلحة فقيرة وقديمة كهذه طوال حياته، ثم أمرني بالجلوس إلى الطاولة لكي أقوم بحشو كل المسدسات التي بالمخزن، بينما تناول سيفه وأخذ يلوح به في الهواء.

كان صدري ضيقًا، وحلقي جافًا؛ إن التفكير في عدد الذين سيهاجمونا جعل قلبي يغوص، تبادرت إلى ذهني بشكل غريب صورة جسدي الميت الذي سيحمل إلى الشاطئ غدًا.

باغتني آلان فجأة بسؤاله وكأنه قد قرأ أفكاري:

- بادئ ذي بدء، كم عدد المعارضين لنا؟

بدأت في تذكرهم وحسابهم، ونظرًا لأنني كنت متوترًا للغاية فكان على أن أعيد عدهم في ذهني مرتين، ثم قلت له:

- خمسة عشر فردًا.

أطلق صفيرًا خافتًا يدل على الدهشة ثم قال:

- حسنًا، لا مفرّ من مواجهة ذلك، اصغ إليّ الآن جيدًا يا ديفيد، سأحرس هذا الباب، حاذر أن تطلق النار في هذا الاتجاه إلا عندما أسقط، فأنا أفضل أن أواجه عشرة أعداء أمامي على أن يكون لدي صديق واحد يُطلق النار من خلفي، أخبرته بأني لم أكن بالمصوب الجيد تمامًا، فنظر إليّ بدهشة وصاح بإعجاب كبير من صراحتي:

- يا له من قول شجاع! هناك الكثير من الرجال المحترمين ولكنهم لا يجرءون على قول ذلك.

- وماذا بعد يا سيدي، هناك باب خلفك ربما يقتحمون من خلاله.

- وهذا جزء من عملك ما أن تفرغ من تعبئة المسدسات حتى تراقب هذا الباب، وبمجرد أن ينفتح سوف تطلق النار، لكن هذا ليس كل شيء، دعني أرى ما يدور في رأسك من أفكار للمواجهة يا ديفيد، ماذا يتوجب عليك فعله أيضًا؟

- هناك الكوة أيضًا يا سيدي، لكن في الواقع يا سيد ستيوارت سأحتاج أن أنقل عيني إلى كلا الجانبين للحفاظ على رؤية الاثنين معًا؛ لأنه عندما يكون وجهي للباب يكون ظهري للآخر.

- هذا صحيح بالفعل، ولكن أليس لديك أذان في رأسك؟

- بالتأكيد! -صحت قائلًا- أها، وقتها سوف أسمع تحطيم الزجاج!

قال آلان بنبرة ساخرة:

- لديك حس منطقي بالفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

حصار القمرة المستديرة

كان أولئك السادة الموجودون على سطح السفينة ينتظرون مجيئي حتى نفد صبرهم؛ وأخيرًا جاء القبطان إلينا، وعندما أظهر وجهه من الباب المفتوح، صرخ آلان:

- قف! وأشهر سيفه نحوه، وقف القبطان مصدومًا حقًّا، لكنه لم يجفل ولم تتراجع قدمه قيد أنملة.

ثم قال بصوت مبحوح:

- سيف عارٍ؟ أهذه هي الطريقة التي تشكر بها حسن الضيافة والترحيب؟

- هل تراني جيدًا؟! لقد جئت من أرض الملوك، أنا أحمل اسم ملك، وشارتي هي البلوط، هل ترى سيفي هذا؟! لقد قطع رءوس الكثير من أتباع الملك جورج أكثر من أصابع قدميك معًا، ولن يحجم الآن عنكم، استدع حشراتك ليأتوا خلفك يا رجل! فكلما بدأ الاشتباك مبكرًا، كلما كنتم أسرع في تذوق هذا الفولاذ داخل أحشائكم.

لم يقل القبطان شيئًا لآلان، لكنه نظر إليّ بنظرة مرعبة قائلًا:

- سوف أتذكر هذا جيدًا يا ديفيد، وفي اللحظة التالية خرج.

قال آلان:

- والآن، دع يدك تحمي رأسك، فالهجوم على وشك البدء.

أمسك بخنجره في يده اليسرى والسيف في يمناه ووقف بجوار الباب في حالة تأهب وحماسة، بينما حملتُ مجموعة من المسدسات ووقفت بجانب النافذة حيث كنت سأراقب، لم يكن بإمكاني سوى رؤية جزء صغير من سطح السفينة، لكنه كان كافيًا لغرضنا، كان البحر قد سكن، والرياح ضعيفة حافظت على هدوء الأشرعة فترة طويلة، كان هناك صمت مخيم على السفينة بأكملها، وبعد مرور بضعة دقائق سمعت صوت تصادم شيء من الفولاذ على سطح السفينة، خمنت من خلاله أنهم كانوا يعدون سيوفهم؛ وبعد ذلك عاد الصمت مرة أخرى.

لا أعرف إذا ما كنت ارتجف من الخوف أم من البرد؛ لكن قلبي كان ينبض مثل عصفور سريع وصغير؛ كانت الرؤية ضبابية أمام عينيّ التي كنت أفركها باستمرار، وتعود ضبابية باستمرار، لم يكن لدي أمل في النجاة على الإطلاق، فقط ظلمة اليأس ونوع من الغضب على العالم كله جعلني أتوق للتخلص من حياتي بأقصى ما أستطيع. حاولت أن أصلي، على ما أذكر، لكن دقات قلبي السريعة في صدري التي كانت كدقات قلب رجل يركض، لم تجعلني أفكر حتى في الكلمات التي يجب عليّ قولها، كانت أمنيتي الوحيدة هي أن يبدأ هذا الهجوم وينتهي سريعًا، وبالفعل بدأ الهجوم فجأة مع اندفاع الأقدام وزئير الرجال، ثم صراخ من آلان، ارتفع صوت الضربات والتأوهات، نظرت خلف كتفي، ورأيت السيد شون في المدخل يتشابك مع آلان، صرخت قائلًا:

- هذا هو الذي قتل الصبي!

- انظر إلى نافذتك! صاح آلان؛ وعندما عدت إلى مكاني، رأيته يمرر سيفه عبر جسد معاون القبطان شون.

بينما كنت التقت ركض خمسة رجال تجاه الباب الآخر، لم أكن قد أطلقت النار من مسدس في حياتي من قبل، لكن في هذه اللحظة إما الآن أو أبدًا. فعندما أقبلوا مندفعين نحو الباب صرخت بكل وحشية:

- لكم هذاا!!

وأطلقت النار في وسطهم، لا بد أنني أصبت أحدهم؛ لأنه ترنح وعاد خطوة للخلف، توقف الباقون كما لو كانوا مرتبكين قليلًا، وقبل أن يتاح لهم الوقت لإدراك الأمر، أرسلت لهم كرة أخرى؛ وفي تسديدتي الثالثة أسرع الرجال إلى الفناء الخارجي يركضون.

نظرت حولي مرة أخرى إلى سطح السفينة، كان المكان كله مليئًا بدخان إطلاق النار الخاص بي، كما بدت أذني وكأنها ستنفجر من ضجيج الطلقات.

بينما كان آلان واقفًا في مكانه سيفه يسيل بالدماء إلى أقصى درجة، آلان امتلأت نفسه بفخر الانتصار، بدا وكأنه شخص لا يُقهر. أمامه مباشرة على الأرض كان السيد شون، جاثيًا على يديه وركبتيه. كان الدم يتدفق من فمه، ووجهه شاحب كالموتى، أمسكه بعض رجاله من كعوبه وسحبوه إلى خارج القمرة المستديرة، أعتقد أنه قد مات بينما كانوا يقومون بذلك، التفت إليّ آلان وسألني إذا كنت قد قتلت الكثير، أخبرته أنني أصبت فردًا، وجرحت آخر وأعتقد أنه القبطان، قال في فخر:

- لقد قتلت اثنين، ليس بالكثير؛ سوف يعودون مرة أخرى، إنها زوبعة ما قبل العاصفة، ارجع إلى موقع مراقبتك يا ديفيد.

استقريت في مكاني، وأعدت شحن المسدسات الثلاثة، أخذت أراقب بالعين والأذن، كان أعداؤنا يتنازعون على مسافة ليست بعيدة عن سطح السفينة، وبصوت عالٍ لدرجة أنني سمعت كلمة أو كلمتين قال أحدهم:

- لقد كان هجومًا فاشلًا.

وقال آخر:

- اصمت يا رجل! لقد دفع للولد الصغير.

بعد ذلك عادت الأصوات مرة أخرى إلى همهمات غير مفهومة كما كان من قبل، ولكني استطعت أن أدرك أنه كان شخصًا واحدًا هو مَن يتحدث في معظم الأوقات، كما لو كان يضع خطة، ثم آخر يجيبه في إيجاز، كما لو كان الرجال يتلقون الأوامر، وبهذا، تأكدت من أنهم سيأتون مرة أخرى، وأخبرتُ آلان.

استطعت أن أسمع وقع أقدام تقترب، فعرفتُ أنهم يأخذون أماكنهم في الظلام، ثم صوت شخص يهبط على السقف أطلق صفيرًا فبدأ الهجوم الثاني على الفور، تنبأت بسقوط الرجل الذي يقف فوق الكوة

الزجاجية، وفي نفس الوقت حاول خمسة أفراد يحملون سيوفهم في أيديهم أن يشقوا طريقهم عبر الباب في مواجهة آلان، ثم سمعنا صوت تحطم الزجاج من فوقنا إلى آلاف الشظايا، قفز الرجل واقفًا فوق الأرض، هَمّ برفع سيفه فعالجته بطلقة من مسدسي هوى على إثرها صريعًا وهو يطلق صرخة ألم رهيبة، بعدها أطلقت النار على ساقي رجل آخر حاول الدخول من النافذة فهوى ككتلة فوق الآخر، وقفتُ مرتاعًا أنظر إليهما، كنت خلال ذلك الوقت أطلق النار بلا هدف محدد لأنني كنت أخشى أن أُقتل، كنت على وشك الإغماء من الذعر، ولكن صيحة من آلان أيقظتني.

هاجمه بحار ممسك بخصره، وآخر كان يحاول إمساك سيفه، وامتلأت القمرة فجأة بوجوه بحارة متوحشة، ضرب آلان رجلًا بخنجره فأراده قتيلًا على الفور، بينما ألقى بنفسه فجأة باتجاه الآخرين كثور هائج مزمجرًا وهم يركضون أمامه خائفين، ومع كل ضربة سيف يطلق أحدهم صيحة ثم يسقط واحدًا تلو الآخر فوق بعضهم، تبعهم إلى متن السفينة مطاردًا إياهم كذئب يطرد الغنم، كان حذرًا وشجاعًا في آن واحد، وحينما استدار عائدًا إلى القمرة المستديرة كان الرجال ما زالوا يركضون مستمرين بالصراخ، كما لو أنه ما زال يجري خلفهم متجهين صوب مقدمة السفينة ليختبئوا هناك.

انتهت المعركة، أصبحت القمرة المستديرة أشبه بالخراب، ثلاثة رجال لقوا حتفهم في الداخل، كما كان هناك شخص آخر يحتضر عند عتبة الباب، بالإضافة إلى أنا وآلان، ولكننا منتصرون ودون أي إصابات.

جاءني بأذرع مفتوحة، قائلًا:

- تعال إلى ذراعي!

صاح وهو يعانقني ويقبلني بشدة على جبهتي، قائلًا بشيء من النشوة:

- لقد أصبحت كأخي تمامًا يا ديفيد، انظر إلى نفسك! ألست مقاتلًا رائعًا؟

بعد ذلك اتجه صوب جثث الرجال الأربعة وسحبهم خارج القمرة، ثم جلس على الطاولة ينظف سيفه وهو يدندن بأغنية أسكتلندية قديمة عن النصر، والذي أخذ يرددها بعد ذلك في مناسبات عديدة حتى اعتدت عليها وحفظتها، كانت كلماتها تقول:

«هذه أغنية عن سيف آلان،

صنعه الحدّاد وأشعلته النيران،

والآن يضيء في يد (آلان بريك)،

كانت أعينهم كثيرة وخائفة تلك الغزلان الكثيرة فوق التلال،

بينما كان السيف وحده،

هم كثيرون،

والسيف وحيد،

يتلاشى الغزلان،

ويبقى التل هو الوحيد،

فتعالي إليّ من تلال الصحراء،

تعالي من جزر البحار أيتها النسور البعيدة،

لقد جئتك بالصيد الثمين».

لقد رأيت في هذه الأغنية التي ألفها آلان للتو ساعة النصر (الكلمات والألحان أيضًا) ظلمًا بينًا لي، إنه قُتل السيد شون وخمسة آخرون إما بشكل مباشر أو بإصابات مميتة؛ لكني من جهة أخرى قتلت اثنين بيدي، الاثنان اللذان جاءا من الكوة العلوية، وأصبت أربعة آخرين، وبهذا العدد لقد قمتُ بنصيب عادل من القتلى والجرحى، ربما كان يجب أن أحتل مكانًا في أبيات آلان، لكن لا يهم، فالشعراء لا يهتمون بتحقيق العدل بقدر اهتمامهم بالقوافي.

وبينما جلس يغني بمرح بالغ، فكرت فجأة بالرجلين اللذين قتلتهما ذلك المساء، جثم ضيق بالغ فوق صدري لدرجة أنني لم أستطع التنفس، فأخذت أبكي وأتنهد بحرقة فوق الطاولة مثل طفل صغير.

ربت آلان على كتفي وقال إنني كنت فتى شجاعًا، ولا ينقصني الآن سوى النوم والراحة، وأردف بنبرة هادئة:

- سآخذ مناوبة المراقبة الأولى، لقد أبليت بلاءً حسنًا يا ديفيد، ولن أستغني عنك أبدًا.

لذلك رتبت سريري على الأرض، وأخذ هو المناوبة الأولى على الحراسة، ممسكًا مسدسًا في يده وسيفًا فوق ركبتيه، مضت ثلاث ساعات بناءً على ساعة القبطان المعلقة على الحائط، ثم أيقظني لكي يتسنى له النوم قليلًا، ثم أخذت دوري بالمناوبة أنا الآخر لمدة ثلاث ساعات حتى أشرقت الشمس فكان صباحًا هادئًا للغاية، مع سلاسة الأمواج التي جعلت السفينة تتدحرج بهدوء، فكان الدم يجري جيئة وذهابًا على أرضية القمرة، انهمر المطر بغزارة خلال ساعات مراقبتي لم يحدث أي شيء يستدعي القلق؛ ومن خلال حركة السفينة أدركت أنه لم يكن هناك أحد خلف ذراع الدافة، في الواقع (كما علمت بعد ذلك) كان هناك الكثير من المصابين، والبقية أصبحوا في حالة مزاجية ونفسية سيئة، وأن السيد ريتش والقبطان كان عليهما أن يتناوبان مثلي أنا وآلان تمامًا، كان بإمكاني سماع صياح طيور النورس في الخارج، فأدركت أن السفينة انجرفت بالقرب من الساحل أو إحدى جزر هبريدس([37])، وأخيرًا وعبر باب القمرة الخلفية استطعت أن أرى اليابسة التي امتدت بالقرب منا، رأيت تلال سكاي([38]) الحجرية العظيمة على يميني، وفي الخلف رأيت جزيرة روم الغريبة([39]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

القبطان يستسلم

جلست أنا وآلان لتناول الإفطار حوالي الساعة السادسة، كانت الأرضية مغطاة بالزجاج المكسور وفوضى الدماء التي سلبتني شهيتي، فكانت القمرة المستديرة في حالة فوضى مروعة، لقد كان الوضع غير مقبول بكل الطرق، ولكننا كنا سعداء بعد طرد القبطان ومعاونه من مقصورتهم الخاصة، وبعد أن استحوذنا على كل الشراب الموجود في السفينة، بالإضافة إلى الطعام الصالح للأكل، مثل المخللات واللحوم المالحة والخبز. كل هذا وضعنا في مزاج جيد، ولكن الجزء الأفضل على الإطلاق اننا استطعنا هزيمة أشر رجال أسكتلندا، لقد قتل السيد شون، كما أن القبطان لاذ بالفرار إلى مقدمة السفينة، حيث حكم عليه بالاعتياد على أكثر ما يكره، وهو الطقس البارد، قال آلان:

- سيرضخ قريبًا ويأتي إلينا، استعد لذلك، يمكنك أن تبعد رجلًا عن القتال ولكنك لا تستطيع إبعاده عن زجاجة النبيذ.

كنا صحبة جيدة لبعضنا البعض، في الواقع، أعرب آلان عن محبته بصدق شديد، فأخذ سكينًا من المنضدة وقطع لي أحد الأزرار الفضية من معطفه قائلًا:

- لقد كانت هذه السترة لوالدي (دنكان ستيوارت)، والآن أعطيك واحدًا منها ليكون تذكارًا لليلة الماضية، فلو ذهبت يومًا إلى المرتفعات البرية وعرضت هذا الزر، سيلتف أصدقاء (آلان بريك) من حولك، قال جملته الأخيرة كما لو كان شارلمان([40]) في عصره، بقدر ما أعجبت بشجاعته حقًّا، كنت دائمًا أتجنب خطر الوقوع في الضحك من غروره، فقد كنت أحذر دائمًا تعابير وجهي خشية من صدور أي رد فعل قد يتبعه شجار حاد، بمجرد أن انتهينا من وجبتنا، قام بتفتيش القمرة المستديرة، فبداخل خزانة القبطان وجد فرشاة ملابس؛ خلع معطفه، وبدأ في تنظيف سترته، حيث تخلص من إزالة البقع بكل عناية، لم أعهد رجلًا يقوم بهذه الأعمال بتلك المهارة، فلطالما عاهدت هذه الأشغال فقط مع النساء، ومع ذلك، فعندما رأيت مدى اهتمامه بنزع الخيوط تحت موضع قطع الزر، ضاعف ذلك من قيمة هديته في نظري.

كان ما زال منهمكًا في تنظيف ملابسه الثمينة عندما جاء السيد ريتش يطلب عقد هدنة، تسلقت الكوة العلوية ممسكًا مسدسًا في يدي، نظرنا إلى بعضنا البعض في صمت، فالسيد ريتش كما لاحظت في الليلة السابقة كان شجاعًا في أثناء المعركة، لكنه بدا مرهقًا جدًّا، بعد أن قضي الليل بأكمله يعمل على قدم وساق، سواء في التناوب على المراقبة أو معالجة الجرحى.

قال أخيرًا وهو يهز رأسه:

- هذه وظيفة سيئة.

رددت بشيء من الحيادية:

- لم يكن هذا خيارنا.

- القبطان يريد التحدث إلى صديقك، يستطيع أن يأتي من النافذة إن أمكن.

- وكيف لنا أن نعرف ما الخدعة التي يخطط القبطان لها؟ وما ينتويه من غدر؟

- ليس هناك أي خدع يا ديفيد، سوف أقول لك الحقيقة الصادقة، الرجال لا يريدون أن يرضخوا لأوامرنا.

تساءلت:

- هل هذا صحيح؟

- سأخبرك بأكثر من ذلك، ليس فقط البحارة؛ فأنا نفسي مذعور من رؤية تلك الجثث بالأمس يا ديفيد -ابتسم مستكملًا- نريد فقط إبعاده عنا.

بعد ذلك تشاورت مع آلان، وكذلك تمت الموافقة على التفاوض وعقد هدنة بين الطرفين؛ ولكن هذا لم يكن كل ما يريده السيد ريتش، فقد توسل إلي للحصول على بعض الشراب، وأخذ يذكرني بلطفه السابق معي، لدرجة أنني سلمته أخيرًا نصف زجاجة من البراندي، تجرع منها في نهم، ثم حمل الباقي معه إلى سطح السفينة، لمشاركتها مع رئيسه على ما أظن.

بعد ذلك بقليل، جاء القبطان -كما تم الاتفاق- إلى إحدى النوافذ، ووقف هناك تحت المطر، كان يرفع إحدى ذراعيه بحمالة معلقة إلى عنقه، بدا شاحبًا ومتعبًا جدًّا حتى إن قلبي آلمني لأنني أطلقت عليه النار في الليلة السابقة.

حمل آلان مسدسًا في وجهه في الحال، فقال القبطان بنبرة حادة:

- ضع هذا الشي جانبًا، ألم أعطيك كلمتي يا سيدي؟ أم أنكم تسعون الى مذلتي؟

قال آلان:

- أشك في أن كلمتك قابلة للكسر أيها القبطان، لقد تساومت معي الليلة الماضية، وتفاوضت على المال مثل بائعة التفاح؛ وأعطيت لي كلمتك ويدك للمصافحة، فلو كنت التزمت بكلمتك هذه، ما كانت ستكون هذه النتيجة الآن، اللعنة عليك وعلى كلمتك!

قال القبطان:

- حسنًا إذن، سيحقق لك القسم هذه المرة ما تريد، ثم تابع بمرارة واضحة: لكن لدينا أشياء أخرى أكثر أهمية للحديث عنها، لقد قمت بعمل بعثرة هائلة على متن سفينتي؛ لم يبق لدي ما يكفي من الأيدي العاملة، وقتلت معاوني الأول، ليس أمامي خيار سوى العودة إلى ميناء جلاسجو مرة أخرى للتزود بالبحارة.

- لا لن تفعل ذلك، يتوجب عليك فقط أن توصلني إلى الشاطئ كما اتفقنا.

قال هوسيزون:

- لكن معاوني وأفضل بحار لدي قد مات، وأنت خير مَن يعلم هذا، لا أحد من بقيتنا على دراية بهذا الساحل يا سيدي؛ وهو أمر خطير للغاية على السفينة.

- حسنًا، لقد قلتَ بالأمس أنني سأعطيك ثلاثين غينيا لو أنزلتني على أقرب شاطئ وستين لو أوصلتني إلى بحيرة لوخ.

- حسنًا يا سيدي، نحن على بُعد بضع ساعات من أردامورتشان([41])، أعطني ستين غينيا وسأنزلك هناك.

- وسأرتدي هذه الملابس وأواجه خطر المعاطف الحمراء لإرضائك؟ اليس كذلك؟ لا سيدي؛ إذا كنت تريد ستين غينيا فستأخذهم بعد أن توصلني إلى بلدي.

قال القبطان:

- إنها مخاطرة بحياة البحارة وحياتك أيضًا معهم.

- أمامك الخياران إما توافق أو ترفض.

- ألا تستطيع أن تقود بنا على الإطلاق؟ سأل القبطان وهو ما زال عابسًا ممتعضًا.

قال آلان:

- حسنًا، هذا أمر مشكوك به، فأنا رجل مقاتل (كما رأيت بنفسك) أكثر من كوني بحارًا، لكن كثيرًا ما تم اختياري للسفر عبر هذا الساحل، وإنني أعرف الطريق إلى حد ما، وبقليل من المساعدة قد أتمكن من ذلك.

هز القبطان رأسه وهو لا يزال عابسًا، ثم قال:

- ولكن هناك شيء آخر، ربما نلتقي في طريقنا بإحدى سفن الملك، وقد يضعوننا على متنها، لقد أطلعتك على الأمر حتى لا تلقي باللوم عليّ بعد ذلك، إنهم يبقون الطرادات([42]) بشكل كثيف على هذا الساحل الآن يا سيدي، إن حدث هذا يمكنك الهروب حينها، ولكنك ستترك المال كاملًا.

قال آلان:

- لا، أنت القبطان هنا ولست أنا، لو رأيت راية السفينة الملكية، سيكون عليك أنت الهروب بالسفينة بأكملها حينها، دعنا لا نضيع الكثير من الوقت، أعتقد أننا على وفاق، أما الآن فقد سمعت أنك تفتقر إلى البراندي أنت ورجالك في مقدمة السفينة، سأعرض عليك مقايضة ممتازة: زجاجة من البراندي مقابل دلو من الماء.

وكان هذا هو البند الأخير من المعاهدة، وقد تم تنفيذه بالتزام كلا الجانبين؛ حتى نتمكن أنا وآلان من الاغتسال، وتنظيف القمرة المستديرة، والتخلص من ذكرى هؤلاء الرجال الذين قتلناهم، كما كان

بإمكان القبطان والسيد ريتش أن يبتهجوا مرة أخرى على طريقتهم الخاصة، وهي الشراب حد الثمالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

الثعلب الأحمر

سرعان ما أبحرت سفينة العهد ثانية في طريقها، استدرنا في نهاية تيري([43]) وبدأنا في التوجه أكثر نحو الشرق، كان الجزء الأول من اليوم ممتعًا للغاية؛ هبت الريح خفيفة وأبعدت المطر، كنا نبحر في ضوء الشمس الساطع وحولنا العديد من الجزر الجبلية من مختلف الجوانب. جلست أنا وآلان عند باب القمرة المستديرة والأبواب مفتوحة، ودخنا غليونًا أو اثنين من تبغ القبطان الناعم. في هذه المرة تبادلنا المعلومات عن حياة بعضنا البعض، استمعت إليه بشغف كبير، خاصة عند حديثه عن نشأته وبلده، والتي كانت الأكثر أهمية بالنسبة لي، حيث اكتسبت بعض المعلومات المهمة عن تلك البرية، بلد المرتفعات الذي كنت سأهبط عليه قريبًا، أخبرته بمحنتي وسمعها بكثير من العاطفة التي ترجع إلى طبيعته الطيبة، ولكن عندما أتيت لأذكر ذلك الصديق العزيز السيد كامبل، انتفض غاضبًا بعنف وصاح أنه يكره كل ما يمت بصلة إلى هذا الاسم.

أجفلت قائلًا:

- لماذا؟ إنه رجل أفتخر به وبمساعدته لي دائمًا.

قال في غضب واضح:

- لا أعرف شيئًا يمكنني أن أفتخر به تجاه عشيرة كامبل سوى رغبتي أن أوجه إليهم وابلًا من الرصاصات لإبادتهم جميعًا.

- لماذا يا آلان؟ ما الذي يزعجك منهم إلى هذا الحد؟

- حسنًا، سأخبرك بواقع الأمر يا ديفيد، أنا من عائلة ستيوارت، ولطالما كان هناك عداوة مريرة ونزاعات دموية متواصلة بيننا وبين عشيرة كامبل، لقد سخروا منا وسرقوا الكثير من الأراضي عن طريق الخيانة والاحتيال.

- يبدو أنك تضيع الكثير من الأزرار بطريقة تبذيرك هذه، وإعطاء الكثير من الثقة لناس لا يستحقونها، لا أعتقد بأنك ستكون جيدًا في مجال الأعمال.

ابتسم في لطف قائلًا:

- آه يا ديفيد، لقد ورثت هذا التبذير من نفس الرجل الذي حصلت على الأزرار منه؛ كان هذا والدي الطيب، (دنكان ستيوارت)، فلتترحم به السماء، كان أفضل رجل في عشيرته، وأفضل مبارز في الأراضي المرتفعة، لقد كان من رجال الكتيبة السوداء([44])، يبدو أن الملك كان يتمنى رؤية مهارة

المبارزة في هايلاند. وقد تم اختيار والدي وثلاثة آخرين وإرسالهم إلى مدينة لندن، حتى يتمكن الملك من رؤية أفضل العروض. وبذلك دخلوا إلى القصر وقاموا بأفضل عرض للمبارزة على الإطلاق لمدة ساعتين متواصلتين بالكامل أمام الملك جورج والملكة كارلين، ودوق كمبرلاند([45])، والكثير من

رجال البلاط. وعندما مروا أمام الملك حياهم بصورة لائقة، وأعطى كلا منهم ثلاثة جنيهات في يده، أصبح لديه صيت واسع ولكنه لم يكن لديه الكثير من الأموال.

ثم أطلعني على انضمامه للثائرين في الخامس والأربعين، ومن بعدها أصبح ضابطًا لجيش الملك الفرنسي، ولهذا السبب سُيحكم عليه بالإعدام لو تمكن أصحاب المعاطف الحمراء من القبض عليه.

صحتُ قائلًا:

- يا للسماء يا رجل! أنت في حكم المتمرد الهارب، ما الذي يجبرك على العودة إلى هذه البلاد مرة أخرى؟

- أوه! لقد اعتدت على المجيء إلى أسكتلندا مرة كل سنة منذ عام ١٧٤٦.

- لماذا يا سيدي؟

- حسنًا، أريد أن أرى أهلي وأصدقائي، فرنسا مكان مسالم وهادئ ولكني أعشق الخلنج والغزلان، ثم إن لدي عملًا لأنجزه في أسكتلندا، أحاول تجنيد العديد من الفتيان من أجل الجيش الفرنسي، وهذا بأمر من رئيسي السيد أردشيل، لقد كان رجلًا عظيمًا في أسكتلندا، كان يعمل تحت خدمته أكثر من أربعمائة رجل، ولكنه الآن يعيش مثل أي رجل فرنسي فقير، لقد رأيته بعيني هاتين يشتري الزبد من السوق، ويضعها في ورقة من الكرنب ثم يأخذها إلى المنزل للعشاء، هذا ليس مجرد ألم بل وصمة عار لعائلته وعشيرته، فلديه أبناء يحتاجون إلى التعليم واستخدام السيف وتعلم المبارزة، ولذلك فهم بحاجة إلى المال، كما يتعين على مستأجري ممتلكاته في أبين([46])، أن يدفعوا الإيجار إلى الملك جورج، لكنهم ما زالو يحبون قائدهم، لذلك فهم يتدبرون أمرهم بالحصول على إيجار آخر له أيضًا، وأنا المسئول عن توصيل هذه الأموال إليه.

ثم ضرب على حزامه بيده، حتى استطعت أن أسمع صوت الجنيهات الموجودة بداخله، صحت قائلًا:

- هل يدفعون لكليهما؟

قال:

- نعم يا ديفيد، لكليهما.

- ماذا! إيجاران؟

أجاب بهدوء:

- بالفعل، لقد أخبرت قبطانك حكاية مختلفة، لكن هذه هي الحقيقة، وإنه لأمر رائع بالنسبة لي أن أساعد في هذا العمل النبيل، ويساعدني في ذلك قريبي الصالح وصديق والدي (جيمس ستيوارت) وهو الأخ غير الشقيق للأردشيل، هو الذي يحصل على المال ويقوم بإدارته.

كانت هذه أول مرة أسمع بها اسم جيمس ستيوارت، الذي غدى مشهورًا جدًّا بعد ذلك في وقت إعدامه، لكني لم أكن أهتم كثيرًا في الوقت الحالي، حيث كان عقلي بأكمله مشغولًا بكرم هؤلاء

الفقراء من سكان المرتفعات.

قلتُ معلنًا إعجابي الشديد بكل صراحة:

- إني من أتباع الملك جورج، ولكني أسمي هذا نبلًا، إنهم بالفعل أناس نبلاء حقًّا.

- بالفعل يا ديفيد، إنك فتى شجاع محترم، حتى لو كنت واحدًا من آل كامبل الملعونين، أو إذا كنت الثعلب الأحمر بنفسه.

وعند ذكر هذا الاسم، أطبق فمه، وتوقف عن الكلام، لقد رأيت الكثير من الوجوه المتجهمة من قبل، لكنني لم أرَ أبدًا أكثر قتامة من وجه آلان عندما ذكر هذا الاسم، حتى تسرب الذعر إلى نفسي.

سألته بفضول واضح:

- ومن هو الثعلب الأحمر؟

هتف آلان مندهشًا:

- مَن هو الثعلب الأحمر! حسنًا، سأخبرك مَن هو، عندما تم هزيمة اليعاقبة في معركة كلودين([47])، اضطر آردشيل إلى الفرار إلى فرنسا هو وزوجته، فاستولى الإنجليز على سلطته وأراضيه وكل ممتلكاته، انتهكوا وسرقوا كل شيء، منعونا من ارتداء الطرطان([48]) والتنورة، الشيء الوحيد الذي لم يستطيعوا انتزاعه منا هو هذا الحب والاحترام الراسخ بين رجال العشيرة وقائدهم، هذه الغينيات في جيبي هي الدليل الدامغ على هذا الحب الذي لا يمكن سلبه، كان الرجل الذي أرسله الملك جورج ليكون مسئولًا عن أراضي أبين التابعة للأردشيل من عائلة كامبل هو (كولين كامبل غلينيور).

- هل هذا مَن تسميه الثعلب الأحمر؟

- نعم، هذا هو الرجل الغليظ ذو الشعر الأحمر، في البداية كان يتعامل بكل لطف وود مع جيمس ستيوارت أخ قائدي، ولكنه عندما علم بأمر المال الذي يجمعه الفقراء والمزارعون لإرساله إلى آردشيل وعشيرته، ثار غضبه، فكيف يتجرأ ستيوارت أن يأخذ حتى ولو قطعة خبز، ولا يستطيع منعها من الوصول إليه؟ آه! أيها الثعلب الملعون لو وقعت يومًا بين يدي! فليشفق عليك الرب حينها! توقف آلان لابتلاع غضبه، فسألته أن يتابع ماذا حدث بعد ذلك، فاستكمل وهو يشعل غليونه مرة أخرى واضعًا يده فوق ركبتيه:

- حاول أن يبيع المزارع بأكملها، لكي يرغم الآردشيل على التضور جوعًا هو وأبناؤه، بينما يستمتع هذا الكلب ذو الشعر الأحمر بذلك، ولكن عائلة ستيورات وعائلة ماك كول وماكروبنز (الذين كانوا مجبرين على دفع الضريبة، بالإضافة إلى الأموال الأخرى التي يرسلونها إلى الآردشيل) قدموا من المال مقابل الأرض أكثر مما يمكن لكامبل أن يحصل عليه أبدًا.

أعقبت بشيء من الدهشة:

- أوه! إنها حكاية غريبة ورائعة، فعلى الرغم من أنني تابع للملك جورج؛ فإنني سعيد بأن هذا الرجل قد هُزِم.

- هُزِم! أنت فتَى طيب حقًا يا ديفيد، لن يهزم هذا الرجل أبدًا حتى تسيل دماؤه على جانبي التلال، لو كان لدي وقت للصيد، فلن يجد مكانًا في أسكتلندا بأكملها ليخفيه عن ثأري، لقد عزم على طرد كل العائلات التابعة لستيوارت من أراضيهم بالقوة، سيطرد كل رجل من أرض أبيه وعشيرته، خارج المكان الذي ولد فيه ونشأ فيه ولعب فيه عندما كان صغيرًا، سيجعلهم مثل المتسولين، وترى مَن سيخلفهم؟! الحثالة العاريون في الشوارع من أتباع الملك جورج، أو سيتركها فارغة حتى تبور، فالثعلب الأحمر يفضل أن يرى المزارع خالية على أن يدع مليمًا واحدًا ينتقل إلى آردشيل.

- ولكن هذا ليس خطأ كامبل يا رجل، لا بد أن ما يفعله بأمر من الحكومة، فإن قتل كامبل غدًا، سيحل رجل آخر محله يقوم بما يقوم به تمامًا.

قال آلان:

- أنت صبي يجيد القتال يا ديفيد، ولكن أي شخص يمكنه أن يرى بأنك نشأت على الولاء للحزب اليميني([49]).

لقد تحدث بلطف بما فيه الكفاية، ولكنني أعلم أنه كان يخفي الكثير من الغضب تحت ازدرائه الواضح، لدرجة أنني فكرت أنه من الحكمة الآن تغيير المحادثة.

أعربت عن استغرابي أنه بالرغم من أن المرتفعات البرية الآن مغطاة بالجيوش والحراس كمدينة تحت حصار، فإنه كيف يمكن لرجل في وضعه أن يأتي ويذهب دون القبض عليه؟!

قال آلان:

- لا، لا إن الأمر أسهل مما تتصور، التلال عارية والصحراء جرداء على طول الطريق؛ فإذا رأيت حارسًا يقف في مكان ما، ليس عليك سوى أن تسلك طريقًا غيره، وأيضًا نباتات الخلنج تساعد كثيرًا، وفي كل مكان توجد منازل للأصدقاء وحظائرهم وأكوام التبن، سكان المرتفعات أناس مسالمون يا ديفيد، وإنني لأتساءل دائمًا إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ إلى متى سيبقي الرجال المخلصون مثل أردشيل في المنفى بينما الرجال مثل الثعلب الأحمر يجلسون على أرضهم يتجرعون النبيذ في فخر، ويضطهدون الفقراء في منازلهم؟ إلى متى سيتحمل الناس هذه المعاناة والحياة المريرة؟ لماذا يركب كولين كامبل حصانه ويتجول في جميع أنحاء بلدي الفقير أبين، ولا يستطيع رجل شجاع بأن يطلق رصاصة في صدره؟

بهذه التساؤلات أنهى آلان حديثه، وظل شاردًا ينظر نحو الأفق نظرة يائسة حزينة لفترة طويلة.

وبمرور الوقت أدركت أغلب فضائله وعيوبه، كان ماهرًا في جميع أنواع الموسيقى، ولكن بشكل أساسي موسيقى القربة([50])؛ بالإضافة إلى أنه كان شاعرًا محترفًا ينظم القصائد بلغته الخاصة وألحانه، قرأ العديد من الكتب باللغتين الفرنسية والإنجليزية؛ كان مهاجمًا وصيادًا جيدًا، ومبارزًا ممتازًا بالخنجر الصغير، بالإضافة إلى سلاحه الخاص، أما عيوبه التي أصبحتُ أعرفها جميعًا فكان أبرزها نزعته الطفولية للهجوم والتشاجر لكل مَن يعترض عليه، فحالما يصمم على شيء يرفض الإصغاء إلى ما عدا رأيه، وقد وضعني في حالة خاصة احترامًا لمعركة القمرة المستديرة، سواء كان

ذلك لأنني قمتَ بعمل جيد بنفسي، أو لأنني كنت شاهدًا على براعته العظيمة، في كلتا الحالتين لا يمكنني أن أنكر ما رأيته من شجاعة ونبل أخلاق في (آلان بريك).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر
تحطُّم السفينة

كان الوقت متأخرًا للغاية والظلام دامس كباقي الليالي في هذا الموسم من العام، عندما مد هوسيزون رأسه من باب القمرة قائلًا:

- هيا لترى ما إذا كان بإمكانك القيادة.

سأل آلان:

- هل هذه إحدى حيلك؟

- هل أبدو لك كالمحتال الآن؟ -صاح القبطان في غضب واضح- لدي أشياء أهم منك لأفكر فيها، سفينتي معرضة للخطر!

ومن خلال نظرة وجهه القلقة، وقبل كل شيء، من خلال النبرة الحادة التي تحدث بها عن السفينة، كان واضحًا لكلينا أنه كان يعني ما قال؛ تبعته أنا وآلان دون خوف كبير من الغدر إلى سطح السفينة. كانت السماء صافية، والقمر الذي كان شبه مكتمل يتألق بصفاء، بينما تقترب السفينة من الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة مُل([51]) حيث رأينا تلالها، وبن مور([52]) فوقهم جميعًا، حتى إنني تساءلت عن سبب مخاوف القبطان، ولكنه أشار فجأة إلى البعيد، حيث رأينا شيئًا يشبه النافورة، وسمعنا في الوقت نفسه هديرًا منخفضًا، تساءل القبطان:

- ماذا تسمون ذلك؟

- البحر يلتطم بالصخور، حسنًا أنت الآن تعرف مكان الصخور، فعليك أن تقود بعيدًا عنها، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- حسنًا، لو كانت هذه هي الصخور الوحيدة!

فيما كان يتحدث رأينا نافورة ثانية إلى الجنوب أمامنا، قال هوسيزون:

- هناك! انظر بنفسك، إذا كان لديّ علم بهذه الصخور، أو إذا كان لدي خريطة واضحة أو إذا كان شوان ما زال حيًّا، فلم أكن لآتي إلى هذا المكان ولو بستمائة غينيا، أنت من جعلني أخاطر بسفينتي، كان من المفترض أن تقودنا، أليس لديك ما تقوله الآن؟

قال آلان:

- أعتقد أن هذه ما نسميها صخور توران([53]).

- وهل يوجد الكثير منها.

- أنا لست قبطانًا يا سيدي، ولكني أتذكر أن هنالك على الأقل عشرة أميال من هذه الصخور.

نظر القبطان والسيد ريتش إلى بعضهما البعض في قلق واضح ثم تساءل القبطان:

- لا بد أن هناك طريقًا من بينهما أليس كذلك؟

- أظن ذلك، ولكنني لا أعلم أين، أعتقد أن أفضل قرار أن نسلك طريقًا قريبًا من اليابسة.

- إذن فعلينا الاقتراب من جزيرة مل قدر المستطاع، ثم سنتمكن من إنزال الأشرعة لإبعاد الريح عنا، لا يسعنا إلا المضي قدمًا، لا يمكننا التراجع الآن.

وبناء على هذا، أعطى أوامره إلى السيد ريتش بأن يذهب إلى صاري السفينة ليتمكن من مشاهدة الصخور، وينقل لنا كل ما يراه، حتى يقرر أفضل طريق علينا اتخاذه، كان هناك خمسة رجال فقط على ظهر السفينة غير القبطان والسيد ريتش الذي صاح بعد دقائق من بلوغ مكانه:

- بحر الجنوب كثيف -ثم أردف بعد فترة- يبدو أن الأرض تبدو أكثر وضوحًا الآن.

قال هوسيزون لآلان:

- حسنًا يا سيدي، سنجرب الطريق الذي أخبرتنا به ولو أنني أفضل الوثوق بقبطان أعمى عن الوثوق بك، أدعو الله بأن تكون على حق.

مع اقترابنا من منعطف الساحل، بدأت الصخور تتكاثر هنا وهناك على جانبي طريقنا؛ وكان السيد ريتش يصرخ إلينا أحيانًا لتغيير مسار الدفة.

في الواقع، كانت إحدى الصخور قريبة جدًا حتى إنه عندما اصدمت الأمواج بها تسقط الرذاذ على سطح سفينتنا، وبللنا مثل المطر.

ساعدنا سطوع القمر على رؤية هذه المخاطر بوضوح كما في النهار، والذي ربما كان أكثر إثارة للقلق، رأيت أيضًا وجه القبطان وهو يقف بجانب عامل الدفة على قدم واحدة، والآن على القدم الأخرى، وأحيانًا ينفخ في يديه، لكنه لا يزال منصتًا ومحدقًا وثابتًا مثل الفولاذ، على الرغم من أن القبطان والسيد ريتش لم يظهرا بشكل جيد في القتال، ولكنني رأيت أنهما كانا شجعان في عملهم، وقد أعجبت بهما في تلك اللحظة أكثر لأنني وجدت آلان شاحبًا للغاية.

قال لي بصوت خالٍ من النبرة:

- أوه! ليس هذا نوع الموت الذي أرغب فيه يا ديفيد.

صحت قائلًا:

- ماذا! ألست خائفًا يا آلان؟

قال وهو يبلل شفتيه:

- كلا ولكن ألا توافقني بأنها ستكون نهاية باردة للغاية؟

كان من الغريب رؤية ثلاثة رجال أقوياء يرمون ثقلهم على ذراع الدفة، بينما كانت تكافح وتدفعهم إلى الخلف بقوة -مثل كائن حي- حتى أعلن السيد ريتش في هذا الوقت، أنه رأى ماءً صافيًا أمامه فاعتقدنا لبعض الوقت بأننا قد نجونا من الصخور، قال هوسيزون لآلان:

- لقد كنتم على حق إذن، لقد أنقذت الباخرة يا سيدي، سأضع هذا في الحسبان عندما نصل ونتحاسب.

وأعتقد أنه لم يقصد ما قاله فحسب، بل كان سيفعله حقًّا؛ لقد احتلت هذه السفينة مكانة أثيرة جدًّا في عواطفه. (كان هذا مجرد تخمين فقط، فالأحداث جرت بخلاف ما توقعته).

صاح السيد ريتش فجأة بأعلى صوت:

- اعكس الدفة فورًا، الصخور أمامنا.

في تلك اللحظة ضربت موجة عارمة السفينة فأفقدتها توازنها فيما كنا نمر بالقرب من صخرة هائلة، انحرفت فجأة وارتطمت في اللحظة التالية بالصخرة بشدة بالغة، بحيث ارتمينا جميعًا على أرض السفينة، انتصبتُ واقفًا على قدمي في لحظة مشوش الذهن، نظرت حولي وسرعان ما لاحظت أن السيد ريتش والبحارة مشغولون حول فك مركب شراعي صغير، ركضت للمساعدة، وبمجرد أن وضعت يدي في العمل، عاد ذهني إلى الصفاء مرة أخرى. لم تكن مهمة سهلة للغاية؛ لأنه مركب شراعي صغير للغاية كان يرقد وسط السفينة محاطًا بالعراقيل، وقد أجبرتنا ارتطام الأمواج الثقيلة باستمرار على الاستسلام والتشبث، وقف القبطان متمسكًا بجانب السفينة يتحدث إلى نفسه، ويئن بصوت عال كلما ارتطمت بالصخور. كانت سفينة (العهد) بمثابة الزوجة والطفل له؛ كان يحيا يومًا بعد يوم على هذه السفينة، وهو يضرب رانسوم المسكين، أما الآن بينما كانت سفينته تُضرب على الصخور، فقد شعر في قرارة نفسه بكل ضربة وكأنها موجهة إلى قلبه.

بينما كنا نعمل على فك القارب سألت آلان من أي ساحل كنا قريبين، فأجاب أن ما من ناحية أسوء منها بالنسبة إليه، فتلك الناحية من جزيرة مُل حيث تعيش عشائر الكامبل، كان القارب جاهزًا للإبحار عندما صرخ المراقب من على بُعد:

- تمسكوا إكرامًا لله!

في تلك اللحظة، رفعت موجة عارمة السفينة وقلبتها على جانبها لا أعلم سواء جاء النداء بعد فوات الأوان، أو أن قبضتي كانت ضعيفة جدًّا. ولكن فجأة ومع إمالة السفينة تم إلقائي من فوق جانبها إلى البحر.

هبطت إلى أسفل وشربت بضعة غلونات من المياه ثم صعدت إلى السطح مرة أخرى، رأيت وميض القمر ثم هبطت مرة أخرى، يقولون إن الرجل عندما يغرق للمرة الثالثة فتكون الأخيرة، لا أستطيع أن أقول مثل باقي العامة لأنني لا أريد أن أذكر كم مرة ذهبت إلى أسفل، أو كم مرة ارتفعت على السطح مرة أخرى. مضيت وقتًا طويلًا هكذا كنت ابتلع المياه وأضرب الأمواج بيدي، أهبط إلى أسفل فأختنق، أصعد فلا أستطيع أن أفتح عيني، كنت مشتتًا لدرجة أنني لم أستطع تذكر مشاعري وقتذاك، أكنت أسفًا أم كنت مرتعبًا.

وجدت نفسي ممسكًا بقطعة من الخشب أعتقد أنها كانت جزءًا من صاري السفينة، مما ساعدني إلى حد ما على البقاء على سطح الماء، حملت معها إلى مكان حيث كانت المياه هادئة، وبدأت أعود إلى نفسي. وعندما تطلعت إلى الخلف رأيت السفينة وهي ما زالت تصارع الأمواج، لم يكن هناك أي أثر للرجال الآخرين، وسواء كانوا قد أطلقوا القارب أم لا، فقد كنت بعيدًا جدًّا ومنخفض جدًّا بحيث لا يمكنني رؤيته. استلقيتُ هادئًا تمامًا، وبدأت أشعر أن الرجل يمكن أن يموت من البرد تمامًا مثلما الغرق.

كان شاطئ إيرريد([54]) يقترب، كان باستطاعتي أن أرى نبات الخلنج في ضوء القمر، وتألق الميكا([55]) فوق الصخور، قلت لنفسي إذا لم أتمكن من الوصول إلى أبعد من ذلك، فسيكون هذا غريبًا للغاية، لم تكن لدي أي مهارة في السباحة، فمياه (إسندين) لم تكن تتعدى بحيرة بسيطة على عمق منخفض للغاية، ولكني عندما تمسكت بالخشبة بكلتا ذراعي، وركلت بكلتا قدمي، سرعان ما وجدت نفسي أتحرك. كان عملا شاقًا وبطيئًا؛ لكن في حوالي ساعة من الركل وصلت إلى خليج رملي محاط بالتلال المنخفضة، كان البحر هادئًا تمامًا، لم يكن هناك صوت للأمواج، أشرق القمر صافيًا؛ لم يسبق أن رأيت مكانًا صحراويًّا ومقفرًا مثل هذا، لكنها على أي حال كانت اليابسة، لم أقو على النهوض على قدمي، استلقيتُ منهكًا، لا أستطيع تحديد ما إذا كنت متعبًا أكثر أم ممتنًا أكثر، كنت متعبًا كما لم أكن من قبل تلك الليلة، وممتنًا لله كما لم أكن من قبل لأي سبب آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

الجزيرة

كانت الساعات التي قضيتها فوق هذا الشاطئ هي الجزء الأكثر تعاسة من مغامراتي، انتصف الليل وأصبح الطقس باردًا للغاية، لدرجة أنني لم أجرؤ على الجلوس، ظننت بأنني لو جلست سأتجمد في مكاني، خلعت حذائي ومضيت أتجول فوق الرمال، حافي القدمين، تضرب الرياح صدري بقوة، لم يكن هناك صوت لرجل أو ماشية؛ فقط صوت الأمواج تتدلع من بعيد، مما ذكرني بالسفينة حاولت أن أتجنب تخيل حدث لأصدقائي أو حتى أعدائي في أعماق البحر. فحقيقة أنني أمشي بجانب البحر في تلك الساعة من الصباح، وفي مكان يشبه الصحراء وحيدًا، أصابتني بنوع من الرعب. ارتديت حذائي مرة أخرى وتسلقت تلة، وقد كان أصعب تسلق خضته في حياتي، كنت أسقط طوال الطريق بين كتل الجرانيت الكبيرة وأنا أقفز من واحدة إلى أخرى. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى القمة بدأ الفجر في البزوغ، لم يكن هناك أثر للسفينة التي يجب أن تكون قد علقت بين الصخور الآن، حتى القارب أيضًا لم يكن له أي أثر، ليس هناك شراع واحد في المحيط بأكمله. انطلقتُ شرقًا على طول الساحل الجنوبي، وبدأت السير منهكًا مبللًا وجائعًا على أمل العثور على منزل التجأ إليه وأنقذ نفسي، وربما أحصل على بعض الأخبار عن هؤلاء الذين فقدتهم. فكرت أنه في أسوأ الأحوال إن لم أجد أي شيء، ستشرق الشمس قريبًا لتدفئني وتجفف ملابسي، توقفت في الطريق عندما وجدت نهرًا صغيرًا يمتد إلى عمق كبير؛ ونظرًا لأنه لم يكن لدي أي وسيلة للعبور، فتوجب عليّ أن أغير اتجاهي حتى أتمكن من تجاوزه، كان المشي فوق هذه الأرض ما يزال شاقًا للغاية، ليس فقط في إيريريد، بل الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة مُل بأكملها -الذي يسمى روس- فهي ليست سوى مجموعة من صخور الجرانيت العملاقة يتخللها بعض نباتات الخلنج في الوسط، استمريت في المشي على طول النهر الضيق، في البداية ظل النهر يضيق حتى ظننت بأنه سوف ينتهي، ولكن لدهشتي بدأ في الاتساع مرة أخرى، حتى رأيت على مدى بصري نهايته، والتي كانت مياه البحر مرة أخرى، أدركت أنني كنت على سطح جزيرة محاطة بالمياه من جميع الجهات، في تلك اللحظة بدلًا من أن تشرق الشمس هطل المطر، وقفت أرتجف تحت المطر، وأتساءل ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟! حتى خطر لي أنه ربما لم يكن هذا النهر الصغير عميقًا للغاية، ربما أستطيع عبوره إلى الضفة الأخرى. عدت إلى أضيق نقطة ونزلت بها ولكن ليس على بعد ثلاث ياردات من الشاطئ، لم أصبح أكثر بللًا، لكنني أصبحت أكثر برودة؛ وبعد أن فقدت أمل العبور أيضًا نظرًا لعمق المياه أصبحت أكثر تعاسة.

وفجأة تذكرت خشبة صاري السفينة الذي كنت أتشبث به، فما أنقذني خلال تلك المياه الضحلة سيساعدني على عبور هذا النهر الصغير بأمان، انطلقتُ فورًا إلى الجزء العلوي من الجزيرة، لجلبها وحملها إلى الخلف، أتذكر جيدًا بأنني في تلك اللحظة كنت سأموت من الظمأ سواء أكان ذلك بسبب ملح البحر، أو لأنني كنت محمومًا، اضطررت للتوقف وأن أشرب الماء اللاذع المترسب في حفر صغيرة بين النباتات، وصلت إلى الشاطئ أخيرًا، كانت حالتي أشبه بالميت أكثر من كوني على قيد الحياة؛ للوهلة الأولى اعتقدت أن الخشبة ابتعدت عما كانت عليه عندما تركتها، نزلت للمرة الثالثة إلى المياه، كان الرمل أملسًا ينحرف تدريجيًّا إلى أسفل، انجرفتُ بداخل النهر حتى وصل مستوى

المياه إلى رقبتي تقريبًا والتطمت الأمواج الهادئة بوجهي، ومع بلوغ هذا العمق بدأت قدمي تخزلني، ولم أتجرأ على المغامرة أكثر من ذلك، فعقدت العزم على الرجوع، أما بالنسبة لخشبة الصاري، فقد رأيتها تتمايل بهدوء شديد على بعد عشرين قدمًا، حتى هذا الوقت اعتقدت بأنني قد تحملت الكثير وتماسكت بشكل جيد، حتى خيبة الأمل الأخيرة تلك، ولكني ما أن وصلت إلى الشاطئ حتى ألقيت بنفسي فوق الرمال وبكيت.

ما زال الوقت الذي قضيته في الجزيرة بمفردي مروعًا جدًّا حتى الآن، ولكني علمت أنه يجب عليّ تجاوزه برفق، في جميع الكتب التي قرأتها عن الأشخاص الذين تم عزلهم في جزيرة ما بمفردهم، كان لديهم إما جيوب مليئة بالأدوات، أو صندوق به أشياء مختلفة يتم تركه على الشاطئ، كما لو كان عمدًا، أو أن يجدوا أشياء بسيطة من حولهم بإمكانها المساعدة إلى حد ما، أما حالتي فكانت مختلفة تمامًا، لم يكن لدي شيء في جيبي سوى المال، والزر الفضي لآلان؛ وبما أنني ولدت في أرض صحراوية، كان لدي نقص في المعرفة بالجزر والشواطئ بقدر ما كنت أعاني من نقص في الوسائل.

كنت أعرف بالفعل أن المحار يُعد جيدًا للأكل؛ ووجدت بين صخور الجزيرة عددًا كبيرًا من البطلاينوس([56])، التي واجهت صعوبة بالغة في محاولة انتزاعها من أماكنها في البداية، إلى جانبها رأيت بعض الأصداف الصغيرة التي نسميها ونكة([57])، من هذين الاثنين قمت بإعداد نظامي الغذائي بالكامل، وأكلتهما باردين كما وجدتهما؛ كنت جائعًا جدًّا لدرجة أنها بدت لي لذيذة في البداية ربما كانوا في غير موسمهم، أو ربما كان هناك خطأ ما في مياه البحر حول جزيرتي، فلم أكد أنهي وجبتي الأولى حتى انتابني دوار عنيف، وشعرت بمعدتي تتمزق، استلقيت لفترة طويلة لست بأفضل حال من الموتى. ولكن عند تجربتي الثانية لنفس الطعام كنت أفضل بالفعل، لم يحدث لي شيء أبدًا، بل وأعطتني بعض الطاقة أيضًا للاستكمال، لكن ما دمت في الجزيرة، لم أكن أعرف أبدًا ما يمكن أن يحدث لي عندما آكل؛ في بعض الأحيان كان كل شيء يسير على ما يرام، وأحيانًا أخرى أُلقي بنفسي في توعك بائس وأتقيأ مرارًا؛ حتى الآن لم أستطع تحديد ما هي المحاريات والأصداف التي آلمتني. انهمر المطر طوال اليوم، ولم يكن هناك بقعة جافة يمكنني العثور عليها؛ استلقيت في تلك الليلة بين صخرتين كبيرتين شكلتا نوعًا من الغطاء فوقي، بينما قدمي كانت تتمدد في مستنقع من المياه الراكدة.

في اليوم الثاني تفقدت الجزيرة من جميع الجهات، لم يكن هناك جزء منها أفضل من الآخر، كل شيء مُقفِر وصخري؛ لا أثر للحياة بها، لا شيء يعيش عليها سوى طيور النورس، لكن النهر الذي قطع هذه الجزيرة عن اليابسة الرئيسية لمنطقة مل انفتح من الشمال على خليج ضيق، والذي أدى بدوره إلى منطقة إيونا([58]) حيث المكان الذي اخترت أن يكون منزلي؛ كان لدي أسباب وجيهة لاختياري، وجدت في هذا الجزء من الجزيرة كوخ صغير مثل حظيرة الخنازير المهجورة، توقعت أنه مكان خاص بالصيادين، حيث كانوا ينامون عندما يأتون إلى هنا للقيام بأعمالهم؛ لكن سقط سقفه العشبي بالكامل؛ فلم تكن له فائدة سوى أنه أعطاني مأوى أقل صلابة من صخوري السابقة التي نمت تحتها. والأهم من ذلك، أن المحاريات التي كنت أعيش عليها نمت هناك بكثرة، لكن السبب الأدعى لهذا أنني لم أكن معتادًا بأي حال من الأحوال على العزلة الفظيعة للجزيرة، فما زلت أنظر حولي من جميع الجوانب مثل رجل تم خطفه، بين الخوف والأمل في أن أرى بعض المخلوقات البشرية قادمة تجاهي، ولكن هناك من أعلى التل فوق الخليج، كان بإمكاني مشاهدة الكنيسة القديمة العظيمة،

وأسطح منازل الناس في الضفة الأخرى من إيونا. ومن ناحية أخرى رأيت الريف المنخفض لجزيرة مُل حيث الدخان يتصاعد صباحًا ومساءَ، كنت أشاهد هذا الدخان، عندما كنت مبللًا وباردًا، ومثقلًا بالوحدة، وأفكر في الصحبة والدفء حتى ينفطر قلبي، الأمر نفسه مع أسطح مدينة إيونا، بقدر ما ساهم منظر المنازل الدافئة الممتلئة بالحياة في زيادة معاناتي، إلا أنها أبقت الأمل حيًّا بداخلي، وساعدتني لأكل محاراتي النيئة (التي سرعان ما أصبحت مثيرة للاشمئزاز) وأنقذني في الكثير من الأوقات من إحساس الرعب الذي كان ينتابني عندما كنت وحيدًا تمامًا مع الصخور الصلبة والطيور الجارحة وقطرات المطر، وصوت البحر المخيف. نعم لقد أبقى الأمل حيًّا بداخلي أحيانًا، ولكن في أحيان أخرى بدا الأمر مستحيلًا، شعرت بأني سأبقى هنا حتى أموت فوق شاطئ هذه الجزيرة على مرأى من برج الكنيسة ودخان المنازل، ولكن مرَّ اليوم الثاني، ظللتُ أبحث عن القوارب أو الرجال الذين يمرون على (روس)، ولكن لم تقترب مني أي مساعدة.

استمر المطر طوال الليل، وخلدت إلى النوم مبتلًا أكثر من أي وقت مضى، يصاحبني الإعياء والتهاب الحلق القاسي، لكني مستأنس قليلًا، ربما بسبب هذا الدخان البعيد من جيراني في إيوانا. تذكرت مقولة تشارلز الثاني الشهيرة أن بإمكان المرء أن يعيش في العراء خارج منزله لأيام كثيرة في طقس إنجلترا أكثر من أي مكان آخر في العالم. أدركت أن هذا القول لا يمكن أن يخرج إلا من فم ملك حقًّا، من المؤكد أن هذا المرء الذي سيبقى في هذا الطقس بمفرده لديه قصر متنقل بجواره، ويستطيع تبديل ملابسه المبللة بأخرى جافة أي وقت، أو أنها لن تصبح مبللة أبدًا، بالرغم من أنها ذروة أيام الصيف، ولكنها أمطرت لأكثر من أربع وعشرين ساعة متواصلة، لم تتوقف حتى ظهر اليوم الثالث، كان هذا يوم الأحداث، ففي الصباح رأيت آيلًا([59]) أحمر، له قرون منتشرة فوق رأسه يقف تحت المطر على الجزء العلوي من الجزيرة. لكنه ما رآني أنهض من تحت صخرتي حتى أخذ يهرول على الجانب الآخر، افترضت أنه لا بد أن يكون سبح في النهر الصغير، مجرد رؤية مخلوق من دم ولحم فوق أيرريد كان حدثًا أكثر من رائع بالنسبة لي. بعد ذلك بقليل، بينما كنت ألتقط بعض المحار من بين النباتات، أذهلتني رؤية قطعة غينيا ذهبية سقطت على صخرة أمامي، عندما أعاد البحارة إلى أموالي مرة أخرى بعد سرقتي، فإنهم احتفظوا ليس فقط بثلث المبلغ ولكن محفظة أبي الجلدية أيضًا، ولهذا السبب فمنذ ذلك اليوم كنت أحمل القطع الذهبية في جيب له زر في سروالي، اكتشفت الآن أن هذا الجيب مثقوب، أخذت أتفقد جيبي في سرعة هائلة، ولكن كان هذا بمثابة غلق باب الإسطبل جيدًا بعد سرقة الفرس([60])، كنت قد غادرت الشاطئ في كوينزفيري بحوالي خمسين غنينا، الآن لم أجد أكثر من قطعتين غينيا وشلن فضي، للدقة ثلاث غينيا، إنني حصلت على الثالث بعد ذلك بوقت قصير، كان يتألق فوق العشب، أصبحت ثروتي الآن ثلاث غينيا وشلن فضي، ثروة لا تليق بالوريث الشرعي لقصر ضخم وأراض واسعة، ويتضور جوعًا الآن في جزيرة مهجورة في نهاية المرتفعات البرية، كانت هذه الحقيقة بمثابة وخزة سكين تنغز قلبي، وتثير الكآبة في نفسي، وبالفعل كانت حالتي في ذلك الصباح الثالث مثيرة للشفقة حقًّا، فقد بدأت ملابسي تتعفن، جواربي على وجه الخصوص، والتي نزعتها تمامًا، حتى أصبحت سيقاني عارية؛ أصبحت يدي ناعمة بيضاء تمامًا من النقع المستمر في المياه؛ بالإضافة إلى آلام الحلق المؤلمَة للغاية، نفذت قوتي، وبدأت نفسي بالانقلاب ضد الأشياء المروعة التي حُكم عليّ أن آكلها، فمنظرها فقط أصبح يثير اشمئزازي، ويجعلني أرتعش وأتقيأ، ومع ذلك لم يأتِ الأسوأ بعد.

كان هناك صخرة عالية جدًّا في الشمال الغربي من إيرريد، ذات قمة مسطحة كنت معتادًا على التردد عليها؛ وهذا يعني أنني لم أمكث في مكان واحد دائمًا إلا عندما كنت نائمًا، لم يمنحني البؤس راحة، أرهقت نفسي في المشي والبحث باستمرار تحت المطر بلا هدف، بمجرد شروق الشمس، استلقيت على أعلى تلك الصخرة لتجفيف نفسي. كانت الراحة التي شعرت بها تحت أشعة الشمس شعور لا أستطيع أن أصفه في تلك الظروف، جعلني أفكر في الخلاص الذي كنت قد بدأت في اليأس من قدومه، وفجأة ظهر مركب صغير به شراع بني يحمل زوجًا من الصيادين على متنه متجه إلى إيوانا، صرخت أناديهم، ثم وقعت من فوق الصخرة وجثيت على ركبتي حتى وصلت إلى الشاطئ، وأنا أصرخ عليهم طالبًا المساعدة، كانوا قريبين بما يكفي لسماعي، حتى إنني كنت أستطيع رؤية لون شعرهم؛ لم يكن هناك شك أنهم رأوني، لأنهم صاحوا باللغة الغيلية وهم يضحكون. لكن القارب لم ينحرف أبدًا جانبًا إلى جهتي، ومر أمام عينيّ من إلى إيونا، لم أصدق ما رأيت، ركضت على طول الشاطئ من صخرة إلى صخرة، أصرخ عليهم متوسلًا حتى بعد أن صار صوتي بعيدًا عنهم، ما زلت أبكي وألوح لهم حتى ذهبوا تمامًا، شعرت أن قلبي سينفجر من الغضب والغيظ، في كل ما مررت به من معاناة لم أبك سوى مرتين فقط، المرة الأولى عندما لم أستطع الوصول إلى خشبة الصاري، والآن المرة الثانية، عندما أدار هذان الصيادان آذانهم الصماء عن صرخاتي. لكن هذه المرة بكيت وزأرت مثل طفل شرير، مزقت العشب بأظافري، ومرغت وجهي في الأرض، إذا كان بإمكان الأمنيات قتل الرجال، فلن يرى هذان الصيادان الصباح مرة أخرى.

عندما تغلبت على غضبي قليلًا، كان يجب عليّ أن أتناول الطعام مرة أخرى، ولكن مع هذه الكراهية في داخلي كان من الصعب السيطرة على نفسي الرافضة لأي شيء يساعد على الحياة، من المؤكد أنني كنت صائبًا حينما نويت الصيام، وذلك لأن محاراتي قد سممتني مرة أخرى، عانيت من كل آلامي الأولى، التهاب حلقي الشديد جدًّا لدرجة أنني كنت نادرًا ما أستطيع البلع؛ تمكنت مني الحمى حتى أصابتني نوبة من الارتجاف التي جعلت أسناني تصطك معًا في عنف، بالإضافة إلى هذا الشعور الرهيب بالمرض الذي لا أستطيع معرفة اسمه سواء باللغة الأسكتلندية أو الإنجليزية، ظننت أنني على وشك الموت، سامحت كل مَن ظلموني حتى عمي والبحارة، ولكن الجانب الجيد من اليوم جاء ليلًا فقد كانت أمسية خالية من المطر، تم تجفيف ملابسي بشكل جيد شعرت بأنني بحالة أفضل من أي وقت مضى منذ أن جئت إلى تلك الجزيرة، وهكذا نمت أخيرًا وأنا أشعر بالامتنان.

في اليوم التالي، والذي يُعد الرابع من أيامي البائسة على تلك الجزيرة، كنت في أضعف حالاتي الجسدية، ولكن الشمس أشرقت وأمدتني بدفء بالغ، وأقبلت نسمات الهواء المنعشة، وما استطعت أن أتناوله من المحار كان جيدًا إلى حد ما، وأعاد إليّ بعض القوة من جديد.

كنت قد أويت إلى صخرتي، حيث اعتدت أن أذهب دائمًا بعد الأكل عندما رأيت قاربًا يأتي من بعيد، اجتاحني على الفور شعور بالأمل المشوب بالخوف، فكرت أنهم ربما نفس رجال البارحة، وقد أدركوا قسوتهم وخطأهم وعادوا لإنقاذي هذه المرة، ولكني ما كنت لأتحمل خيبة أمل أخرى مثل يوم أمس، فذلك أكثر مما أستطيع تحمله. وبناءً على ذلك، أدرت ظهري إلى البحر، ولم أنظر مجددًا، وأخذت أعد حتى مائة. كان القارب لا يزال متجهًا إلى الجزيرة، في المرة التالية التي عددت فيها

حتى وصلت إلى الألف كاملة كان قلبي يخفق بشدة راجيًا مضطربًا، وبعد أن أدرت ظهري مرة أخرى لم يكن هناك مجال للشك، كانت قادمة مباشرة صوب إيرريد!

لم يعد بإمكاني كبح جماح نفسي، بل ركضت إلى شاطئ البحر، أقفز من صخرة إلى أخرى، بكل ما استطعت من سرعة وقوة، كانت معجزة أنني لم أسقط وأغرق بين الصخور، وعندما اقتربت أخيرًا منهم وتمكنت من الوقوف على سطح مستوٍ كانت ساقي ترتعش من تحتي، وكان فمي جافًّا جدًّا لدرجة أنه كان يجب أن أبللها بماء البحر حتى أتمكن من الصياح، بينما كان القارب يقترب، أدركت أنه كان نفس القارب ونفس الرجلين كما كانا بالأمس، عرفت هذا من لون شعرهم، الأول ذو شعر أصفر لامع والآخر فاحم السواد، ولكن الآن كان هناك رجل ثالث معهم، والذي بدا من طبقة أفضل قليلًا، أنزلوا شراعهم وأبحروا بهدوء لكنهم لم يقتربوا أكثر على الرغم من صياحي، وما أثار الريبة في نفسي أكثر أن الرجل الجديد كان يضحك وهو يتحدث وينظر إليّ، ثم وقف في القارب وخاطبني لفترة طويلة، كان يتحدث بسرعة ويلوح بيده كثيرًا، أخبرته أنني لا أتكلم الغيلية([61])، وأثار ذلك غضبه بشدة، وبدأت أشك في أنه يعتقد أنه يتحدث الإنجليزية.

وعند الاستماع عن كثب، تكررت كلمة «مهما يكن» عدة مرات لكن الباقي كانت غيلية، وربما كانت يونانية أو عبرية، رددت كلمة «مهما يكن» مثله، لأريه أنني التقطت الكلمة.

«نعم، نعم، نعم، نعم». قال ثم نظر إلى الرجال الآخرين وكأنه يقول لهم: «لقد أخبرتكم أنني أتحدث الإنجليزية جيدًا»، ثم استكمل حديثه مرة أخرى بالغيلية، هذه المرة التقطت كلمة أخرى «المد» شعرت بوميض من الأمل يضيء قلبي، تذكرت أنه كان يلوح بيده دائمًا تجاه البر الرئيسي لجزيرة روس، وفجأة انكشف أمامي السبب الذي حمل البحارة على الضحك، فحين ينحسر المد تنخفض مياه النهر الصغير الذي ظننته عميقًا وتصبح ضحلة يسهل عبورها إلى البر الرئيسي، قفزت إلى الوراء بالطريقة التي أتيت بها، من صخرة إلى أخرى، ثم انطلقت في الجري عبر الجزيرة كما لم أركض من قبل، وفي غضون نصف ساعة وصلت إلى ضفاف النهر التي تقلصت مياهه إلى المنتصف تقريبًا، اندفعت خلاله حيث الماء لا يعلو فوق ركبتي، وبعد فترة هبطت وأنا أصيح من الفرحة على الجزيرة الرئيسية.

جلست لأستريح وفكرت أنه لا عجب أن الصيادين لم يفهموني، ولكن العجيب أنهم لم يخمنوا معاناتي، لقد أوشكت على الموت من البرد والجوع في تلك الجزيرة لما يقارب من مائة ساعة، أرتدي ملابس متسول، بالكاد أستطيع المشي، وأعاني من ألم شديد في الحلق، ولكني شعرت بالراحة رغم مشاعر السخط على نفسي لغبائي، لقد رأيت الكثير والكثير من الأشرار والحمقى حتى الآن، وأعتقد أن كلاهما ينالا جزاءهم في النهاية؛ ولكن الحمقى أولًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

الفتى ذو الزر الفضي داخل جزيرة مُل

كان الشاطئ الرئيسي لروس في جزيرة مُل الذي وصلت إليه للتو هادئًا وخاليًا من الطرقات، مثل الجزيرة التي تركتها، ولأنه مستنقع مليء بالحفر والثغرات الأرضية لم يكن هناك معلم يميزه سوى جبل بن مور، استهدفت بقدر المستطاع الدخان الذي رأيته كثيرًا من الجزيرة، وبالرغم من كل ما بي من تعب شديد، وصعوبة المشي في الطريق المتعرج، فقد عثرت على المنزل في حوالي الخامسة أو السادسة ليلًا. كان منخفضًا إلى حد ما، ومسقوفًا بالعشب والحجارة العارية؛ وفوق تل أمامه جلس رجل عجوز يدخن غليونه في الشمس، وبواسطة القليل من اللغة الإنجليزية التي كان يملكها، أعلمني أن زملائي في السفينة قد وصلوا بأمان إلى الشاطئ، هو مَن استقبلهم، وقدم لهم الطعام في ذلك المنزل في يوم سابق، سألته إذا كان هناك بين الناجين رجل يرتدي ثيابًا مميزة كرجل نبيل، قال إنهم يرتدون معاطف كبيرة خشنة؛ لكن من المؤكد أن أولهم الذي جاء بمفرده، كان يرتدي سروالًا جلديًّا وجوارب، بينما كان البقية يرتدون سراويل البحارة.

قلت:

- آه، وهل كان يرتدي قبعة ذات ريش فوق رأسه؟

- لا، إنه عاري الرأس مثلي تمامًا.

في البداية اعتقدت أن آلان قد فقد قبعته؛ ثم تذكرت المطر فعرفت أنه على الأرجح قد وضعها تحت معطفه الأنيق لكي يبقيها بعيدًا عن الأذى قدر المستطاع، جعلني هذا الخاطر ابتسم من ناحية لأني اطمأننت أن صديقي كان بأمان، ومن ناحية أخرى بسبب اعتزازه الشديد بزيه.

صفق الرجل يده بجبينه في حركة مفاجئة قائلًا:

- لا بد أنك الفتى الذي يحمل الزر الفضي!

- نعم إنه أنا!

- حسنًا، لدي رسالة لك أيها الفتى الشجاع، عليك أن تلحق بصديقك إلى بلده عن طريق توروساي.

ثم سألني كيف نجوت، فحكيت له قصتي، من المؤكد أن رجلًا من المنخفضات كان سيضحك، لكن هذا السيد العجوز وأدعوه بذلك نظرًا لأخلاقه النبيلة برغم أن ملابسه كانت رثة إلى حد ما، فقد سمعني بكل حزن وشفقة.

أخذني من يدي وقادني إلى كوخه البسيط وقدمني إلى زوجته، كما لو كانت ملكة وأنا دوق زائر، وضعت المرأة الطيبة خبز الشوفان أمامي، وبعضًا من لحم الدجاج البارد، وكانت تربت على كتفي وتبتسم لي طوال الوقت، نظرًا لأنها لم تكن تتحدث الإنجليزية، قدم زوجها لي كوبًا من البيرة، على الرغم من تهالك المنزل وامتلائه بالفتحات والثقوب مثل المصفاة فقد بدت لي بعد الأماكن الوحشية

التي مكثت بها وكأنه قصر، أدفأني الطعام والشراب ثم غرقت في نوم عميق دون أن أشعر، لقد سمح لي هؤلاء الناس الطيبون بالمكوث لديهم هذه الليلة.

في اليوم التالي قبل أن أسير على الطريق، كان حلقي أفضل بكثير واستعدت قوتي بفضل النوم الجيد والأخبار السارة، لم يأخذ الرجل الطيب أي نقود مني، رغم أنني ضغطت عليه بشدة ليوافق، كما أنه أعطاني قلنسوة قديمة لرأسي؛ قابلت في طريقي الكثير من أهل البلد مما يبدو عليهم الفقر المدقع، رأيت الجوع والتعاسة ورأيت أيضًا الكبرياء والكرم، كانت تنورة الأراضي المرتفعة ممنوعة قانونيًّا، فارتدى الناس على نحو غريب ثيابًا هي نسخة طبق الأصل من ثياب الأراضي المنخفضة التي يمقتونها.

كنت أعرف أن توروساي هي واجهتي، وقد أخذتُ أكرر الاسم عدة مرات على مسامع بعض الناس للاسترشاد، ولكن بدلًا من مجرد الإشارة للرد أو القليل من الوصف، كانوا يعطوني خطبة من اللغة الغيلية، والتي تجعلني أبدو أحمقًا؛ لذلك لم يكن من الغريب أن أبعد عن طريقي المنشود أكثر من أن أقترب منه.

وأخيرًا حوالي الساعة الثامنة ليلًا بعد إرهاق شديد، وصلت إلى منزل بسيط، حيث طلبت الإذن للدخول، ولم يسمح لي صاحب المنزل، ففكرت في قوة المال ربما تستطيع إنقاذي في هذا الموقف، وفي بلد فقير جدًّا كهذا، أخرجت غينيا وأمسكته بإصبعي وإبهامي ملوحًا به أمام صاحب البيت الذي كان يتظاهر حتى الآن بعدم إجادته الإنجليزية، وقادني عن طريق بعض الإشارات، وفجأة بدأ يتكلم بوضوح عندما لزم الأمر، ووافق على خمسة شلنات مقابل إقامتي الليلية، وأن يأتي معي ليرشدني في اليوم التالي إلى توروساي. نمت بقلق في تلك الليلة، خوفًا من أن أتعرض للسرقة؛ ولكن لم يبدو لي أن مضيفي لص، إنه فقط رجل فقير بائس وحذر بعض الشيء.

في صباح اليوم التالي كان يجب أن نمضي خمسة أميال تقريبًا إلى منزل ما سماه الرجل «منزل الرجل الثري»، لفك واحد من الغينيات الخاصة بي. ربما كان هذا رجلًا ثريًّا بالنسبة لأهل مُل، بذل الرجل مجهودًا بالغًا وانقلب المنزل كله رأسًا على عقب حتى يتمكن من جمع عشرين شلنًا من الفضة معًا. على الرغم من هذا؛ فقد كان مهذبًا وحسن الحديث، جعلنا نجلس مع عائلته لتناول العشاء، ثم قدم إلينا نبيذًا فاخرًا، جلسنا لنشرب نخب السيد اليعقوبي الذي كان يُسمَّى (هيكتور ماكلين) ونستمع إلى الموسيقى الغيلية، حتى أصبحنا منتشيين نترنح في طريقنا إلى الحظيرة لقضاء الليل بها، استيقظتُ في حوالي الخامسة صباحًا كان عليّ المغادرة، ولكني وجدت مرشدي الوغد قد قضى على الزجاجة بأكملها، فاستغرقتُ ثلاث ساعات وأنا أحاول إيقاظه حتى نستطيع الخروج من المنزل والمضي في طريقنا، نزلنا إلى وادٍ صحراوي كان يوجد بجوار منزل السيد ماكلين، كل شيء سار على ما يرام إلا أن مرشدي كان يختلس النظر إليّ باستمرار من فوق كتفه، وعندما سألته عن السبب ابتسم فقط ولم يَحِر جوابًا، ما إن عبرنا الجزء الخلفي من التل، وأصبحنا بعيدين عن أنظار نوافذ المنزل، حتى أخبرني أن توروساي تقع أمامي مباشرة، وأن قمة التل (التي أشار إليها) كانت أفضل علامة لي.

جاوبته قائلًا:

- حسنًا لا أهمية كبيرة لهذا الأمر بما أنك ستكون معي.

ردد بعض الكلمات الغيلية معتذرًا بوقاحة بعد أن أخذ المال، مبررًا بأنه لا يتحدث الإنجليزية بشكل جيد، وعليّ أن أكمل الطريق بمفردي، قلتُ متهكمًا:

- أعرف جيدًا يا عزيزي أن لغتك الإنجليزية تأتي وتذهب حسب الحاجة، أخبرني ماذا تريد لتعيدها الآن؟ هل تريد المزيد من المال؟

- خمسة شلنات وسأوصلك إلى هناك بنفسي.

فكرتُ في طلبه ثم عرضت عليه اثنان، وبالتالي قبلهما على الفور، مصرًّا على أن يضعهما في يديه أولًا زاعمًا أنها طريقته لجلب الحظ، ولكني ظننت أنه يخطط لمكيدة ما، لم تحمله الشلنان على المضي أكثر من عدة أميال، ثم جلس على الطريق وخلع بروغه([62]) من قدميه، وكأنه على وشك استراحة طويلة، كنت مستشيطًا من الغضب حينها فقلتُ له:

- ماذا الآن؟ أنفدت لغتك الإنجليزية ثانية؟

قال بوقاحة:

- نعم.

كانت رأسي تغلي من الغضب، فرفعت يدي لأضربه، حينئذ سحب سكينًا من خرقة باليه تلتف حول وسطه، وجلس القرفصاء في لا مبالاة وهو يبتسم ابتسامة عريضة خبيثة كالقط الوحشي، لم أعر السكين الكثير من الأهمية، ولم أستطع السيطرة على غضبي، ركضت نحوه، وأزحت يده اليمني التي تحمل السكين جانبًا بيساري، ولكمته في فمه باليمين، لقد كنتُ فتى قويًّا وغاضبًا جدًّا وهو رجل ضئيل ضعيف، لحسن الحظ، طار سكينه من يده وسقط على الأرض.

التقطت كلًّا من السكين والبروغ الخاصة به على الفور، وركضت مسرعًا بعد أن ودعته متمتمًا ببعض اللعنات، وانطلقتُ في طريقي تاركًا إياه حافيًا دون سلاح، سعدت بنفسي كثيرًا بعد أن تغلبت عليه، لقد اكتفيت من أفعال هذا الوغد، ولن أندم على فعلتي هذه أبدًا، وذلك لعدة أسباب، كان يعلم أنه لا يمكنه الحصول على المزيد من أموالي بهذه الطريقة؛ كما أن قيمة البروغ في ذلك البلد بضع بنسات فقط؛ وأخيرًا فإن السكين الذي كان يحمله والذي كان في الحقيقة أقرب إلى خنجر منه إلى سكين، فقد كان حمله مخالفًا للقانون.

بعد حوالي نصف ساعة من المشي قابلتُ رجلًا ضخم البنية، يمضي بسرعة كبيرة بالنظر إلى العصا التي يمسكها أمامه لتقوده، لقد كان أعمى تمامًا، وأخبرني أنه معلم ديني بالكنيسة، كان من المفترض أن يريحني هذا القول ولكن وجهه أوحى لي بعكس ذلك، لقد بدا لي غامضًا وخطيرًا إلى حد ما، بدأنا في السير جنبًا إلى جنب، رأيت المؤخرة الفولاذية لمسدس معلق من تحت غطاء جيب معطفه، حمل مثل هذا الشيء يعني دفع غرامة قدرها خمسة عشر جنيهًا إسترلينيًّا عند المخالفة الأولى، والنقل إلى المستعمرات عند الثانية.

لا يمكنني أن أفهم تمامًا لماذا يجب على معلم ديني أن يتسلح، أو ما الذي يمكن أن يفعله رجل أعمى بمسدس.

أخبرته عن مرشدي الوغد، لأنني كنت فخورًا بما فعلته، وعند ذكر الشلنات الخمسة، صاح مندهشًا بصوت عالٍ لدرجة أني ندمت على إخباره، وكنت ممتنًا لأنه لم يستطع رؤية احمرار وجهي.

سألته وأنا أتلعثم قليلًا:

- هل كان ذلك كثيرًا؟

صاح مرة أخرى:

- كثيرًا جدًّا! سوف أرشدك إلى تورساي بنفسي مقابل الحصول على كأس من البراندي ليس إلا، وسيكون من دواعي سروري أن ترافقني في الطريق.

أخبرته أنني لا أعرف كيف يمكن لرجل أعمى أن يكون مرشدًا؛ عند ذلك ضحك بصوت عالٍ، وقال إن عصاه هذه كانت كافية بالنسبة له أكثر من عين نسر.

ثم أردف:

- بداخل جزيرة مُل على الاقل، فانا احفظ كل حجر وكل شجرة خلنج في هذا الطريق عن ظهر قلب انظر هنا -قال وهو يضرب يمينًا ويسارًا بعصاه كما لو أنه يتأكد- هناك حرق أعشاب بسيط عند سفح التلة الصغيرة التي أمامنا، ويوجد حجر صخري فوق قمته، وبالتالي فمن الصعب الوصول إلى توروساي عن طريق سفح التلة، ولكن سنصل من هذا الطريق أمامنا، حيث سترى العشب مُداس بين نباتات الخلنج، ولاندهاشي كان عليّ الاعتراف بأنه كان على حق في كل وصف قاله، ثم استكمل بفخر:

- ها؟ والآن هل ستصدقني لو أخبرتك أنه قبل صدور القانون اللعين، وعندما كانت هناك أسلحة في هذا البلد، كان بإمكاني إطلاق النار والتصويب؟ نعم، هل يمكنك تخيل ذلك؟

ثم أكمل:

- إذا كان لديك مسدس هنا لتجربته سأريك كيف أستطيع ذلك.

قلت له إنني لا أملك شيئًا من هذا القبيل، وابتعدت عنه قليلًا، لو كان يعلم أن مسدسه متدلٍ في ذلك الوقت بشكل واضح من جيبه! كان شعاع الشمس يلمع فوق المؤخرة الفولاذية للسلاح، ولكن من حسن حظي أنه لا يدرك شيئًا.

لقد كان يظن أن كل شيء مغطى ويرقد بسلام في الظلام.

ثم بدأ يستجوبني بمكر، من أين أتيت، هل كنت غنيًا، هل يمكنني فك خمسة شلنات له، والتي زعم أنها لديه في السبوران([63]) الخاصة به الآن، وطوال الوقت ظل يقترب نحوي وأنا أتجنبه. كنا الآن نسير فوق العشب الأخضر عبر التلال باتجاه توروساي، وظللنا نغير الجوانب مثل السلالات في بكرة. فكلما اقترب مني أبتعد عنه فيلتفت يمنى ويسرى، ويضرب بعصاه الأرض متأففًا، وعندما أدركت بأنني المتحكم في السير والحوار الآن أخذت حذري وارتفعت معنوياتي، وفي الواقع لقد استمتعت بلعبة الغميضة التي اتقنتها مع هذا الرجل الأعمى؛ لكن معلم الدين المسيحي ازداد غضبًا، وبدأ يقسم

باللغة الغيلية بأنه لو تمكن مني سيضرب ساقي بعصاه بقوة؛ لأنه ظن بكثرة تحركاتي هذه أنني أسخر من عاهته تلك.

أخبرته بأن لدي مسدس في جيبي مثله تمامًا، وإذا لم يمضي في الطريق عبر التل الواقع جنوبًا، فسأفجر دماغه، اندهش من أنني تمكنت من فهم ما يحاول قوله، فأصبح مؤدبًا جدًّا في الحال، حاول كسب ودي مرة أخرى لبعض الوقت رغمًا عنه، لكن عبثًا، زمجر وشتمني مرة أخرى بالغيلية ثم نأى بنفسه جانبًا، راقبته وهو يمشي على طول الطريق عبر المستنقع، يضرب بعصاه الأرض في عصبية، حتى وصل إلى زاوية التل واختفى في المنعطف التالي.

استكملت طريقي مرة أخرى إلى توروساي، وسعدت كثيرًا لكوني بمفردي بدلًا من المشي مع هذا المعلم المزيف، كان يومًا سيئًا الحظ، هذان الشخصان الذي تخلصت منهما للتو، واحدًا تلو الآخر، أسوأ رجلين قابلتهما في المرتفعات. عندما وصلت بالقرب من توروساي كان هناك نزل مالكه من عائلة ماكلين؛ رحب بي وتحدث معي بلطف بالغ، ربما لأن التجارة كانت في حالة خمول تلك الفترة، تحدث معي بإنجليزية جيدة، وعندما وجدني متعلمًا جرب الفرنسية، حيث استطاع أن يهزمني بسهولة ثم اللاتينية ولا أعرف أي منا كان يتحدث بها أفضل، هذا التنافس البسيط، وضعنا في حالة ودية بعض الشيء، فجلست وشربت كأسًا معه (وللدقة عليّ أن أقول جلست معه وأنا أشاهده وهو يشرب) حتى أصبح ثملًا جدًّا لدرجة أنه استند على كتفي وكأنه نائم، جربت أن أريه زر آلان كما لو أنها مصادفة؛ لكن كان من الواضح أنه لم يره أو يسمع به من قبل. في الواقع، كان يحمل بعض الحقد على عائلة أردشيل وأصدقائهم، وقبل أن يكون مخمورًا قرأ لي هجاءً في لاتينية جيدة جدًّا ولكن كان معناه سيئ للغاية، والتي كتبها في أبيات رثائية لشخص من هذه العائلة، عندما أخبرته عن معلم الدين المسيح هز رأسه وقال إنني محظوظ لأنني فلت منه، ثم أردف قائلًا:

- إنه رجل خطير للغاية قال «دانكن ماكيج»، هذا هو اسمه، فهو يستطيع إطلاق النار جيدًا بالفعل بواسطة سمعه على بعد عدة ياردات، وكثيرًا ما اتهم في عمليات سطو على الطريق السريع، وجريمة قتل أيضًا في إحدى المرات.

قلت:

- الغريب في الأمر أنه أطلق على نفسه اسم معلم دين مسيحي.

- ولما لا؟ إذا كان هذا ما هو عليه حقًّا هذه الأيام، إنه محتال لعين.

أخيرًا عندما لم يستطع صاحب النزل أن يشرب أكثر قادني إلى غرفة صغيرة بها سرير فقط لأقضي الليلة؛ كنت سعيدًا للغاية بأني قطعت الجزء الأكبر من جزيرة مل، فقد سافرت من إيرريد إلى توروساي حوالي خمسون ميلًا، فمع استمرار تجوالي سأبلغ المئة في أربعة أيام، في الواقع كنت بحال أفضل نفسيًّا وجسديًّا وأنا أقترب من نهاية هذه الرحلة المتعبة عما كنت عليه في البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

الفتى ذو الزر الفضي في جزيرة مورفن([64])

توجد عبارة لنقل الركاب بشكل مستمر من توروساي إلى قلعة كلينوشالين([65]) على البر الرئيسي حيث عشيرة ماكلين([66]) المشهورة، كان الأشخاص الذين صعدوا على متن العبارة معي جميعهم تقريبًا من تلك العشيرة، أما ربان العبارة فكان اسمه (نيل روي ماك روب)، وبما أن ماك روب كان أحد أسماء رجال العشائر التي ذكرها آلان، وبما أن آلان نفسه قد أرسلني إلى تلك العبارة، كنت متشوقًا للحديث مع نيل روي. كان هذا مستحيلًا بالطبع في هذا الوقت وسط هذا الازدحام والتكدس. لم تكن هناك رياح مما جعل حركة العبارة بطيئة للغاية، وبما أن القارب مجهّز بشكل سيئ، فلم يكن هناك سوي اثنين فقط من المجاديف من جهة، وواحدة فقط في الجهة أخرى، أخذ بعض الرجال يتمتمون بتعاويذ تساعدهم على المضي والوصول والبعض الآخر أخذوا يرددون معًا بعض الأغاني الغيلية، بواسطة هذه الأغاني المرحة، وجو البحر المنعش، والطقس المشرق، والروح الطيبة لجميع الركاب، كان هذا القارب من أجمل الأماكن التي رأيتها في الأراضي المرتفعة.

في هذا القارب شاهدت منظرًا مؤثرًا أيضًا، كانت هناك سفينة ضخمة على أهبة الاستعداد راسية في بحيرة أيلين([67])، رأيتها مكتظة بالناس، بينما المراكب الصغيرة تبحر جيئًا وذهابًا باستمرار من السفينة إلى الشاطئ، وعندما اقتربنا أكثر استطعنا أن نسمع صوت النواح والحزن الرهيب صادر من الركاب على متن السفينة، وأيضًا أولئك الذين كانوا على الشاطئ، يبكون وينوحون بشكل يفطر القلب.

وعندما سألت أخبروني أن هذه سفينة مهاجرين تنقل المسافرين الذين جُرِّدوا من أرضهم ومزارعهم الصغيرة إثر الثورة، كانوا يُرغَمون بالقوة على مغادرة بلدهم للعيش في المستوطنات الأمريكية الموحشة.

أوقفنا القارب إلى جانب السفينة، وانحنى المنفيون على الأسوار، يبكون وهم يمدون أيديهم إلى زملائي الركاب، الذين أحصوا بينهم بعض الأصدقاء المقربين. تساءلت إلى متى سيستمر هذا الوضع؟! ولكن في النهاية جاء قبطان السفينة في خضم هذا البكاء والارتباك طالبًا من البحارة سرعة التجديف من أجل الرحيل، ثم ابتعد مرة أخرى.

شاهدت دموعًا تنهمر على خدود الرجال والنساء من المسافرين على قاربي، وسرعان ما أصبحت صيحات الحزن بمثابة لحن عظيم شارك فيه الركاب كما النواح على ميت، حتى وهم ينحنون على المجاديف.

عندما وصلنا إلى كينلوشالين، تمكنت من الانفراد بنيل على أحد جانبي الشاطئ، وسألته عما إذا كان أحد رجال أبين.

سألني بارتياب:

- لماذا تسأل؟

- إنني أبحث عن شخص ما ربما يكون لديك أخبار عنه (آلان بريك ستيوارت) هو اسمه. وبغباء شديد، بدلًا من إظهار الزر له، نقدته شلنًا في يده.

تراجع إلى الخلف في حركة سريعة متفاجئا، ثم قال وقد ثار غيظه:

- لقد أهنتني، فهذه ليست الطريقة التي ينبغي لسيد نبيل أن يتحدث بها إلى آخر، إن الرجل الذي تبحث عنه في فرنسا يا سيدي، وحتى لو كان مختبئًا داخل السبوران(68) الخاص بي ها هنا، وقدمت لي كيسًا مليئًا بالشلنات فلن أؤذي شعرة من رأسه.

ومن دون إضاعة الوقت في الاعتذار، أريته الزر فقال الربان:

- حسنًا، الوضع مختلف الآن، كان ينبغي عليك البدء بذلك، فإذا كنت أنت الفتى ذا الزر الفضي عليّ أن أخبرك بأمرين، سيتوجب عليك الالتزام بهما: هناك اسم لا يجب أن تنطق به أبدًا وهو اسم (آلان بريك)، وهناك شيء لا تقوم به أبدًا وهو أن تقدم أموالك القذرة إلى سيد من الأراضي المرتفعة مرة أخرى.

لم يكن من السهل الاعتذار، لأنني لم أستطع أن أخبره الحقيقة، والتي مفادها بأنني لم أعتقد أنه سيد في الأساس إلا عندما أخبرني أنه كذلك، لم أكن قد علمت أن كل من ينتمي إلى الأراضي المرتفعة هو سيد، مهما كان فقيرًا ورث الثياب، ومهما كان عمله متواضعًا.

من ناحيته لم يكن نيل يرغب في إطالة أمد تعاملاته معي، فقط لتنفيذ الأوامر التي تلقاها وهي أن يدلني على الطريق، والذي كان يستغرق ثلاثة أيام تقريبًا، أولًا كان علي أن أقضي هذه الليلة في النزل العام بمنطقة كلينوشالين؛ حتى أعبر مورفن في اليوم التالي إلى أردغور(69) وأقضي الليلة بمنزل أحد أفراد عائلة كليمور، والذي تم إخطاره بأنني قد أحضر في أي وقت، وفي اليوم الثالث سيتوجب عليّ ركوب قارب من قرية كوران (70) ثم أسأل على الطريق المؤدي إلى منزل جايمس غلينز في آبين، ألقي إلى نيل ببعض النصائح الأخرى، فكان عليّ ألا أتحدث بلا مناسبة مع أحد في أثناء الطريق، وأن أتجنب اليمينيين، وعشيرة آل كامبل، وأصحاب المعاطف الحمراء؛ وأن عليّ الاختباء في الأدغال وسط نباتات الخلنج إذا رأيت أيًا من هؤلاء قادمًا؛ لأنه من المحتمل أن ألتقي بهم، باختصار كان عليّ أن أتصرف مثل لص أو يعقوبي خارج عن القانون. كان النزل في كلينوشالين هو المكان الأكثر قذارة الذي رأيته بالفعل، مكان ترفض حتى الخنازير المكوث فيه، كان مليئًا بالدخان والحشرات والعث، لم أكن مستاءً من مسكني فحسب، بل من نفسي بسبب سوء تصرفي مع نبيل، واعتقدت أنني لن أكون أسوأ حالًا، ولكني كنت مخطئًا ما أن وقفت خارج باب النزل لاستنشق بعض الهواء بعيدًا عن رائحة الدخان حتى هبت عاصفة رعدية كسرت بعض جدران الآبار المحيطة بالتل الصغير بجوار النزل، فأصبحت إحدى جوانب النزل عبارة عن مياه جارية ولا عجب بأنني قضيتُ ليلتي بأكملها مستلقيًا على كرسي والمياه تغطي أعلى ركبتاي.

في وقت مبكر من رحلتي في اليوم التالي، التقيت رجلًا رزينًا وبدينًا بعض الشيء، يمشي ببطء شديد، أحيانًا يقرأ في كتاب وأحيانًا يضع علامة بإصبعه فوق الكلمات، يرتدي ملابس أنيقة إلى حد

ما، وهنا وجدت معلمًا آخر، ولكنه يختلف تمامًا عن معلم مُل الأعمى، فقد كان بالفعل أحد أولئك الذين أرسلتهم جمعية إدنبرة لنشر المسيحية والتبشير في الأماكن الأكثر وحشية في المرتفعات، كان اسمه هندرلاند، تحدث بلغة الجنوب التي كنت قد بدأت اشتاق إليها؛ وإلى جانب البلد المشترك، سرعان ما اكتشفنا أن لدينا روابط اهتمام مشتركة، فصديقي العزيز السيد كامبل من (إسندين)، قد ترجم من الغيلية عددًا من التراتيل والكتب الروعة التي استخدمها هانديرلاند في عمله، وقد كان يكن له الكثير من التقدير والاحترام، في الواقع كانت هذه أحد الكتب الذي كان يحملها ويقرأها عندما التقينا.

وبينما كنا نمضي في طريقنا، توقف وتحدث مع بعض عابري الطريق والعمال الذين قابلناهم أو مررنا بهم؛ وعلى الرغم من أنني بالطبع لا أعرف ما الذي يتحدثون حوله، فإنني أدركت أن السيد هيندرلاند كان محبوبًا في الريف، لاحظت أن العديد منهم يتحدثون بطلاقة وأريحية، حتى إن بعضهم شاركه شرابًا خفيفًا، جرى بيننا حديث طويل ومشوق أخبرني خلاله الكثير عن أعماله في البلاد والأشخاص الذين عمل بينهم، الكهنة المختبئين واليعاقبة، كما تطرق إلى الكثير من الأمور التي كنت أجهلها عن الأراضي المرتفعة، بدا وسطيًّا غير متحيز لأي طرف سياسي. إلقاء اللوم على البرلمان في عدة نقاط، وخاصة لأنهم وضعوا قوانين جديدة ذات أحكام قاسية لمن يرتدون ثوب الطرطان أكثر من أولئك الذين كانوا يحملون السلاح. شجعني هذا الاعتدال على سؤاله عن الثعلب الأحمر ومستأجري آبين؛ الأسئلة التي اعتقدت أنها قد تبدو طبيعية بدرجة كافية لشخص مثلي يسافر إلى هذه البلد لأول مرة.

قال بحيادية بالغة:

- إنه يعمل بشكل جيد، حيث إن هؤلاء المستأجرين ستئول حياتهم في النهاية إلى مجاعة كبيرة، لأنهم مجبرون بالقوة على دفع المال إلى الجامعين من عائلة ستيوارت تحت إشراف هذا الذي يسمونه جيمس غلينز، وهو أخ غير شقيق لأردشيل رئيس العشيرة. وهو رجل صارم، وهناك واحد آخر يسمونه (آلان بريك).

صحت قائلًا:

- ماذا عنه؟

- هو الذراع اليمنى لجيمس ستيورات، يأتي ويختفي بدهاء يجمع الأموال ويوصلها إلى أردشيل ويعود مرة أخرى في الخفاء، رجل ذكي لديه ولاء كبير لعشيرته، ولكنه لا يتردد من شق صدر أي مستأجر لا يريد دفع المال، يعمل باستماتة لبقاء العمال على أرضهم وأيضًا إيصال الأموال في الخفاء إلى رئيس العشيرة.

- هل تظن أنهم سيحاربون؟

- حسنًا، من المفترض أنهم مجردون من السلاح، ولكن هناك كثيرًا من الأسلحة مخبأة في الأماكن المنعزلة، أما عن كولن كامبل غلينر فلديه الجنود إلى جانبه، من المؤكد أنه سيهزمهم، ولكن لو كنت مكان زوجته، فلن أكون سعيدًا إلا بإعادته إلى البيت مجددًا، فعائلة ستيورات في أبين هم جماعة من الغرباء الشرسين ولا يأمن مكرهم.

هكذا سرنا وتحدثنا طوال اليوم، عبر السيد هيندرلاند عن سعادته بلقائي وصحبتي خاصة بأني من أقارب السيد كامبل العزيز، ثم عرض عليّ القدوم إلى منزله الخاص لقضاء الليلة، وقد سعدت بهذا فلم يكن لدي رغبة على أي حال من التعرف على جون كليمور الذي وجهني إليه آلان حتى أقيم ليلتي عنده، فإن تجربتي مع سكان المرتفعات الجفاة جعلتني أبدي منهم جانبًا من الحذر.

وصلنا بعد الظهر إلى منزل صغير، يقف بمفرده على شاطئ بحيرة لينهي، كانت الشمس قد غابت عن جبال أردغور الصحراوية على كلا الجانبين، وكانت البحيرة ساكنة إلا من أصوات النوارس البيضاء فقط حولها؛ بدا المكان كله مهيبًا وغير مألوف. بمجرد أن تناولنا الطعام وكانت العصيدة واللبن هي أفضل نظام غذائي للرجل الصالح، اتخذ وجهًا جادًّا وقال إن لديه واجب عليه أن يؤديه من أجل السيد كامبل، وهو الاستفسار عن حالتي الروحية والدينية تجاه الله، ابتسمتُ في خجل، على الرغم من أنه لم يتكلم كثيرًا، ولكن هذه الكلمات البسيطة جعلت الدموع تترقرق في عيني، أوصاني الالتزام بالصلاة مهما كانت الظروف، وقبل أن أذهب إلى الفراش، أضاف الرجل الصالح ستة بنسات من كيسه الصغير، ومع أني لم أكن بحاجة إلى المال لكنه بدا متلهفًا جدًّا لمساعدتي، حتى إنني في النهاية شعرتُ أنه من اللطف أن أقبل حتى لا أحرجه، مع أني أعلم بأنه أكثر فقرًا مني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

موت الثعلب الأحمر

في اليوم التالي، وجد السيد هيندرلاند رجلًا لديه قارب خاص به، وكان عليه عبور بحيرة لينهي بعد ظهر ذلك اليوم إلى أبين لكي يصطاد. وافق أن يأخذني معه؛ لأنه كان من عشيرته، وبهذه الطريقة وفرت يوم سفر طويل آخر وسعر العبّارتين العموميتين الذي كان يتوجب عليّ ركوبهم، كان الوقت يقترب من الظهيرة قبل أن ننطلق في ذاك اليوم المظلم، حيث كانت السماء ممتلئة بالسحب الكثيفة، والشمس مشرقة على بقع صغيرة فقط. كان البحر في هذه الأنحاء عميقًا جدًّا، ولا توجد به أمواج، توجب عليّ أن أضع بعضًا من المياه على شفتي حتى أستطيع تصديق بأنه حقًّا مالح، رأيتُ الجبال على الجانبين مرتفعة جرداء وقاتمة جدًّا في الظلال، تمر خلالها خطوط فضية، حيث انسابت جداول صغيرة من المياه إلى البحيرة، بدا بلدًا قاسيًا، وعجبت كيف يكترث الناس له بالقدر الذي يفعله (آلان بريك).

لاحظت ونحن نعبر البحيرة، ومضات حمراء تنبعث من الأراضي المحاذية للشاطئ وكأنها ضوء شمس يصطدم بفولاذ لامع تظهر وتختفي بسرعة، فسألت البحار عما يكون هذا فقال إنها في الغالب إشارات صادرة من جنود الملك جورج، الذين جاءوا يطردون أنصار عشيرة ستيوارت في تلك المنطقة من مزارعهم، لقد كان مشهدًا حزينًا بالنسبة لي ربما بسبب شفقتي على آلان وأهله أو ربما شيء يختلج في نفسي يأبي هذه الأوضاع الظالمة، وعلى الرغم من أنني رأيت رجال الملك جورج للمرة الثانية؛ فإنني لم أشعر بأي انتماء إليهم أبدًا.

أخيرًا عندما وصلنا عند مدخل بحيرة ليفين طلبت من البحار أن ينزلني على الشاطئ حتى لا أجعله يقترب من وجهتي السرية، دلفت داخل غابة من أشجار البتولا على جانب الجبل المنحدر، وشققت طريقي وسط النباتات حتى جلست في مكان ظليل لأتناول القليل من خبز الشوفان الذي حملته من السيد هيندرلاند، وأخذت أفكر فيما عليّ أن أفعله بعد ذلك، هل أكمل طريقي وأنضم إلى الخارجين عن القانون مع آلان؟ أم أبحث عن طريق العودة إلى بلادي مثل أي رجل عاقل؟ كنت أتخيل ما ستكون عليه نصيحة السيد كامبل أو السيد هيندرلاند لو علما بأمري، ولكن الشكوك بدأت تساورني الآن أكثر من أي وقت مضى.

وكنت أتوق لرؤية (آلان بريك) مرة ثانية قبل أن أعود إلى حياة الأراضي المنخفضة للأبد. وفيما كنت جالسًا تناهى إلى سمعي صوت قدوم رجال وجياد عبر الغابة، وسرعان ما ظهر أمامي أربعة فرسان مسافرين، كانوا يسيرون على أقدامهم ويقودون جيادهم ممسكين بالزمام نظرًا لأن الطريق في هذه الغابة كانت ضيقة ووعرة، الأول كان رجلًا نبيلًا ذا شعر أحمر متورد الوجه، يحمل قبعته في يده ويلوح بها حول وجهه لجلب الهواء، فكان يتنفس بحرارة، ويلهث من التعب، أما الثاني فمن خلال زيه الأبيض والأسود الأنيق وشعره الأبيض المستعار، خمنت أنه محامٍ، الثالث كان خادمًا، جزءًا من ملابسه كان أقرب إلى الطرطان، والتي أظهرت أن سيده إما من إحدىً عشائر المرتفعات، وإما كان خارجًا عن القانون أو في أفضل الحالات أن يكون على علاقة قوية بالحكومة، حيث إن

ارتداء الطرطان كان يُعتبر فعلًا محذورًا، لو كنت أكثر دراية بهذه الأشياء وبعادات الأراضي المرتفعة خصيصًا لأدركت أن الطرطان أصبح من الملابس الخاصة بعشيرة كامبل فقط، حمل هذا الخادم حقيبة سفر متوسطة مربوطة فوق ظهر حصانه، وشبكة من الليمون (تعمل كلكمة صناعية) كما كان يفعل المسافرون من العائلات الغنية في كثير من الأحيان في ذلك الجزء من البلاد، أما الرابع وعرفته على الفور لأني رأيت مثل ثيابه من قبل، فقد كان ضابط شرطة من القصر الملكي، ما أن رأيت هؤلاء السادة حتى أخذت قراري في المضي قدمًا بمغامرتي ودون أي خوف عندما أصبح الأول بجانبي نهضت، وسألته بشجاعة عن الطريق المؤدي إلى أبين.

قال الرجل مخاطبًا المحامي:

- يا له من سؤال يا مانغو! أعتقد أنه نذير شؤم في يوم كهذا.

كان هذان الاثنان قد اقتربا الآن جانبًا إلى جنب، وأخذا يحدقان في وجهي، بينما توقف الاثنان الآخران حول حجر ضخم في الخلفية.

- إلى ماذا تسعى في أبين؟ قال ذو الشعر الأحمر.

- سيد العشيرة الذي يعيش هناك.

- جايمس غلينز؟! قال ثم التفت إلى المحامي قائلًا: هل بدأ بجمع قومه الآن يا مانغو؟

أجابه المحامي:

- ربما يا سيدي، دعنا ننتظر الآن ريثما يأتي الجنود، فهذا البلد خطير، وخصوصًا هذا اليوم ونحن على وشك مهمة خطيرة.

أدركت على الفور مَن هو الرجل النبيل ذو الشعر الأحمر، إنه كامبل غلينر الملقب بالثعلب الأحمر.

قلتُ بثبات ونبرة واضحة:

- إذا كنت تهتم لأمري يا سيدي، فأنا لست من هؤلاء الناس الموالين له ولا لك أيضًا، أنا أحد أتباع الملك جورج المخلصين، لا أركع أمام أي إنسان ولا أخاف من أي إنسان.

- أحسنت القول، لكن لماذا يقطع خادم الملك جورج المخلص هذه المسافة من بلده بحثًا عن جيمس ستيورات شقيق الأردشيل الخارج عن القانون؟ هناك اثنتا عشرة فصيلة من الجنود آتية خلفي لفرض قانون الملك بالقوة، إنه وقت سيئ ليبحث به الغرباء عن بعضهم.

قلتُ بجرأة:

- لقد سمعت حديثًا يدور عنك في البلد على مختلف الألسنة، يقولون إنك رجل قاسٍ، صعب المراس، قوي الشكيمة.

كان لا يزال ينظر إليّ بارتياب، ثم قال بنبرة تحدٍّ:

- حسنًا يا فتي، إن لسانك جريء حقًا؛ إذا كنت قد سألتني عن الطريق إلى باب جيمس ستيوارت في أي يوم آخر كنت سأدلك على الفور متمنيًا لك حظًّا موفقًا. لكن اليوم تحديدًا

قطع حديثه واستدار مرة أخرى لينظر إلى المحامي موجهًا حديثه:

- أليس كذلك يا مانغو، أخبره...

ولكن بمجرد أن استدار، أصابته طلقة رصاص من أعلى التل، هوى على إثرها ساقطًا فوق الأرض، يصرخ بصوت متألم:

- لقد أصبتُ!

أمسك به المحامي واحتضنه بين ذراعيه، بينما وقف الخادم مذهولًا ممسكًا بيديه، في حين تطلع القتيل إليهم واحدًا تلو الآخر بعينين مذعورتين، وكان هناك تغير في صوته لامس قلبي، ثم قال بنبرة واهنة:

- اعتنوا بأنفسكم جيدًا، فأنا ميت.

حاول أن يفتح عينيه ويبحث بيده عن الجرح ولكن أصابعه انزلقت فوق الأزرار وبتنهيدة عظيمة مالت رأسه فوق كتفه ومات.

لم ينطق المحامي بكلمة واحدة، ولكن شحب وجهه كوجه رجل ميت، أخذ الخادم ينتحب كالطفل، فيما هرع الضابط عائدًا للخلف ليستدعي الجنود، وقفتُ مصدومًا أحدق برعب، وأخيرًا ترك المحامي القتيل غارقًا في دمائه على الطريق، ونهض على قدميه مترنحًا، أعتقد أن حركته هي التي أعادتني إلى حواسي؛ لأنه لم يكد يفعل ذلك حتى بدأت في التدافع إلى أعلى التل، صارخًا:

- القاتل! القاتل!

استغرقت القليل من الوقت حتى وصلت إلى القمة، كان القاتل لا يزال يبتعد بسرعة كبيرة، كان رجلًا ضخمًا يرتدي معطفًا أسود، ويحمل سنارة صيد فوق كتفه، ألقى القاتل نظرة سريعة حوله ثم بدأ يركض، وفي اللحظة التي اختفى فيها خلف جزء من التلة كنتُ أركض بسرعة خلفه حينما تناهى إلى سمعي صوت يطلب مني أن أتوقف، وعندما تطلعت ورائي رأيت المحامي والضابط في أسفل الطريق يصرخان ويشيران إليّ، فيما بدأت معاطف الجنود الحمر تظهر في الغابة، صرخت في حدّة:

- لماذا علي أن أعود؟ عليكم المجيء بأنفسكم لإلقاء القبض على القاتل.

كانت كلمات المحامي التالية موجهة إلى الجنود، وقد ألقيت كل كلمة سمعتها بنوع من الرعب إلى قلبي، وكان يصرخ قائلًا:

- الف فرنك للرجل الذي يقبض على ذاك الفتى، إنه واحد من القتلة، لقد وقف هنا ليجعلنا نتوقف ونتحدث.

حدث الأمر بغتة مثل البرق في سماء صافية بحيث كنت ذاهلًا ويائسًا، بدأ الجنود في الركض من حولي ورفع آخرون بنادقهم وصوبوها نحوي، تحجرت في مكاني مذهولًا دون حراك، لم أستطِع إدراك الوضع، ولم أعرف ما يتوجب عليّ فعله، سمعت صوت صافرة من بين أشجار البتولا، وصوت قريب يقول:

- تعالى إلى هنا وسط الأشجار.

أدركت بصعوبة ما يتوجب عليّ فعله، وما إن هممت بأخذ خطوة حتى بدأ الرصاص يئز عبر الأغصان، وتحت الأشجار رأيت (آلان بريك) يقف أمامي حاملًا سنارة صيد فوق كتفه، لم نلقِ التحية فلم يكن هناك وقت للكياسة، قال فقط: «تعال». وشرعنا نركض على طول جانب التلة، تبعته كخروف يتبع الراعي، ركضنا، وتوقفنا، وزحفنا شعرت بقلبي سينفجر بين ضلوعي؛ ولم يكن لدي وقت للتفكير أو التنفس حتى لأتحدث معه، أذكر فقط رؤية آلان يقف منتصبًا بين الحين والآخر بكامل طوله ينظر إلى الخلف، وكلما فعل ذلك تعالت صيحة هائلة من الجنود في الأسفل، وبعد مرور خمسة عشرة دقيقة، توقف آلان وتمدد على الخلنج، والتفت إلى قائلًا:

- اسمعني جيدًا، لقد أصبح الأمر خطيرًا للغاية، افعل مثلما أفعل لتنجو بحياتك، وبالسرعة نفسها ولكن بمزيد من الحذر عدنا عبر الجبل في نفس الطريق الذي سلكناه، وأخيرًا بعد ساعة وصلنا إلى الغابة نفسها، حيث التقيت به في البداية، تمدد آلان فوق الخلنج لاهثًا مثل كلب عجوز، وتمددت بجانبه مثل رجل ميت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

لقائي مع آلان في غابة ليترمور

كان آلان أول مَن استعاد نشاطه، قام وذهب إلى حد الغابة، ألقى نظرة خاطفة، ثم عاد وجلس بجانبي قائلًا:

- حسنًا لقد كانت مطاردة حامية يا ديفيد.

لم أقل شيئًا، أبقيت وجهي مخبأ، لقد شهدت للتو جريمة قتل تحدث في وضح النهار، لم أكن قد أفقت من الصدمة بعد، وكانت حسرتي على ذلك الرجل ما زالت طاغية على قلبي، رأيته يُقتل أمام عيني، وكان آلان قد أقسم أن يقتله، وبالفعل رأيته هناك وقت الجريمة فسواء كان قتله بيده أو أمر أحدًا بقتله، فالجريمة تبقي كما هي، صديقي الوحيد في هذه المرتفعات الجافية قاتل، لم أقو على رفع رأسي ومواجهته.

سألني آلان:

- أما زلت مُتعبًا؟

قلتُ محاولًا السيطرة على انفعالاتي قدر المستطاع:

- لا لست متعبًا، وبإمكاني التحدث الآن، لا بد لنا أن نفترق يا آلان، لطالما أحببتك ولكن طريقك غير طريقي، ومهما طالت أم قصرت رحلتنا معًا، فسيتوجب علينا الافتراق في النهاية.

- لن أتخلى عنك هكذا يا ديفيد من دون سبب، لا بد أن تخبرني ما الأمر؟

- آلان! ألن تعرف حقًّا لماذا؟! ماذا عن كامبل الذي ارتمى في الطريق غارقًا في دمائه؟ من سواك قتله؟

أطرق صامتًا برهة من الوقت ثم نطق أخيرًا قائلًا:

- أخبرني يا ديفيد، هل سمعت من قبل عن قصة الرجل والجنيات؟

- لا، ولا أريد سماعها الآن.

- بعد إذنك يا سيد بلفور، سأخبرك بها مهما يكن، ثم بدأ يحكي:

«كان هناك بحار مسكين تحطمت سفينته وسط البحر، وأُلقي به على شاطئ جزيرة نائية، حيث كانت الجنيات الصالحة تأتي إليها للمكوث والراحة في أثناء ذهابهن وايابهن من أيرلندا، كانت هذه الجزيرة تُدعى سكريفور([71])، وهي ليست بعيدة عن المكان الذي عانينا فيه من تحطم سفينتنا، حسنًا، أخذ هذا الرجل يعاني الوحدة والألم بمفرده، بينما كان يبكي بشدة طوال أيام وأيام، كان يتمنى لو كان بإمكانه رؤية مولوده الصغير قبل موته! أشفق عليه ملك الجنيات أخيرًا وأرسل واحدًا منهم ليأتوا بالرضيع، وبالفعل جلبوه ووضعوه في سلة مغطاة بجانب الرجل حيث كان نائمًا. وعندما استيقظ الرجل، كانت

هناك سلة غريبة بجانبه وشيء بداخلها يتحرك، ويبدو أنه كان من هؤلاء الذين يتوقعون الشيء السيئ دائمًا، ولكي يتوخى الحذر غرس خنجره في السلة أولًا قبل أن يفتحها، وبذلك وجد ابنه الرضيع مقتولًا بداخلها، يذكرني هذا الرجل بك قليلًا يا سيد بلفور».

صرختُ وأنا ما زلتُ جالسًا بجانبه:

- هل تقصد أنه لم يكن لديك يد في ذلك؟

- سأخبرك أولًا وقبل كل شيء يا سيد بلفور شو، قول حق من صديق لآخر أولًا إذا كنت أنوي قتل رجل نبيل، فأنا أذكى من أن أقتله في بلدي، لن أجلب المتاعب إلى عشيرتي، ثانيًا لو كنتُ قتلتُه فعلًا لما كنت سأحمل صنارة صيد بدلًا من بندقية.

- حسنًا، يبدو ذلك صحيحًا إلى حد ما.

- والآن -تابع آلان وقد أخرج خنجره ووضع يده عليه بطريقة معينة- أقسم على هذا الحديد المقدس لم يكن لدي علم ولا نية، ولم أشارك قط في هذه الجريمة.

صحت وأنا أنزح عن قلبي عبئًا ثقيلًا:

- أشكر الله على ذلك! -ثم أضفت قائلًا- ولكن هل تعلم مَن فعلها؟ هل تعرف ذلك الرجل ذا المعطف الأسود؟

قال آلان بمكر:

- لستُ واثقًا بشأن معطفه، لكنه عالق في رأسي أنه كان أزرق.

- أزرق أو أسود، هل تعرفه؟

- لو كان اقترب مني بالتأكيد كنت سأعرفه، لكن هذا شيء غريب؛ لأن في ذلك الوقت كان يجب عليّ أن أقوم بربط حذائي.

- هل يمكنك أن تقسم أنك لا تعرفه يا آلان؟

صرختُ بعقل نصف غاضب، ونصف ساخر من مراوغاته.

- لا، فأنا كما تعلم يا ديفيد ذاكرتي لا تسعفني دائمًا.

- ولكن كان هناك شيء واحد رأيته بوضوح؛ وهو أنك قمت بتضليل الجنود عن طريقه، وجعلتهم يسعون خلفنا نحن.

قال آلان:

- بالتأكيد، وهكذا سيفعل أي رجل نبيل في مكاني.

- أنا وأنت بريئين من تلك الجريمة، لم يكن هناك داعٍ لتجعلهم يشتبهون بنا بشكل خاطئ، كان لا بد أن نبرّئ أنفسنا، فالبريء دائمًا ما يأتي قبل المذنب.

قال:

- الأبرياء لديهم فرصة لتبرير أنفسهم في المحكمة؛ لكن بالنسبة للفتى الذي أطلق الرصاصة، أعتقد أن أفضل مكان له سيكون بين نباتات الخلنج، فالأشخاص غير المتورطين بأشياء بهذه الصعوبة لا بد أن يشعروا بمن هم في تلك الحالة، وهذه هي المسيحية الصالحة كما أفهمها، وبالتالي لو كان حدث العكس، والشخص الذي لم يكن بإمكاني رؤيته بوضوح كان في مكاننا، ونحن في مكانه (كما كان من الممكن أن يكون)، أعتقد أننا سنكون ممتنين له لو فعل مثلما فعلت وأضل الجنود عن طريقنا.

- حسنًا آلان، لا أعتبر هذا مثالًا جيدًا للمسيحية الصالحة كما أفهمها أنا، ولكن لا أستطيع أن أنكر حسن نيتك في هذه الفعلة.

ثم مددتُ له يدي مصافحًا ومعتذرًا عن تهمتي الظالمة، تردد آلان في مصافحتي ثم أقبل عليّ بكلتا يديه قائلًا: بالتأكيد أنني ألقيت عليه تعويذة ما لأنه يمكن أن يغفر لي أي شيء.

ثم أصبح جادًّا للغاية، وقال إنه لم يكن لدينا الكثير من الوقت لنفر من هذا البلد، سيتم الآن تفتيش أبين بالكامل وبدقة وكأنها غرفة صغيرة، وسيضطر كل شخص إلى تقديم تقرير جيد عن نفسه؛ وبما أنني كنت متورطًا بالتأكيد في القتل، وهو كان فارًّا من العدالة بالفعل، لو تم القبض علي أحدنا فإننا سنمثل أمام قاضٍ من عائلة كامبل، وهيئة محلفين كاملة من كامبل، وفي مثل تلك المحكمة سنكون مذنبين، وسنشنق في كل الأحوال، فقلتُ معقبًا وأنا أرفض تصديق حدوث مثل هذا الظلم البين:

- لا يجب أن يتم هذا، فأنا أثق في قانون بلدي جيدًا.

- نحن في الأراضي المرتفعة يا ديفيد، وعندما أطلب منك أن تركض يجب أن تركض، إن الخطر عظيم الآن، لا وقت للجدال بما سيحدث أو لن يحدث.

سألته إلى أين سوف نهرب وأخبرني بأنه يتوجب علينا الاتجاه إلى الأراضي المنخفضة، وبالفعل كنت أميل إلى الذهاب هناك بفارغ الصبر، أرجع إلى بلدي وأهلي، وأيضًا الاستفادة من اليد العليا لعمي كامبل، فربما واتتني فرصة هناك للخروج من هذا المأزق.

قلت له:

- سأذهب معك يا آلان.

قال آلان:

- ولكن لتضع في اعتبارك، أنه ليس بالأمر الهين، سنمر بأيام عصيبة، سترقد عاريًّا في الطقس البارد ببطن فارغة، ربما سيكون سريرك هو المستنقع، وتتحول حياتك لتصبح كحياة الغزلان المطاردة، ستنام كل يوم ويدك فوق سلاحك، هل نحن على وفاق الآن! أعذرني ولكن يتوجب عليّ أن أقول لك هذا من البداية، إنها حياة أتقنها جيدًا، ولكن إذا سألتني عن أي فرصة أخرى لديك، فسوف أجيبك بأنه: لا، الهروب معي أو الشنق.

- إنه اختيار سهل للغاية. وصافحته مرة أخرى مؤكدًا على موافقتي.

- والآن دعونا نلقي نظرة أخرى على المعاطف الحمراء، قال آلان وهو يقودني إلى الحافة الشمالية الشرقية من الغابة.

بالنظر بين الأشجار، يمكننا أن نرى جانبًا رائعًا من الجبل، حيث يجري منحدر من المياه إلى البحيرة. كان هناك جزء خشن من نباتات الخلنج، وعدد كبير من أشجار البتولا المتشابكة؛ ومن بعيد كان هناك بعض الجنود ذو المعاطف الحمراء يبحثون صعودًا وهبوطًا فوق التل، يتضاءلون كل دقيقة بما أنهم يبتعدون، لم يكن هناك أي هتاف الآن، أعتقد أنهم يدخرون ما تبقى لهم من نفس في أعمال أخرى أهم؛ لكنهم ما زالوا عالقين في الطريق، ولا شك أنهم يعتقدون أننا كنا قريبين منهم.

شاهدهم آلان وهو يبتسم بمكر، ثم قال:

- آه، سيكونون مرهقين في نهاية المطاف قبل أن يتمكنوا من إنهاء هذه المهمة المستحيلة! وهكذا يمكننا الجلوس هنا أنا وأنت لتناول بعض الخبز، ولنرتاح قليلًا، يمكنك شرب بعض النبيذ من زجاجتي، ثم سنمضي في طريقنا إلى منزل قريبي جيمس ستيوارت، حيث يجب عليّ إحضار ملابسي وأموالي.

وهكذا جلسنا مرة أخرى أكلنا وشربنا، في مكان يمكننا أن نرى فيه الشمس تغرب بوضوح، والجبال العارية حولنا، من داخلي كنت ممتنًا لهذه اللحظة التي جمعتني برفقة صديقي الشجاع أخيرًا، روى كل واحد منا مغامراته بعدما افترقنا إثر حادث تحطم السفينة، جزء ونحن نجلس وجزء بينما كنا نسير في الطريق، وسأحكي هنا الكثير من حكايات آلان المثيرة والمهمة، يبدو أنه ركض إلى جانب السفينة بمجرد اندلاع الموجة رآني وفقدني ثم رأني مرة أخرى حين وقعت في المياه؛ وأخيرًا لمحني وأنا أتشبث في الصاري. كان هذا هو ما أحيى فيه بعض الأمل أنني ربما سأصل إلى الأرض في النهاية، وجعله يترك تلك الرسائل التي أوصلتني إلى أبين، في غضون ذلك كان أولئك الذين ما زالوا في الجانب الآخر من السفينة استطاعوا أن ينزلوا القارب الصغير إلى المياه وبالفعل هبط اثنان بداخله، بالإضافة إلى آلان بينما كان هناك آخرون فوق السفينة وهي تغرق أخذوا يصيحون ويبكون مستنجدين حتى هبطوا مع السفينة إلى الأعماق في غضون لحظات، لم يتفوهوا بكلمة واحدة مطلقًا وهم يجدفون إلى الشاطئ، كانوا في حالة ذهول ورعب من ذلك الصراخ؛ لكن ما أن وطأت أقدامهم الشاطئ حتى صرخ هوسيزون، كما لو أنه أفاق من سبات عميق، وأمرهم بوضع أيديهم على آلان. وبالفعل هموا بالنهوض تجاهه فكان هوسيزون يصرخ مثل الوحش، قال بأنهم لا بد أن يثأروا منه لأنه كان السبب الرئيسي لفقدان السفينة وغرق جميع رفاقهم. كانوا سبعة مقابل واحد، في ذلك الجزء من الشاطئ هناك لم تكن هناك صخرة واحدة يستطيع آلان الاحتماء بها؛ بدأ البحارة ينتشرون حوله ويأتون من خلفه قال آلان:

- وبعد ذلك، جاء الرجل الصغير ذو الشعر الأحمر، لم أستطع تذكر اسمه الآن، آه! إنه ريتش، حسنًا، كان هو من أنقذني منهم، صاح يناديهم فالتفتوا له، وسألهم عما إذا كانوا يخشون القضاء، ثم قال إنه سيعود إلى الأراضي المنخفضة وعليهم المجيء معه وتركهم من هذه التفاهات، كلام لا معنى له ولكنه أتاح لي بعض الوقت للجري -أنا ممتن لهذا الرجل الصغير ذي الرأس الأحمر، لديه بعض

الكياسة- ثم التفت إليّ وصرخ عليّ لكي أركض، اعتقدت أنها كانت ملاحظة جيدة، ركضتَ على الفور وبأقصى سرعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

منزل الخوف

حل الليل بينما كنا نسير، استقرت الغيوم في السماء وتكثفت بعد الظهر تقريبًا، كان هذا الفصل من السنة، حيث يسود الظلام مبكرًا للغاية فكان الطريق الذي سلكناه فوق سفوح الجبال وعرًا ومظلمًا للغاية، برغم ذلك فقد واصل آلان المضي قدمًا بثقة، ولم أستطع بأي حال من الأحوال أن أعرف كيف استطاع أن يرى ويستطلع الطريق بهذه السهولة.

أخيرًا حوالي الساعة العاشرة والنصف، وصلنا إلى أعلى منحدر جبلي، رأيت الأنوار أسفلنا، بدا باب المنزل مفتوحًا يخرج منه شعاع من ضوء الشموع؛ كان هناك خمسة أو ستة أشخاص يتنقلون بسرعة حول جميع أنحاء المنزل، ويحمل كل منهم شعلة من اللهب في يده.

عندئذ أطلق آلان صفيرًا خافتًا ثلاث مرات بطريقة معينة. كان من الغريب أن نرى كيف توقفت جميع المشاعل المتحركة عند أول صافرة، كما لو كان حاملوها مضطربين؛ وكيف في الثالثة، بدأ الصخب والتحرك مرة أخرى كما كان من قبل، نزلنا من فوق المنحدر، وقابلنا عند بوابة المنزل -الذي كان يبدو من القريب كمنزل ريفي بحقل واسع خلفه- رجلًا طويلًا وسيمًا يزيد عمره عن الخمسين، والذي صاح إلى آلان بغيلية مبتسمًا.

قال آلان:

- جيمس ستيوارت، سأطلب منك التحدث باللغة الإنجليزية، فهناك رجل نبيل معي لا يتكلم سواها -وأضاف وهو يضع ذراعه حول كتفي-، هذا هو، إنه فتى نبيل من الأراضي المنخفضة، ولورد أسكتلندي في بلده أيضًا، لكنني أعتقد أنه سيكون أفضل لصالحه إذا دعيناه بـ«عابر سبيل» بدلًا من اسمه الحقيقي.

التفت إلى جيمس أوف ذا غلينز للحظة، ورحب بي بلطف إلى حد ما؛ ثم استدار إلى آلان وصاح:

- لقد كان هذا حادثًا مروعًا، ستكون نتائجه وخيمة علينا وعلى البلد بأكملها. ثم شبك يديه أمام صدره.

- يجب أن ننظر لنصف الكوب الممتلئ هنا يا رجل، كولين روي مات يجب أن تكون شاكرًا لذلك!

قال جيمس:

- نعم، ولكن في الحقيقة كنت أتمنى لو ما زال على قيد الحياة، وقع الحادث في أبين، على مَن سيلقى اللوم؟ ضع في اعتبارك ذلك يا آلان؛ أبين يجب أن تدفع الثمن؛ وأنا رجل لديه عائلة وعشيرة بأكملها تحت رعايتي.

بينما كانا يتحدثان نظرت من حولي إلى الخدم، فكانوا يخرجون الأسلحة التي كانت مخبأة بداخل المنزل، ويبتعدوا بها، وبصوت معول ينفث من مكان ما أظن أنهم دفنوها في مكان أبعد من ذلك.

على الرغم من أنهم جميعًا كانوا مشغولين للغاية؛ فإنه لم يكن هناك أي نوع من النظام في عملهم؛ تنازع الرجال معًا للحصول على نفس البندقية، واصطدموا ببعضهم البعض بمشاعلهم المشتعلة؛ وكان جيمس يتحول باستمرار عن حديثه مع آلان ليصرخ إليهم بأوامر لم تكن مسموعة على ما يبدو، كانت الوجوه التي ظهرت في ضوء المشاعل يغمرها الاستعجال والذعر؛ وعلى الرغم من أن أحدًا لم يتكلم؛ فإن أنفاسهم وحركاتهم كانت تنم عن القلق والغضب، في هذا الوقت تقريبًا، خرجت فتاة من المنزل تحمل علبة أو حزمة ما بين يديها؛ سأل آلان:

- ما الذي تحمله الفتاة؟

قال جيمس:

- نحن فقط نرتب المنزل يا آلان -بنبرة خائفة ومتوترة إلى حد ما- سيجوبون أنحاء أبين بأكملها بالمشاعل، ويجب أن تكون كل الأشياء في نصابها الصحيح، نحن نحفر البنادق والسيوف بين طحالب المستنقعات كما ترى؛ وأعتقد أن هذه ستكون نهاية ملابسك الفرنسية، أعتقد أننا يتوجب علينا دفنها.

صاح آلان:

- تدفن ملابسي الفرنسية! يا إلهي!

ثم تناول العلبة من الفتاة واتجه نحو الحظيرة ليغير ملابسه، وأوصى بي في هذه الأثناء إلى قريبه.

قادني جيمس بعد ذلك إلى المطبخ، وجلس معي على الطاولة مبتسمًا، تحدث في البداية بطريقة لطيفة ومرحبة للغاية، ولكن سرعان ما عادت كآبته مرة أخرى، فجلس عابسًا يعض على أصابعه في حالة من الشرود، كان يتذكرني فقط من وقت لآخر فيعطيني كلمة أو كلمتين وابتسامة مصطنعة، ثم يعود إلى رعبه الخاص.

جلست امرأته بالقرب من المدفأة تبكي وهي تدفن، ووجهها بين يديها.

بينما جلس ابنه البكر على الأرض أمام كتلة كبيرة من الأوراق يحرقها حتى النهاية؛ طوال الوقت كانت هناك خادمة ذات وجه أحمر تتجول في الغرفة، في عجلة وخوف، تشتكي وهي تمضي مضطربة؛ وبين الحين والآخر كان أحد الرجال يدفع وجهه من الباب ويصرخ ببعض الأوامر.

أخيرًا لم يعد بإمكان جيمس الجلوس لأكثر من ذلك، وطلب إذني بأن يقوم بشيء غير أخلاقي وهو الانصراف لبعض الوقت وتركي بمفردي، قائلًا:

- اعرف أن صحبتي سيئة للغاية الآن يا سيدي، ولكني أستميحك عذرًا لا يمكنني التفكير في شيء سوى هذا الحادث المروع، والمشكلات التي ستواجه أشخاصًا أبرياء تمامًا، في ذلك الوقت لاحظ ابنه يحرق ورقة اعتقد أنه كان يجب الاحتفاظ بها؛ وفجأة انفجر غضبه، حيث كان من المؤلم أن أشهد مثل هذا الموقف، أخذ يضرب الفتى مرارًا وتكرارًا، وهو يصرخ:

- هل جننت؟ هل ترغب في شنق والدك؟

- لقد نسي وجودي تمامًا، واستمر يصرخ في وجهه وقتًا طويلًا بالغيلية، لم يرد الفتى بأي شيء، وعلى ذكر الشنق ألقت الزوجة بمئزرها على وجهها وأخذت تنتحب بصوت أعلى من ذي قبل. كان موقف محزن وبائس حتى يسمعه ويشاهده شخص غريب مثلي، مما جعلني ممتنًا لدخول آلان المفاجئ، ولكنه لم يبدل ثيابه الفرنسية، وقد حان دوري أنا الآخر من بعده، فقادني ابن آخر لجيمس كي أقوم بهذا التبديل الذي كنت أحتاج إليه منذ وقت طويل، بالإضافة إلى زوج من الأحذية المصنوعة من جلد الغزلان، كانت غريبة نوعًا ما في البداية، ولكن بعد المشي مسافة بسيطة أصبحت مريحة للقدمين، وعندما رجعت إليهم مرة أخرى، كان من الواضح أن آلان قد حكى له قصتي؛ لأنه بدا مفهومًا أنني سأغادر معه في أثناء رحلته الطويلة، وكانوا جميعًا منشغلين بتجهيزنا للسفر. أعطوا كل واحد منا سيفًا ومسدسًا، رغم أنني أعلنت عدم قدرتي على استخدامه كالسابق؛ كما زودونا بالذخيرة اللازمة، وبعض الطعام المتوفر، كيس من دقيق الشوفان ووعاء حديدي، وزجاجة من البراندي الفرنسي، كنا مستعدين للسفر، في الواقع، كان المال هو ما ينقصنا، كان لدي حوالي اثنان من الجنيهات المتبقية؛ أما بالنسبة لآلان فقد تم إرسال حزامه إلى الجهة المنشودة، ولم يتبق لديه أكثر من سبعة عشر بنسًا؛ وأيضًا بالنسبة لجيمس، يبدو أنه أرهق نفسه في رحلاته إلى إدنبرة ودفع الكثير من النفقات القانونية للتنقل نيابة عن المستأجرين، فلم يتمكن من جمع أكثر من خمس وثلاثين سنتًا ومعظمها من النحاس.

قال جيمس:

- سأرسل لك إن استطعت مبلغًا آخر من المال قريبًا، لكن عليك الآن المغادرة فورًا، فإن استطاع أحد الوصول إليك ستتجه الشكوك نحوي بالتأكيد، وسيعرفون بأنك قد لجأت إليّ ونزلت عندي، وأنا لدي عشيرة بأكملها في رقبتي، عليّ مراعاتهم فإنهم أبرياء لا ذنب لهم في هذه الأحداث المهولة.

ثم نظر إليّ وقال:

- إنهم يبحثون عنك أيضًا، يظنون أنك شريك في القتل، وإن استطاعوا العثور عليك سيعذبونك حتى تنطق باسم القاتل.

كان وجهه شاحبًا في أثناء الحديث، وكان يُكثر من قضم أظافره في توتر واضح.

نظرنا أنا وآلان إلى بعضنا البعض، لقد وجدنا أنفسنا متورطين في جريمة قتل لم نرتكبها، كان من العبث محاولة إثبات براءتنا أمام السلطة، فجميعهم من عائلة كامبل، كان أملنا الوحيد الفرار إلى الأراضي المنخفضة قبل أن يطوق أصحاب المعاطف الحمراء هذه الناحية من الريف، ثم انطلقنا باتجاه الشرق، مطمئنين إلى أن الظلام الدامس يستر تحركاتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

رحلة الصحراء: الصخور

كنا نسير أحيانًا ونركض أحيانًا؛ ونظرًا لاقتراب الصباح، كنا نركض أكثر من المشي. على الرغم من أن هذا البلد بدا وكأنه صحراء؛ فإن هناك أكواخًا ومنازل يسكنها فلاحون كثر، مررنا بأكثر من عشرين منها، مختبئين في أماكن هادئة بين التلال، عندما كنا نصل إلى واحد من تلك المنازل، كان آلان يتركني في الطريق، ويذهب بنفسه وينقر على جانب المنزل ويتحدث لحظة في النافذة مع بعض النيام أو المستيقظين بالداخل، كان هذا لنقل الأخبار الذي تدور في البلد، كان هناك الكثير من الواجبات الذي يجب على آلان أن يقوم بها حتى في أثناء الفرار لإنقاذ حياته؛ وقد اكتشفتُ أن أكثر من نصف المنازل التي مررنا بها قد سمعوا بالفعل عن نبأ القتل، بينما كنت أقف إلى الخلف على مسافة قريبة لأتمكن من سماع الكلام الغريب، كانوا يرددون الأخبار بفزع أكثر من الدهشة، بدأت الشمس تُشرق بينما كنا لا نزال بعيدين عن أي مأوى، وصلنا إلى واد رائع تتناثر فيه الصخور ويجري خلاله نهر مليء بالزبد([72])، محاط بالجبال الجرداء لا عشب به ولا أشجار، فكرت ربما يكون الوادي الذي يسمى جلينكو، حيث المجزرة([73]) التي تمت كانت في عهد الملك ويليام.

وكان بإمكاني رؤية آلان يربط جبينه ثم قال:

- هذا ليس مكانًا مناسبًا لي ولك، يجب أن نعبر إلى الجانب الآخر من النهر.

وبهذا ركض بسرعة إلى جانب الماء، كان النهر ينقسم إلى قسمين بين ثلاثة صخور. مرّ بالسماء صوت رعد مروع جعل جسدي يرتعش من الفزع، علق فوق التل ضباب خفيف من الرذاذ، لم ينظر آلان إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولكنه قفز سريعًا على الصخرة الوسطى وسقط فوقها على يديه وركبتيه كانت تلك الصخرة صغيرة للغاية وخشيت أن يسقط على أحد جوانبها، ولكن على الرغم من ذلك فقد قفزت مثله، وكدت أن أنزلق عن الصخرة لو لم يمسك بي، وقفنا معًا على تلك الصخرة المبللة ومن حولنا الماء الجارف، كان يجب علينا أن نقوم بقفزة أوسع من سابقتها لنتمكن من بلوغ الطرف الآخر، نظرتُ إلى حافة النهر الأخرى فتأكدتُ أنني لن أستطيع الوصول إليها، سيطر عليّ خوف قاتل، وضعت يدي فوق عيني خشية النظر، أخذني آلان وهزني هزًّا عنيفًا، رأيته يتكلم، لكن رعب السقوط وهواجس عقلي حالت دون سماعه، فقط رأيت وجهه وقد أصبح أحمر قاتمًا من الغضب، ولكن ظهر نفس المشهد مرة أخرى أمام عيني الأمواج وهي ترتطم بالصخور، والضباب يملأ عيني، وبذلك غطيت عيني مرة أخرى وارتجفت.

في الدقيقة التالية، وضع آلان زجاجة البراندي على شفتي، وأجبرني على أن أشرب، مما أدى إلى ارتفاع الدم إلى رأسي مرة أخرى، ثم وضع يديه حول فمه، ومال على أذني صارخًا:

- اقفز وتشبث أو اغرق!

ثم أدار لي ظهره وقفز قفزة هائلة أوصلته إلى الجانب الآخر من النهر بأمان.

كنت الآن وحيدًا فوق الصخرة مما أتاح لي مساحة أكبر، كان البراندي يثقل رأسي، ورأيت أمامي هذا المثال الجيد، كنت ذكي كفاية لأرى أنه إذا لم أقفز مرة واحدة، فلن أقفز على الإطلاق، انحنيت منخفضًا حتى جثيت على ركبتي ثم ألقيت بنفسي مدفوعًا بنوع من اليأس أكثر من الشجاعة.

من المؤكد أن يدي وصلت إلى أقصى حد من الطول ثم انزلقت، استطعت التشبث بالصخرة ثم انزلقت مرة أخرى، لم أستطع مقاومة تيار الماء الجارف لوقت طويل، فكدت أن أسقط في المياه، عندما قبض عليّ الآن، في البداية من شعري، ثم من الياقات البيضاء لقميصي، وبإجهاد شديد رفعني إلى برِّ الأمان.

لم يقل كلمة فقد انطلق في الركض مرة أخرى للنجاة بحياته، كان يجب عليّ أن أقف على قدمي وأركض خلفه، في السابق كنتُ متعبًا فقط، أريد النوم والراحة، ولكنني الآن أصبحت مريضًا ومصابًا بكدمات، وقد شربتُ بعضًا من البراندي الذي أثقل رأسي؛ فظللت أتعثر بينما كنت أركض خلف آلان الذي توقف تحت صخرة عظيمة وقفت هناك منتصبة بين عدد من الآخرين، أعلم أنني قلت صخرة عظيمة ولكنها في الواقع كانت عبارة عن صخرتين متكئتين على القمة، يبلغ ارتفاع كل منهما حوالي عشرين قدمًا، للوهلة الأولى أدركت أنه من الصعب الوصول إلى قمتها، حتى آلان فشل مرتين في محاولة تسلقهما، ولكنه نجح في المرة الثالثة بعد أن استطاع الوقوف على كتفي والقفز بقوة هائلة حتى اعتقدت بأنه كسر عظمة الترقوة لدي، وبمجرد وصوله تأكد من الأمان في هذا المكان ثم أنزل حزامه الجلدي وسحبني حتى صعدت بجانبه فوق الصخرة.

اكتشفت هناك لماذا صعدنا فوق الصخرتين، كان كلاهما أجوف نوعًا ما من الأعلى ومنحدرًا إلى الآخر، مما يجعلها مقعرة نوعًا ما تُساعد على اختباء ما يصل إلى ثلاثة أو أربعة رجال، كل هذا ولم ينطق آلان بكلمة واحدة، ركض وتسلق بمثل هذا الهيجان الوحشي والتسرع، لدرجة أنني شعرت أنه كان في خوف مميت من الإخفاق. بزغ الفجر حولنا وكان بإمكاننا أن نرى جوانب الوادي الصخرية، وقاعها المليء بالصخور، والموج الذي يتنقل من جانب إلى آخر، لم يكن هناك دخان يتصاعد من قمة أي منزل ولا أثر لأي كائن حي، المنطقة خالية تمامًا إلا من بعض النسور التي تحلق حول النهر.

ثم أخيرًا ابتسم آلان، قائلًا:

- حسنًا، لدينا الآن فرصة للراحة؛ أعتدل حتى تنام يا فتى، وسأتناوب أولًا على المراقبة، وبناءً عليه، استلقيت للنوم فوق قطعة أرض صغيرة بين أعلى الصخرتين حيث نمى بعض السرخس([74]) هناك، لتكون سريرًا لي؛ فكانت أصوات النسور الجارحة هي آخر شيء سمعته.

استيقظت في التاسعة صباحًا تقريبًا، ووجدت يد آلان تضغط على فمي.

- صه! -همس- كنت تغط وأنت نائم.

قلت له بانزعاج واضح:

- حسنًا، وما الضير في ذلك؟

أطل من فوق حافة الصخرة وأشار لي لكي أفعل مثله كانت الشمس مشرقة الآن، الجو صافٍ وحار جدًّا كان الوادي واضحًا بأكمله أمامي، على ارتفاع نصف ميل من الماء كان هناك معسكر من المعاطف الحمراء، أشعلوا النار في المنتصف، حيث كان البعض يطبخون، منتشرين على طول الوادي، بعضهم مجتمعون في حلقات يتحدثون ويشربون وآخرون هناك على خيولهم يقطعون الوادي بأكمله جيئًا وذهابًا، ألقيت عليهم نظرة واحدة، ثم رجعت مرة أخرى إلى مكاني. كان من المدهش حقًّا رؤية هذا الوادي الذي كان غارقًا في عزلة تامة وقت الفجر ممتلئًا الآن بالأسلحة والمعاطف الحمراء.

قال آلان:

- هذا ما كنت أخاف منه يا ديفيد، بدأوا يتوافدون منذ حوالي ساعتين، لكنك غرقت في النوم يا رجل وكأنك ميت، إذا قاموا بصعود جوانب التل، فيمكنهم التجسس علينا بسهولة بالمنظار المقرب؛ لكن إذا كانوا سيبقون فقط عند سفح الوادي، سنتمكن من الفرار ليلًا في هدوء.

- وماذا سنفعل حتى يأتي الليل؟

- سنستلقي هنا ونتحمص تحت الشمس، كانت تلك الكلمة الأسكتلندية الجيدة «نتحمص»، هي أكثر فعل قمنا به باقي اليوم، عليك أن تتذكر أننا نرقد فوق قمة صخرة عارية، مثل الكعكات التي تنضج في فرن كبير، ضربتنا الشمس بقسوة. ارتفعت درجة حرارة الصخرة، كان من الصعب تحمل لمسها؛ ظلت البقعة الصغيرة من التراب والسرخس التي نمت فوقها أكثر برودة، ولكنها لم تكن كبيرة بما يكفي لنستلقي فوقها معًا في وقت واحد، أخذنا نتبادل الأماكن عليها من حين لآخر، ذكرني الاستلقاء فوق تلك الصخرة العارية بوضع ذلك القديس الذي استشهد بمثل هذه الطريقة وهو يحترق فوق الشواية([75])؛ وقد ركض في ذهني كم كان الأمر غريبًا، ففي نفس التوقيت ومن حوالي بضعة أيام فقط كنت أعاني بشدة من البرد منعزلًا على جزيرتي النائية، والآن أعاني بقسوة من الحرارة فوق هذه الصخرة.

كل هذا الوقت لم يكن لدينا ماء، فقط البراندي الخام لنروي ظمأنا، والذي كان أسوأ من لا شيء في هذه الحرارة الحارقة، لكننا أبقينا الزجاجة باردة قدر الإمكان ودفنَّاها في الأرض، وشعرنا ببعض الراحة عندما سكبنا بعضًا منها فوق صدورنا وصدغينا.

استمر الجنود في التحرك طوال اليوم في قاع الوادي، تارة يغيرون الحرس، وتارة يقومون بالصيد بين الصخور. كانت أعدادهم كبيرة للغاية، حيث كان البحث عن رجال بينهم أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش. ومع ذلك، فقد استطعنا أن نرى بعض الجنود يلتقطون حرابهم من بين نبات الخلنج في محاولة للترصد والصيد، يتسكعون أحيانًا حول صخرتنا، فسرت قشعريرة باردة في بدني، لم نتجرأ على التنفس في هذه الأثناء.

كانت الصخور تزداد سخونة والشمس تزداد شراسة، تمكن الدوار مني، وشعرت بآلام حادة تنخر عظامي مثل الروماتيزم، أدركت حينها صدق الترانيم المسيحية -ونادرًا ما كان يأتي ببالي هذه الترانيم- على غرار ما ورد في المزمور([76]) الأسكتلندي:

«القمر في الليل لا يضرني، ولا حتى الشمس في النهار».

وفي الواقع لم يكن أحد منا يستطيع مجابهة خطر الشمس إلا برحمة من الله.

لم نعد نقوى على الاحتمال أكثر من ذلك، ولأن الشمس اتجهت الآن قليلًا إلى الغرب، كان هناك بقعة من الظل على الجانب الشرقي من صخرتنا، وهو الجانب المحمي من الجنود، فاتفقنا أن نخاطر بالنزول من فوق الصخرة قال آلان:

- للموت طعم واحد، سواء كان بضربة شمس أم بضربة سيف.

وانزلق من فوق الحافة وسقط على الأرض على الجانب المظلل، تبعته في الحال، وسقطت على الفور بجانبه، رقدنا لمدة ساعة أو ساعتين نتألم من رأسنا حتى أقدامنا، خائرين القوة، نرقد في العراء تحت أعين أي جندي ممكن أن يمر بهذا الطريق، ومع ذلك لم يمر أحد بجوارنا، كانوا جميعًا يمرون من الجانب الآخر لقد أصبحت هذه الصخرة هي درعنا الحامي حتى في هذا الموضع الجديد.

بدأنا نستعيد قوتنا مرة أخرى، فاقترح آلان متابعة المسيرة، رحنا نتسلل من صخرة إلى أخرى نزحف بشكل مسطح على بطوننا في الظل ثم نركض منحنين بين الأشجار، كان تقدمنا بطيئًا وشاقًا، ما أن غربت الشمس حتى كنا منهكين يكاد العطش يقتلنا، وأخيرًا وصلنا إلى جدول جبلي، فرمينا مخاوفنا وهمومنا جانبًا وغطسنا رءوسنا حتى صدورنا بداخل المياه الباردة المنعشة، شربنا مرارًا وتكرارًا، أخرجنا كيس الوجبات وصنعنا العصيدة في المقلاة الحديدية مع أنه ليس سوى ماء بارد ممزوج مع دقيق الشوفان، إلا أنه يعتبر طبقًا جيدًا بما يكفي لرجل جائع؛ انطلقنا في طريقنا مرة أخرى في البداية بنفس الحذر، ولكن بمزيد من الجرأة، وعلى طول المنحدرات جاءت الغيوم مع غروب الشمس، هبط الليل مظلمًا وباردًا، لم أكن أشعر بالتعب بقدر شعوري بالخوف الدائم من السقوط والتدحرج على الجبال، ارتفع القمر أخيرًا ووجدنا أنفسنا ما زلنا على الطريق نفسه، وهناك عرف آلان طريقه فانشرح صدره وبدأ يصفر صفيرًا عاليًا بالعديد من الألحان المرحة التي بثَّت بنا الحماس وأسرعت خطانا؛ نغمات من بلدي الجنوبي جعلتني أشعر بالحنين للعودة إلى الوطن بعد تلك المغامرات المهولة، كانت تلك الألحان خير رفيق وسط هذه الجبال الصحراوية المقفرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

رحلة الصحراء: هيو كوريناكيغ

في وقت مبكر من اليوم مثلما الحال في بداية شهر يوليو، كان الظلام لا يزال مطبقًا عندما وصلنا إلى وجهتنا، وكانت شقًّا بعيدًا في رأس جبل كبير، مع وجود مياه تجري عبره، وفي وسطه كهف ضحل داخل صخرة عملاقة.

كان اسم الشق هو كوريناكيغ، وعلى الرغم من ارتفاعه وقربه جدًّا من البحر، فقد كان غالبًا محاطًا بالغيوم، ومع ذلك كان مكانًا ممتعًا بشكل عام، قرر آلان أن نرتاح هنا، قضينا هناك خمسة أيام في سعادة غامرة، نمنا في الكهف، صنعنا سريرنا من شجيرات الخلنج التي قطعناها لهذا الغرض، وغطينا أنفسنا بمعطف آلان الرائع، تجرأنا على إشعال النار حتى نتمكن من تدفئة أنفسنا عندما يأتي الليل، قمنا بطهي العصيدة الساخنة، وشوينا سمك السلمون المرقط([77]) الصغير الذي اصطدناه بأيدينا، ليس فقط لتجنب الجوع ولكن أيضًا من أجل روح التنافس الذي يسلينا كثيرًا، أمضينا جزءًا كبيرًا من أيامنا على جانب الماء نزعنا ملابسنا حتى الخصر ونحن نترصد هذه الأسماك كانت ذات لحم ونكهة جيدة، ولكنها كانت تفتقر إلى القليل من الملح عندما تشوى على الجمر لتكون لذيذة. بدأ آلان يعلمني كيف استخدم السيف ودهش حين علم بأني لم أتعلم ذلك من قبل، إنه فارس ممتاز وأعتقد أيضًا أنه استمتع بإظهار براعته لي، لم أصبح بارعًا ولكني على الأقل تعلمت كيف أمسك بسيفي جيدًا، وأدافع عن نفسي.

وفي صباح أحد الأيام قال لي آلان في:

- لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يفكر أصحاب المعاطف الحمراء في البحث في هيو كوريناكيغ؛ لذا يجب علينا الآن أن نبعث برسالة إلى جيمس ليمدنا ببعض الأموال.

أجبته متسائلًا:

- وكيف سنتمكن من إرسال هذه الرسالة؟ نحن هنا في مكان صحراوي منعزل لا يمكننا مغادرته، إلا إذا جعلت من الطيور التي تحلق فوق رأسك رسولًا، لا أستطيع حقًّا معرفة ما علينا القيام به!

- يا لك من ضيق الأفق يا ديفيد!

عندئذ سقط في تأمل عميق، شاردًا ينظر إلى جمر اللهب، ثم حصل على قطعة من الخشب، صنع منها صليبًا، وسود أطرافه الأربعة بالفحم ثم نظر إلى قليلًا بخجل قائلًا:

- هل يمكنك إقراضي الزر الخاص بي، أعلم أن هذا يبدو طلبًا غريبًا بعض الشيء أن أسترد الهدية مرة أخرى، لكن ليس بيدي حيلة أخرى.

أعطيته الزر، فقام بإخراج شريط ضيق من بطانة ثوبه وربط به الزر؛ ولف ذلك كله في أوراق من شجر الصنوبر والبتولا، ونظر إلى عمله النهائي بارتياح. ثم قال:

- الآن، يمكننا الذهاب إلى قرية صغيرة ليست ببعيدة عن كورياكيغ، حيث يعيش العديد من أصدقائي الذين يمكنني الوثوق بهم، سأرمي تلك الرسالة عبر شباك أحدهم وهو جون بريك، وهو شخص أستطيع أن أئتمنه على حياتي.

- ولكن ما هي تلك الرسالة؟

- حسنًا، هذان العودان المتصالبان يعتبران علامة متعارف عليها وسط العشائر تشير إلى التجمع للقتال تُسمَّى (الصليب الناري)، ولكن رسالتي هذه خالية من أي شرح أو كلمات، فيجب على مَن يحملها أن يفهم أنها ليست دعوة لحمل السلاح ولكن استغاثة، وبالتأكيد سيتعرفون على زر (دنكان ستيوارت) وسيدركون أنها من ولده، وإنني في خطر، وأيضًا ستقودهم أوراق الصنوبر والبتولا إلى هذا المكان، لأنه المكان الوحيد في هذه الناحية الذي يحوي هذين النوعين من الأشجار.

- خطة عبقرية بالفعل! عبقري! لكن أليس من الأسهل بالنسبة لك أن تكتب له بضع كلمات بالفحم الأسود؟

- هذه ملاحظة ممتازة يا سيد بلفور شو -قال آلان بنبرة ساخرة- سيكون من السهل بالنسبة لي أن أكتب له، لكنها ستكون مهمة صعبة للغاية بالنسبة لجون بريك صديقي، فسيتوجب عليه أن يذهب إلى المدرسة لمدة سنتين أو ثلاث سنوات ليستطيع القراءة، وحينها سنكون متنا من الانتظار.

لذا في تلك الليلة حمل آلان صليبه الناري كما أسماه وقذفه إلى نافذة صديقه، كان مضطربًا عند عودته؛ لأن الكلاب ظلت تنبح خلفه طوال الطريق، وأعتقد أنه سمع قعقعة أسلحة ورأى معطفًا أحمر يأتي من خلف أحد الأبواب.

كنا نترقب قدوم الرجل في تلهف حتى ظهر من بعيد وهو يمشي على الجانب الواسع من الجبل تحت أشعة الشمس، وينظر حوله في اضطراب ما إن رآه آلان حتى أطلق صفيرًا خافتًا بطريقة معينة؛ استدار الرجل ومضى قليلًا نحونا، ثم بادل آلان نفس الصافرة وظل الرجل يقترب أكثر وأكثر إلى صوت الصفير حتى وصل إلى المكان الذي كنا نمكث فيه.

كان رجلًا خشنًا متوحشًا ملتحيًا، في الأربعين من عمره تقريبًا، تملأ الحبوب وجهه بكثرة، تحدث مع آلان بالغيلية وأخبره أن يكتب رسالة بسيطة ليستطيع حملها إلى جيمس، ظننت أن آلان سيفقد الأمل من ذلك، لأننا نفتقر بصورة واضحة إلى وسيلة الكتابة في تلك الصحراء القاحلة.

لكنه كان رجلًا لديه موارد أكثر مما كنت أتخيل؛ فتش الخشب حتى وجد ريشة حمامة مسكها ليكتب بها مثل القلم؛ وصنع لنفسه نوعًا من الحبر بالبارود من مسدسه وبعض الماء من التيار الجاري ثم مزق زاوية من ورقة تكليفه في الخدمة العسكرية الفرنسية -والذي يحملها في جيبه دائمًا كتميمة لإبعاده عن حبل المشنقة- جلس وكتب ما يلي: (قريبي العزيز، من فضلك أرسل بعض الأموال مع حامل هذه الرسالة في المكان الذي يعرفه جيدًا... توقيع آ.س) وعدنا الرجل بأنه سيبذل قصارى جهده لإيصال الرسالة في أسرع وقت، وحملها معه إلى أسفل التل.

مضى ثلاثة أيام كاملة، وفي حوالي الخامسة مساءً من اليوم الثالث، سمعنا صفيرًا في الأرجاء، أجاب عليه آلان. جاء بريك من ناحية النهر يبحث عنا من اليمين ومن اليسار، وأعطانا أخبار البلد لقد كانت

ممتلئة بجنود المعاطف الحمراء، تم العثور على الكثير من الأسلحة المخبأة، يجلبون المتاعب والمنازعات اليومية مع الفقراء، وقد تم إلقاء القبض على جيمس وبعض من أتباعه، وزج به إلى السجن في فورت ويليام([78])، تحت اشتباه قوي في التواطؤ بقتل كامبل، كان الجنود يمشطون الريف بحثًا عنَّا، ويوزعون منشورًا بأوصافنا يُعلن عن مكافأة مالية قدرها مائة ألف فرنك لمن يدل علينا، كانت هذه أخبار سيئة بقدر كبير، بالإضافة إلى رسالة بائسة حملها إلينا من السيدة ستيوارت زوجة جيمس طلبت فيه من آلان أن يتوخى الحذر قدر المستطاع حتى لا يُقبض عليه، وأكدت له أنه إذا وقع في أيدي القوات، فليعتبر نفسه هو وجيمس في عداد الموتى، كان المال الذي أرسلته هو كل ما يمكنها أن تحصل عليه أو تقترضه، وقد صلت إلى السماء حتى يكفينا، وأرسلت أيضًا نُسخة من المنشور الموزع بأوصافنا حتى نتوخى الحذر، تم وصف آلان بأنه رجل صغير ونشيط في الخامسة والثلاثين من العمر تقريبًا، مرتديًا قبعة يميزها ريش، ومعطف فرنسي باللون الأزرق مع أزرار فضية، ودانتيل ملطخ بالدماء، صدرية حمراء سروال أسود اللون، أما أنا فتم وصفي بأنني فتى قوي طويل القامة في حوالي الثامنة عشرة من عمره، يرتدي معطفًا أزرق قديمًا مهترئًا للغاية، وصدرية طويلة، وسروالًا أزرق، وحذاء من الأراضي المنخفضة، لا يتحدث الغيلية وليس له لحية.

كان آلان مندهشًا من وصف هيئته بالكامل، فقط عندما جاءت كلمة ملطخة بالدماء، نظر إلى دانتيله في خجل واضح، بالنسبة لي اعتقدت أنه تم وصفي كشخصية بائسة؛ ولكني كنت سعيدًا بما يكفي لأنني استطعت تغيير هذه الخرق البالية، لم يعد هذا الوصف يُشكل خطرًا.

حينما التقت عيني مع عين آلان قلت له:

- آلان! يجب أن تغير ملابسك!

- كيف؟ أنا لا أمتلك سواها.

قادني هذا المنشور إلى فكرة أخرى لم تكن قد خطرت ببالي من قبل، لو أنني انفصلت عن آلان سيجنبني هذا احتمال القبض علي، ولو فرضنا أنه تم الإمساك بي وأنا بمفردي فسيكون هذا أهون من إلقاء القبض عليّ مع المتهم المحتمل والأكثر شهرة، لم أجرؤ على التحدث عن رأيي في هذا الأمر؛ ولكنني عدتُ إلى التفكير به مرة أخرى عندما أحضر جون بريك محفظة صغيرة خضراء بها أربعة جنيهات من الذهب، لقد حدث تغيير طفيف الآن، صحيح أنه أصبح يمتلك الآن مالًا أكثر مني، ولكنه على كل الأحوال ليس لديه سوى خمسة جنيهات للوصول إلى أبعد من فرنسا، وهذا لن يكفي بالطبع؛ أما أنا فأحمل أقل من اثنين لكي أصل إلى كوينزفيري والذي كان كافيًا جدًّا، وهكذا فإن آلان لم يكن يُشكل خطرًا على حياتي فحسب، بل كان عبئًا على محفظتي أيضًا.

لم تمر هذه الأفكار على خاطر رفيقي، كان يعتقد أنه كان يخدمني ويساعدني ويحميني، فماذا يمكنني أن أفعل غير أن أسكت وأحاول اغتنام فرصتي؟

قال آلان لجون وهو يشد على يديه بقوة:

- حسنًا، هذا قليل للغاية، ولكنك أبليت بلاءً حسنًا، وعرضت نفسك للخطر من أجلي، أشكرك من كل قلبي، سألقبك دائمًا بالرجل الأمين.

ثم صافحه بحرارة مودعًا وافترقا، ثم أخبرني أن أستعد لاستكمال رحلتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

الرحلة الصحراء: أرض المستنقعات

بعد مرور نحو سبع ساعات من السفر المتواصل وصلنا في الصباح الباكر إلى نهاية سلسلة من الجبال، كان أمامنا قطعة أرض صحراوية منخفضة جرداء لا يوجد بها لا شجرة ولا صخرة تحمينا ويتوجب علينا عبرها. لم تكن الشمس قد أشرقت بالكامل، حل الضباب بكثافة في تلك المنطقة مثل الدخان، لذا فكما قال آلان من الممكن أن يكون هناك عشرون فارسًا من الجنود البريطانيين، ولا يمكننا رؤيتهم، جلسنا على هاوية التل حتى يرتفع الضباب، وصنعنا طبقًا من العصيدة، تلاشى الضباب ببطء وأظهر لنا هذه المنطقة المليئة بالمستنقعات، ليس هناك سوى طيور البيوي([79]) تصيح فوقها، وبعيدًا في جهة الشرق رأينا قطيعًا من الغزلان يتحرك، يبدو من بعيد مثل النقاط الصغيرة، كان هناك الكثير منها أحمر اللون، قمنا برحلة شاقة حتى نصل الحافة الشرقية، ونظرًا لأن قمم الجبال كانت تحيط بنا من كل جانب فكان من السهل التجسس علينا دون أن نستطيع معرفة ذلك، فرأينا أنه من الأفضل لنا أن نبقى في الأجزاء المجوفة من المستنقع.

كان يومًا حارًّا من جديد، والشمس ملتهبة سرعان ما نفد الماء الموجود في زجاجة البراندي، ظللنا نعاني من الحرارة، ثم نجلس لنستريح قليلًا لنستكمل المشي مرة أخرى، وحوالي الظهيرة رقدنا تحت ظلال شجرة كثيفة من الخلنج للنوم.

أخذ آلان الساعات الأولى من المراقبة بينما كنت نائمًا، شعرت أني ما لبثت أن أغمض عيني حتى أيقظني مرة أخرى لأخذ دوري، ونظرًا لأنه لم يكن لدينا ساعة لنعود إليها، فغرز آلان غصنًا قويًّا في الأرض ليساعدنا، ما أن يسقط الظل فوق الغصن من جهة الغرب حتى أعلم أنه قد حان الوقت لإيقاظ آلان. كنت مرهقًا جدًّا في هذا الوقت، وكنت أحتاج للمزيد من النوم، سيطر الخدر على جسدي، فكانت أعضائي تنام حتى عندما كان عقلي مستيقظًا؛ كنت أقفز من وقت لآخر وأجد أنني كنت أغفو.

وفي المرة الأخيرة التي استيقظت فيها من غفوتي، بدا لي أنني عدت من مكان بعيد، واعتقدت أن الشمس قد بدأت في الغروب، وعندما نظرت إلى غصن الشجرة، كنت أريد أن أصيح بصوت عالٍ لأنني رأيت أنني قد خنت الثقة. سيطر عليّ الخوف والخجل، وعندما نظرت حولي في المستنقع، كان قلبي يكاد يتوقف، رأيت مجموعة من الفرسان جاءت في أثناء نومي، كانوا منتشرين على شكل مروحة يقطعون المنطقة فوق خيولهم جيئة وذهابًا في الأجزاء العميقة من الخلنج، وعندما أيقظت آلان بهدوء نظر أولًا إلى الجنود، بعد ذلك إلى الغصن وموقع الظل، قطب حاجبيه بنظرة مفاجئة وسريعة، مستاء وقلقًا، كان هذا هو كل اللوم الذي نلته منه.

سألته بصوت مرتجف:

- ماذا سنفعل الآن؟

- علينا أن نلعب دور الأرانب، هل ترى هذا الجبل؟ مشيرًا إلى واحد في الناحية الشمالية الشرقية.

- نعم.

- حسنًا إذن فلنسعى إليه حتى نبلغه، يسمى جبل ألدر([80]) إنه جبل صحراوي بري مليء بالتلال والتجويفات الصخرية، إذا تمكنا من الوصول إليه قبل الصباح، سننجح في الاختباء هناك.

صرختُ قائلًا:

- لكن يا آلان ربما يجعلنا هذا نلتقي ببعض الجنود!

- أعلم ذلك جيدًا؛ ولكن لو انتظرنا هنا سيتم إلقاء القبض علينا وإرجاعنا إلى أبين، سنغدو رجلين ميتين لا محالة، والآن يا ديفيد ليس أمامك إلا أن تكن سريعًا!

بدأ يركض مباشرة على يديه وقدميه بسرعة بالغة كأنها طريقته الطبيعية للسير، تقدمنا بين الحشائش والجنبات خافضين رأسينا طوال الوقت، كان هذا النوع من التحرك مضنيًا، لم يمض من الوقت أكثر من نصف ساعة حتى بتُّ أشعر أن كل خطوة أخطوها هي نهاية حياتي، لا شيء سوى الخوف من آلان هو الذي أعطاني ما يكفي من القوة للاستمرار. أما عن نفسه -يجب أن أذكر هنا أنه كان مثقلًا بمعطف ضخم- كان وجهه قد تحول إلى اللون القرمزي في البداية، ولكن مع مرور الوقت أصبح الاحمرار مختلطًا مع بقع بيضاء؛ تقطعت أنفاسه وصوته فكان يهمس بملحوظات بين الحين والآخر بصوت مبحوح لا يمكنني سماعه، ومع ذلك لم يبدُ بأي حال من الأحوال محبطًا، ولم يخمد نشاطه، كنت متعجبًا من قدرته على التحمل مطولًا، في أول غبطة الليل سمعنا صوت بوق، وبالنظر إلى الوراء من بين أشجار الخلنج، رأينا القوات تبدأ في التجمع. بعد ذلك بقليل، أشعلوا نارًا وخيموا ليلًا حول برك المياه، حينها توسلت إلى آلان أن نستلقي وننام لعدة ساعات فقط، قال آلان:

- لا يمكننا النوم طوال الليل، بحلول الصباح لا بد أن نكون قد اقتربنا من جبل ألدر.

قلت:

- آلان من فضلك، أنت تعلم جيدًا أنه ليس نقص في إرادتي، ولكن هذا رغمًا عني، فالقوة هي التي تنقصني، إذا كان بإمكاني فسأفعل؛ ولكنني أكافح هنا لأبقى على قيد الحياة، إنني فعلا لا أستطيع المضي أكثر.

قال آلان:

- حسنًا إذن، سأحملك.

نظرت لأرى ما إذا كان يمزح، لكن لا، كان الرجل جادًّا للغاية؛ وبمثل هذه الكلمات أحرجني للغاية أيضًا، فلم أستطِع إلا أن أقول:

- ابتعِد عني، سأتبعك.

ألقى إليّ نظرة مشجعة وكأنه يقول «أحسنت يا ديفيد»، ثم انطلق مرة أخرى بأقصى سرعة.

بزغ الفجر ونحن ما زلنا نمشي، كانا جسدانا منحنيين كأجساد العجائز، ووجوهنا شاحبة، لم أكن أرى سوى خيالات، أسير كالمكفوف خلف قائدي، ولم أستطع سماع شيء أيضًا، فقط ركزت انتباهي بأكمله على نقل قدم أمام الأخرى، كان آلان يترنح أمامي كالثمل، وفجأة سمعت حفيف الخلنج يزداد بالقرب منا، ثم قفز أربعة رجال حولنا فجأة، طرحونا أرضا وهاجمونا بالخناجر، لم أعبأ كثيرًا وأنا ممدد على الأرض فقد كنت في حالة شبه إغماء، كل ما كان يعنيني في تلك اللحظة أنني أخيرًا توقفت، وحمدت ربي على ذلك، ثم سمعت آلان يهمس لأحد الرجال بالغيلية، ورأيتهم يرفعون السكاكين عن أعناقنا، ثم تحول آلان لي قائلًا:

- إنهم أصدقاء يا ديفيد، إنهم رجال كلاني، لم نكن لنصادف أفضل منهم، ينبغي أن ننتظر هنا ريثما يحملون خبر قدومي إلى الزعيم.

كان كلاني ماكفرسون زعيم عشيرة فوريتش العظيمة، أحد زعماء ثورة ١٧٤٥ الكبرى، لقد ظننت أنه فرّ إلى فرنسا منذ زمن بعيد مع باقي رؤساء الثورة، وعلى الرغم من تعبي الشديد فقد أيقظتني المفاجأة، فهتفت:

- ماذا! هل كلاني ما زال هنا؟

قال آلان:

- نعم، إنه ما يزال في بلده بحماية عشيرته، إن الملك جورج لا يسعه أن يعيش بصورة أفضل.

كانت هذه آخر ومضة ضوء أراها، فكل تعب الفرار والمشي الطويل والرعب من القبض علينا حل بي في هذا الوقت، كان الألم فوق احتمالي، وأخيرًا حملتني أذرع أتباع كلاني عبر الأودية المظلمة إلى قلب جبل ألدر، منزل قابع فوق منحدر تلة، حيث اتخذ كلاني مخبأ له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

قفص كلاني

وصلنا أخيرًا إلى سفح غابة شديدة الانحدار، تدافعنا صعودًا نحو منحدر تل وعر، ينتهي بهاوية عارية، قال أحد المرشدين مشيرًا إلى أعلى:

- إنه هنا.

اشتهر المكان الغريب الذي نقلنا إليه في البلد باسم قفص كلاني، كان مبنيًّا حول شجرة ضخمة نصفها قائم فوق منحدر التلة الشاهقة مثل عش الدبابير، أما بداخلها فكان يتسع لخمسة أو ست أفراد، كان هناك منحنى أسفل الكهف يعمل كموقد كبير، حيث تتصاعد منه الأبخرة في مواجهة الصخرة، ليس مختلفًا في اللون عن الصخرة، فلم نلاحظه من أسفل.

لم يكن هذا سوى أحد أماكن اختباء كلوني المتعددة؛ كان لديه كهوف كثيرة بالإضافة إلى غرف تحت الأرض في عدة أماكن في بلاده؛ وبمتابعة التقارير ينتقل من واحد إلى آخر كلما كان الجنود يقتربون أو يتحركون بعيدًا، بفضل طريقة العيش هذه، وبفضل عاطفة عشيرته وولائهم له، بقي آمنًا طوال هذا الوقت، بينما كان الكثير من الزعماء يهربون أو يُقتلون، مكث أربع أو خمس سنوات أيضًا وبعد ذلك ذهب إلى فرنسا أخيرًا بأمر صريح من الملك، وسرعان ما مات هناك، ومن المؤكد أنه ندم كثيرًا على تركه لقفصه الآمن فوق جبل ألدر اثناء فنره انتقاله.

عندما اقتربنا من الباب كان كلوني جالسًا يدخن غليونًا عتيقًا متسخًا، كان بسيط الهندام يرتدي ثيابًا بالية إلى حدٍّ ما، بالإضافة إلى قبعة نوم محبوكة فوق رأسه وأذنيه، ولكنه تميز بأخلاق ملك، فقد كان مشهدًا رائعًا أن أراه ينهض من مكانه للترحيب بنا، قائلًا:

- مرحبًا يا سيد ستيوارت، تعال إلى هنا وأجلب صديقك الذي لم أعرف اسمه بعد.

قال آلان:

- كيف حالك يا كلاني؟ آمل أن تكون بخير يا سيدي، أنا سعيد برؤيتك، أقدم لك صديقي لورد شو، السيد (ديفيد بلفور).

لم يشر آلان أبدًا إلى اسمي دون لمسة من السخرية عندما نكون بمفردنا؛ لكن برفقة الغرباء، كان يقدمني بكل إجلال وتقدير.

قال كلاني وهو يمد يده إلى الداخل:

- ادخلوا كلاكما أيها السادة، أنا أرحب بكم في منزلي المتواضع، هو مكان غريب وفقير بالتأكيد، لكنه مكان عزيز على قلبي، فقد استمتعت فيه باستضافة شخصية ملكية كما تعلم يا سيد ستيوارت (كان يقصد الأمير تشارلز)، دعونا نشرب نخب هذه الصحبة السعيدة ريثما يجهز الطعام.

ما أن شربت كأسا من البراندي حتى شعرت بتحسن قليل، أصبح بإمكاني النظر والاستماع، ربما ما زالت الرؤية ضبابية بعض الشيء، ولكن ليس بمقدار ما كنت عليه من قبل، كان بالتأكيد مكانًا غريبًا كصاحبه، فخلال فترة اختبائه الطويلة كون كلاني العديد من العادات والروتين الخاص، مثل تلك الخادمة العجوز والطباخين، بالإضافة إلى مكان جلوسه الأثير، حيث لا يجب أن يجلس أي شخص آخر؛ كان الكهف مرتب بطريقة معينة، لا يجرؤ أن ينزعها أحد؛ كانت مهارة الطهي هي أحد مواهبه الرئيسية، حتى في أثناء استقباله لنا كان يراقب المتعاونين في إعداد الطعام ويملي عليهم بعض الأوامر من حين إلى آخر، كان يتلقى في بعض الأحيان زيارات من زوجته، وواحد أو اثنين من أقرب أصدقائه، وذلك يتم تحت جنح الليل؛ ولكن بالنسبة للجزء الأكبر من الأيام فقد عاش بمفرده تمامًا، ولم يتواصل إلا مع حراسه وذويهم.

لم نكد ننتهي من تناول الطعام حتى أخرج كلاني مجموعة من أوراق اللعب([81]) القديمة، كتلك التي قد نجدها في الحانات الفقيرة، أشرقت عيناه وانشكح وجهه وهو يقترح أن نبدأ في اللعب، كان هذا أحد الأشياء التي نشأت على نبذها، فهي أعمال تجلب الخزي والعار، كان والدي يرفض هذا الأمر بتاتًا معللًا بأنه معارض للمسيحية، فلا يمكن لرجل نبيل أن يضع مصدر رزقه على لوح من اللعب من أجل اللهو، كان من الممكن أن أتحجج بالتعب، والذي كان عذرًا كافيًا وقتذاك؛ لكني اعتقدت أنه من واجبي أن أعترف بالحقيقة، لا بد أن وجهي كان شديد الاحمرار لكنني تحدثت بثبات، وأخبرتهم أنه ليس لدي أي معارضة على اتجاهات الآخرين، وإنني لستُ مفوضًا للحكم على أحد، لكن من ناحيتي فإن تلك المسألة ممنوعة تمامًا.

توقف كلاني عن خلط الأوراق، ونظر إليّ قائلًا بامتعاض:

- أي نوع من الكلام هذا؟

قال آلان محاولًا تبرير موقفي:

- فليكن يا كلاني، إنه فتى أمين ونبيل، وأنا أعتبره صديقًا مخلصًا وشجاعًا لما مرَّ به معي من مواقف ومخاطر مهولة، لكن الرجل منهك، ويجب أن ينام لبعض الوقت؛ إذا لم يكن لديه رغبة في اللعب، فلن يعيقك ذلك أبدًا، أنا مستعد للعب الآن وليس لدي مانع في أي لعبة تريدها.

لم يكن لدي رغبة في أن يقطع هذان الصديقان الحناجر من أجلي، قلت بأسلوب مهذب ونبرة راجية:

- اعذرني يا سيدي، أنا مرهق جدًّا كما يقول آلان؛ والأكثر من ذلك نظرًا لأنك رجل من المحتمل أن يكون لديك أبناء، يمكنني أن أخبرك أن هذا كان وعدًا مني لأبي قبل وفاته.

قال كلاني:

- حسنًا، حسنًا.

وأشار لي إلى سرير من الخلنج في زاوية من الكهف لكي أنام، وعلى الرغم من ذلك؛ فقد شعرت أنه مستاء بما فيه الكفاية من خلال نظرته الأخيرة لي باستغراب وتذمر.

أحسست بثقل يجتاحني إثر شرب البراندي وتناول لحم الغزال، استلقيتَ على السرير قبل أن أقع في نوع من الغيبوبة، والتي واصلت فيها تقريبًا طوال فترة إقامتنا في الكهف. في بعض الأحيان كنتُ أستيقظ وأستطيع فهم ما يدور حولي وفي بعض الأحيان لم أكن أسمع سوى أصوات غريبة، أو رجال يتكلمون بحدة يتداخل مع صوت خرير مياه من نهر بعيد؛ انتابتني كوابيس مرعبة، كنت أفيق منها وأنا أصرخ، وحين أفتح عيني كنت أرى ظلالًا على الحائط أمامي تتضخم ثم تتضاءل مرة أخرى مثل ظلال اللهب، تم استدعاء الحلاق الخاص بكلاني، والذي كان طبيبًا أيضًا ليصف لي دواء؛ لكن بما أنه تحدث بالغيلية، فلم أستطع فهم أي كلمة من حديثهما، كما أنني كنتُ مريضًا جدًّا حتى لطلب الترجمة، بينما كان آلان وكلاني يلعبان الورق معظم الوقت، من الواضح أن آلان كان يفوز كثيرًا؛ أتذكر رؤيته يقفز لأعلى ويصيح مبتهجًا وأمامه كومة تصل إلى ستين أو مائة جنيه على الطاولة.

بدا الأمر غريبًا بما يكفي، أن ترى كل تلك الأموال في كهف فقير على جانب منحدر صخري، ولكن يبدو أن الحظ تغير في اليوم الثاني، ففي الظهيرة أيقظوني كالمعتاد على الغذاء، وكالعادة رفضتُ تناول الطعام، فقط شربت كأسا من البراندي مع بعض الدواء المر الذي وصفه الحلاق، رأيت الشمس مشرقة وباب القفص مفتوحًا، جلس كلاني على الطاولة يعد الأموال بينما انحنى آلان فوق سريري وكان وجهه قريبًا من عيني التي كانت مضطربة بفعل الحمى، بدا من الضخامة أكثر رعبًا، طلب أن يقترض مني بعض المال، سألته باندهاش:

- لماذا؟

قال بجزع:

- أوه، فقط أريد الحصول على المال.

- لكن لماذا؟ - كررت- أنا لا أعرف.

قال آلان:

- ماذا دهاك يا ديفيد، أتريد أن أتوسل إليك من أجل بعض المال؟

لو كنت في كامل وعيي حينها كنت سأرفض الأمر قطعًا، لكن كل ما فكرت به حينها هو التخلص من وجهه والعودة للنوم، فسلمته أموالي.

في صباح اليوم الثالث، كان قد مرّ على وجودنا بداخل القفص حوالي ثماني وأربعون ساعة، استيقظت بارتياح كبير، ما زلت ضعيفًا جدًّا ومرهق لكنني بدأت أن أرى الأشياء في حجمها الطبيعي، كما كان لدي شهية لتناول الطعام، نهضت من فراشي بحركة بطيئة، وبمجرد أن تناولنا الإفطار، صعدنا إلى مدخل القفص وجلسنا في الخارج في الجزء العلوي من الغابة، كان يومًا رماديًّا بهواء بارد، مكثتُ في مكاني طوال الصباح لم يزعجني سوى كثرة المارة من الخدم ورجال كلاني الذين يأتون محملين بالمؤن والتقارير، كان كلاني وآلان قد وضعوا الأوراق جانبًا، واخذوا يتبادلون الحديث بالغيلية، وفجأة استدار الزعيم وتحدث معي في الغيلية ايضا.

قلت له:

- لا أستطيع فهمك يا سيدي فأنا لا أتحدث الغيلية.

منذ أن سألني للعب الورق ورفضت، فكل ما قلته أو فعلته كان بالنسبة لكلاني مصدر إزعاج واضح.

تأفف قائلًا:

- لدي الآن كل تقارير الكشافة الخاصة بي من أخبار الجنوب، والسؤال هو، هل لديك القوة للمغادرة الآن؟

رأيت أوراق اللعب فوق المنضدة، لكن لم أرَ ذهبًا؛ فقط كومة من الأوراق المكتوبة بخط اليد الصغيرة، وكلها إلى جانب كلاني، إلى جانب ذلك كان وجه آلان يحمل نظرة غريبة لم أستطع تفسيرها وقتذاك، وبدأت تجتاحني شكوك قوية.

قلت وأنا أنظر إلى آلان:

- لا أعرف ما إذا كنت أستطيع، ولكن الأموال البسيطة التي معنا لا يمكن أن تكفينا طوال هذه الرحلة.

عض آلان شفته السفلية ونظر إلى الأرض في أسف، ثم قال أخيرًا بنبرة منخفضة:

- علي أن أخبرك بالحقيقة المخزية، لقد خسرت المال.

سألته بتلهف:

- وأموالي أيضًا؟

- نعم، وأموالك أيضًا! -ثم أضاف متأوهًا- كان يجب أن لا تعطيني إياها، فأنا أصبح أحمقًا للغاية عندما يتعلق الأمر بلعب الورق.

احمر وجه كلاني بشدة، ثم قال:

- هراء، هراء، لم تكن سوى لعبة، سوف تستعيد مالك طبعًا، إنه أمر مشين بأن احتفظ بمال من أسياد بمثل ظروفكم.

أطرق آلان صامتًا ينظر إلى الأرض، إذ لا بد للسيد النبيل أن يدفع ديون الشرف فهذا هو القانون الذي تربينا في ظله، وهكذا قمت أنا نفسي بتسوية الأمر مع كلاني، فسألته:

- هل ترافقني إلى الداخل يا سيدي؟

- بالتأكيد، يسعدني ذلك.

وعندما دلفنا إلى الداخل قلت له:

- أنا شاب في مقتبل عمري وأطلب منك النصيحة الجادة، كما لو كنت ابنك، لقد خسر صديقي مالنا سويًّا بإرادته، ولو أنت خسرت لحمل مالك وأخذه، كيف يمكنني أن أقبل استرجاع المال؟ أنت تعلم أنه أمر صعب بالنسبة لرجل ذي كرامة، وكما ترى يا سيدي، كما كان رأيي في البداية، أن القمار هو عمل سيئ للغاية بالنسبة للشرفاء، لكنني ما زلت أنتظر رأيك.

كنت متأكدًا لو كان كلاني يكره أي رجل في العالم في ذلك الوقت فهو (ديفيد بلفور)، نظر إليّ بعيون ثاقبة ووجه متجهم، ورأيت التحدي فوق شفتيه. إما أن شبابي هو الذي منعه من سحب سلاحه، أو ربما روح العدل بداخله، بالتأكيد كان الأمر مروعًا في كلتا الحالتين؛ ولكني شعرت به يكابح ما اعتمل بداخله، ثم قال في نبرة قوية:

- سيد بلفور، أعتقد أنك شاب مهذب، وتملك روح سيد نبيل بالفعل، وبناءً على كلامي الصادق معك، يمكنك أن تأخذ هذا المال الآن، وهذا ما كنتُ سأقوله لابني، وها أنا أمد يدي لك به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

رحلة الصحراء: الخلاف

أستأنفنا رحلتنا في صمت كئيب، كنت غاضبًا وعنيدًا وكان ألن غاضبًا وخجلًا من نفسه، خجلًا لأنه خسر مالي وغاضبًا لأني ساخط وغاضب منه، سيطرت فكرة الانفصال على عقلي؛ وكلما أصبحت الفكرة أكثر إلحاحًا، كلما خجلت من موافقتي عليها، فكرت أنه سيكون من اللطف والكرم البالغ لو استدار آلان ليقول:

- اذهب في طريقك، فأنا أشكل خطرًا عليك.

أما بالنسبة لي فأن أستدير إليه لأقول أنت في خطر كبير، وصداقتك أصبحت عبئًا عليّ، اذهب في طريقك وتحمل مصاعبك وحدك فكان ذلك مستحيلًا؛ حتى التفكير في الأمر كان يجعل وجنتي تحترق من الخجل.

ومع ذلك، كان آلان يتصرف كطفل (بل أسوأ)، أن يقامر بأموالي بينما كنت مستلقيًّا بين الحياة والموت، فهذا أبشع من السرقة؛ علي الرغم من انه كان يمشي بجانبي لا يملك فلسًا واحدًا، ولكنه كان مبتهجًا، لا مباليًّا بالموقف المحرج الذي وضعني فيه، بعد أن دفعني إلى تسول أموالي هناك، كنت مستعدًا لمشاركتها معه؛ لكنه جعلني أشعر بالغضب عند رؤيته معتمدًا عليّ بالكامل، وفجأة اقترب مني قائلًا:

- هذه ليست طريقة جيدة للتعامل بين اثنين من الأصدقاء بعد التعرض لحادث بسيط، يتوجب عليّ الاعتذار، أنا آسف يا ديفيد، والآن إذا كان لديك أي شيء تجاهي، فمن الأفضل أن تقوله.

- أوه، ليس لدي أي شيء لأقوله.

بدا مرتبكًا قليلًا وهو ما أسعدني حقًّا.

مشينا طوال النهار، ثم لجأنا إلى النوم أخيرًا دون أن ننطلق بكلمة أخرى، لبثنا على هذه الحال لمدة ثلاثة أيام، نسير بين جبال غريبة، تضربنا الرياح الباردة والأمطار الغزيرة، نمنا في النهار فوق الخلنج المبلل، وتسلقنا التلال الوعرة والصخور العارية ليلًا، لم نتمكن ولو لمرة واحدة من إشعال النار وسط هذه الأمطار التي لا تنقطع، فكان طعامنا الوحيد هو العصيدة الباردة، وبعض اللحم المملح الذي حملناه معنا من قفص كلوني، أما بالنسبة للشراب فقد كان لدينا الكثير والكثير من الماء، كان هذا وقتًا مروعًا، كآبة الطقس والجبال جعلته مرعبًا أيضًا، لم أشعر بالدفء أبدًا؛ كانت أسناني ترتجف من البرد كما عانيت من التهاب الحلق، مثلما كنتُ على الجزيرة، بالإضافة إلى ألم شديد في جنبي لا يفارقني قط، عندما نمت في مضجعي الرطب، المطر فوقي والوحل تحتي، حلمت ثانية بأسوأ المغامرات التي صادفتها، لحظة صعودي برج شو بقصر عمي، وصوت الرعد من حولي والبرق يضرب في السماء، جثة رانسوم المحمولة على ظهور الرجال، مقتل شون على أرضية القمرة

المستديرة، وكولين كامبل وهو متشنجًا يمسك بمعطفه، كنت أستيقظ من هذا النوم المتقطع مذعورًا، لأجد نفسي جالسًا في نفس البركة التي نمت فيها.

في أثناء رحلاتنا الليلية في هذه الأجواء اعتدنا على سماع أصوات مختلفة تأتي من أسفل الوديان، كانت كصوت الرعد ممتزج بصرخات غاضبة. تذكرت في أثناء ذلك أسطورة كليبي الماء([82])، شيطان الجداول، الذي يستمر في النحيب والزئير عند النهر حتى مجيء المسافر المحكوم عليه بالموت، رأيت أن آلان هو الآخر قد فكر في ذلك وصدقه، وعندما ارتفعت صرخات النهر أكثر من المعتاد، لم أتفاجأ كثيرًا (على الرغم من أنني سأظل متذكرًا غرابة الحدث) لرؤيته يرسم الصليب فوق صدره على طريقة الكاثوليك.

خلال هذه الأيام العصيبة قلما تحدثنا، ولقول الحقيقة كنت على شفير الموت، وكان ذلك عذري الوحيد، على أي حال سأعترف بأني فتي غير متسامح منذ ولادتي، حين أغضب يطول وقت غضبي ولا أتسامح بسهولة وسرعة، كنت غاضبًا بشدة من صديقي ومن نفسي، على الرغم من أن آلان بقي لطيفًا معي دون كلل، صحيح أنه كان صامتًا، ولكنه كان على استعداد دائم للمساعدة، على أمل أن يزول غضبي، لكني رفضت أي مساعدة تأتي من جانبه بل إني رفضت حتى النظر إليه فقد كنتُ أتعامل معه كأنه شجرة أو حجر، وفي الليلة الثانية، أو بالأحرى بداية اليوم الثالث من بعد تركنا قفص كلاني، وجدنا أنفسنا فوق تلة عارية، لم نتمكن من اتباع خطتنا المعتادة للسير، أصبح هدفنا الاستلقاء فورًا لتناول الطعام والنوم، على الرغم من استمرار هطول الأمطار، فقد ارتفعت الغيوم، ونظر آلان إلى وجهي وأظهر بعض علامات القلق.

ثم قال:

- كان من الأفضل لك أن تسمح لي بأخذ حقيبتك.

ربما هذه هي المرة التاسعة الذي طلب مني ذلك منذ انفصلنا عن رجال الكشافة التابعين لكلاني قرب بحيرة رانوش([83]).

أجبته بجفاء ونبرة باردة كالثلج:

- أشكرك أنا بخير حال.

اجتاحت آلان حمرة الغضب فقال:

- لن أعرض عليك المساعدة مرة أخرى، فأنا لست رجلًا صبورًا لهذه الدرجة يا ديفيد.

- وأنا لم أقل إنك كذلك أبدًا.

كان ذلك قولا وقحًا تمامًا، كلام سخيف لا يصدر سوى من صبي في العاشرة من عمره، لم يَجِر آلان جوابًا في ذلك الوقت، لكن سلوكه استجاب بناء على ذلك، ومن الآن فصاعدًا أظن أنه تناسى تمامًا مسألة قفص كلاني؛ لم يعد يلوم نفسه على حدوث أي شيء، عدل قبعته فوق رأسه مرة أخرى، ثم سار برشاقة يطلق صفيرًا، ونظر إليّ من جانب واحد بابتسامة ساخرة متحدية.

كنتَ أشعر طوال الوقت بأن حالي يتحول من سيئ إلى أسوأ، مررت بنوبات من الحرارة، وكان الألم في جنبي بالكاد محتمل، في النهاية بدأت أشعر أنني لا أستطيع أن أمضي أبعد من ذلك، انتابتني رغبة في إنهاء حياتي وصب جام غضبي فوق رأس آلان الذي بدأ في السخرية مني بعد أن ذكر أنني من الرعاع أتباع الملك جورج، عندما كنت أسير في الطريق خلف آلان كانت قدمي ضعيفة للغاية أن تحملني، تعثرتُ وكدتُ أن أسقط فارتطمت بآلان، ودفعته إلى الأمام فجأة رغمًا عني، فالتفت إلى قائلًا:

- احترس أيها اليميني([84]).

توقفت ثم ناديته قائلًا:

- سيد ستيوارت، أنت أكبر مني سنًّا، ومن المفترض أن تكون تعلمت مراعاة مشاعر الآخرين كما يراعي الآخرون مشاعرك.

توقف آلان أمامي، قبعته مرفوعة، ويداه في جيوب سرواله، ورأسه مائلة على جانب واحد، كان يستمع ويبتسم بشكل شرير كما استطعت أن أرى من خلال ضوء النجوم، وراح يصفر لحنًا أسكتلنديًّا، وهو يقول بافتخار:

- بالطبع أراعي مشاعر الآخرين فأنا من عائلة ستيوارت.

- بالطبع أنت كذلك، أنت تحمل اسم تلك الأسرة المالكة، ولا تفتأ تذكرني بهذه الحقيقة، لكن عليك أن تتذكر أيضًا، منذ أن وطأت قدمي المرتفعات رأيت عددًا كبيرًا من أولئك الذين يحملون نفس اللقب؛ وأفضل ما يمكنني قوله عنهم هو أنهم لا يستحقون حتى عناء التوبيخ.

وقف آلان مبهوتًا وكأنه لا يصدق ما سمع، ثم قال بصوت خفيض وهو يجز على أسنانه:

- أتدرك أنك تهينني؟

كان غضبي يتعاظم فقلت له:

- وفوق ذلك، فإن هؤلاء الرعاع الذين تتحدث عنهم قد واجهوكم في ساحة المعركة([85]) وهزموكم، ألا تظن أنه يتوجب عليك إذن الحديث عنهم بأفضل من ذلك؟

بقي آلان صامتًا لبعض الوقت ثم قال في أسف بالغ:

- هذا أمر مثير للشفقة، لقد أهنتني ثم أسميتني جبانًا، وهذا أمر لا يمكنني تجاوزه أو نسيانه.

- لم أطلب منك أن تنسى، فأنا لستُ متباهيًا مثلك، سحبت سيفي واتخذت وضع الاستعداد منتظرًا مثلما علمني آلان نفسه.

صاح آلان:

- ديفيد! هل أنت مجنون؟ لا يمكنني محاربتك، هل تريدني أن أقتلك؟

- كان ينبغي أن تفكر في ذلك عندما أهنتني أولًا بكل برود.

وقف مشدوهًا للحظة ثم قال:

- لم أقل سوى الحقيقة المجردة.

ثم استل سيفه ولكن قبل أن يلمس نصله بنصل سيفي، رمى به، وأسقطه على الأرض.

- لا، لا -ظل يردد- كلا، لا أستطيع أبدًا لا أفعل ذلك أبدًا.

عندئذ زالت آخر ذرة من الغضب في نفسي، ووجدتني مشمئزا نادمًا، تمنتُ أن يعود الزمن دقيقة للخلف لأسحب ما قلته، لكن مَن يستطيع استرداد كلمة بعد نطقها، تذكرت عطف آلان وشجاعته في الماضي، كما تذكرت إهانتي له وأدركت أني سأفقد صديقًا حميمًا مخلصًا إلى الأبد، في الوقت نفسه، بدا المرض الذي ألم بي يتضاعف، كان الوجع يضرب جانبي بحدة مثل السيف. ظننت بأني سوف أقع ميتًا حيث كنت أقف، وفكرت أن ما من اعتذار بإمكانه أن يمحي أو يصحح ما قلتُه، لكن ربما صرخة نجدة تعيد آلان مرة أخرى إلى جانبي، قررت وضع كبريائي جانبًا وقلت:

- آلان، إن لم تستطع مساعدتي فسأموت هنا.

نهض واقفًا ونظر إليّ، استأنفت حديثي قائلًا:

- هذا صحيح، لقد انتهى أمري، ساعدني لأبحث عن منزل قريب، حيث يمكنني الموت بسهولة أكثر.

لم أكن بحاجة إلى التظاهر، سواء اخترت ذلك أم لا، لقد تحدثت بصوت باكٍ كان ليذيب قلبًا من الحجر، سألني بقلق واضح:

- هل تستطيع المشي؟

- ليس دون مساعدة، يجتاحني ألم كالسيف الملتهب في جنبي، لا أستطيع التنفس إذا مت هل ستسامحني يا آلان؟ لقد أحببتك من صميم قلبي، حتى عندما كنت في أشد غيظي.

أسرع آلان نحوي يسندني لكي لا أسقط، وصاح قائلًا:

- اصمت، اصمت، لا تقل ذلك، أنا غبي قليل الإدراك، فقد نسيت أنك ما زلت فتى، ولم ألاحظ أن الإرهاق والحمى تكاد تقتلك، أرجوك سامحني، لا بد أن هناك منزلًا بالجوار، اتكئ عليّ جيدًا يا ديفيد. وكان طوال الوقت يبكي تقريبًا.

قلت في وهن:

- آلان، دعنا لا نكثر الكلام بهذا الشأن الآن، أوه! إن ألمي لا يحتمل، أليس هناك منزل قريبًا؟

رد آلان بشجاعة:

- لا تخف، سأعثر لك على منزل يا ديفيد.

ومع أنه كان أقصر مني بقدم، إلا أنه كان مستعدًا لحملي لو استطاع.

- قلتَ بنبرة ساخرة:

آلان، ما الذي يجعلك طيبًا هكذا معي؟ ما الذي يجعلك تهتم لمخلوق جاحد مثلي؟

قال آلان:

- في الواقع أنا لا أعرف تحديدًا، لقد ظننت أن ما أحبه فيك هو أنك لا تتشاجر أبدًا، ولكن ما أصبحت أعرفه يقينا بأنني أحبك الآن أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

في بلكهيدر ([86])

قرع آلان باب أول بيت لجأنا إليه، لم يكن ذلك أمرًا يخلو من المخاطرة في مثل هذا الجزء من المرتفعات، فهذه الناحية من الأراضي يقطنها أفراد من عشائر مختلفة، بعضها كان على وفاق مع آل ستيوارت، والآخر لم يكن، لحسن الحظ كان أول بيت أتينا إليه يخص أحد أفراد عشيرة ماكلرن، حيث لم يكن آلان مرحبًا به من أجل اسمه فقط، ولكنه كان معروفًا بسمعته الطيبة النزيهة أيضًا، وهناك تم حملي إلى السرير في الحال، وتم استدعاء الطبيب، أما أنه كان طبيبًا بارعًا للغاية أو أنني فتى قوي للغاية، فقد مكثت في السرير أسبوع واحد وكنتُ قادرًا بعده على البدء من جديد لاستكمال رحلتي، طوال هذه الفترة لم يتركني آلان أبدًا، بالرغم من توسلاتي إليه ليلوذ بالفرار، وكان هذا موضوع احتجاجي أنا واثنان أو ثلاثة من الأصدقاء قد سمح لهم بمعرفة السر. كان يختبئ طول اليوم في الأدغال المجاورة، وعندما يأتي الليل كان يعود لزيارتي، لا يمكنني أن أصف كم كنت سعيدًا عند رؤيته يأتي كل يوم، كما كانت السيدة ماكلرن أيضًا ترحب به جيدًا، وتعد له العشاء والنبيذ، كان لدى زوجها السيد (دنكن) -كان هذا اسمه على ما أعتقد- مزمار قربة في المنزل، كنا نمضي وقتًا مرحًا خلال شفائي بعزف الموسيقى طوال الليل.

اقترب الجنود مرة أو مرتين من مخبأنا، كان بإمكاني رؤيتهم من خلال النافذة وأنا مستلقٍ فوق السرير، ولكن ما كان أكثر إثارة للدهشة أنه لم يقترب مني ولو جندي واحد، لم يسألني أحد من أين أتيت أو إلى أين أنا ذاهب، كنت متحررًا من أي استفسار كما لو كنت مستلقيًا في الصحراء.

وقبل أن أغادر علم الكثير في بلكهيدر أنني كنت تحت رعاية منزل ماكلرن، كان الجيران يتبادلون الزيارات فيما بينهم وهذه عادة البلد هناك، وسرعان ما تم نشر النبأ، كانت المنشورات التي تقدم مكافآت من أجل إلقاء القبض عليّ أنا وآلان منتشرة في كل مكان، حتى إنني كنت أملك واحدة منها في غرفة نومي، فكان من السهل عليهم التخمين، على الرغم من أنني غيرت ملابسي، فإنني لم أتمكن من تغيير عمري أو شخصيتي؛ فلم يكن صبيان الأراضي المنخفضة البالغون من العمر ثمانية عشر عامًا كثيرون جدًّا في تلك الأنحاء، وبالرغم من أن الكثير منهم كان بإمكانهم أن يصبحوا أثرياء بمجرد كلمة واحدة إلى الجنود، فإن أحدًا لم يفش سري، فرجال عشائر الأراضي المرتفعة يستطيعون كتمان السر لمدة قرن من الزمن.

حدث شيء واحد يستحق الحديث عنه خلال هذه الفترة، وهو تلك الزيارة التي قام بها روبن أويج، أحد أبناء روبن روي([87]) الشهير، كان مطلوبًا من جميع الجهات في ذلك الوقت أيضًا بتهمة خطف شابة من بلفرون([88]) والزواج منها (كما زُعِم) بالقوة؛ ومع ذلك استطاع أن يأتي إلى بالكهيدر كتاجر متنقل ويعيش بها، كان لدى دنكن الوقت لإعطائي كلمة عمن كان؛ ونظرنا إلى بعضنا البعض بقلق. كنا على علم باقترب موعد مجيء آلان، ومن غير المرجح أن يتفق الاثنان، ومع ذلك إذا نطقنا كلمة أو سعينا إلى إصدار أي إشارة لتحذير آلان، فمن المؤكد أن نثير ريبة الرجل، لقد جاء باستعراض

رائع للكياسة والاحترام؛ خلع قبعته وانحنى لتحية السيدة ماكلارين، ثم وضعها على رأسه مرة أخرى للتحدث إلى دنكن؛ جاء إلى جوار سريري وانحنى يقول:

- لقد علمت يا سيدي أن اسمك الأخير هو بلفور، أليس كذلك؟

قلت:

- يسموني (ديفيد بلفور)، أنا في خدمتك يا سيدي.

- أود أن أخبرك باسمي في المقابل، ولكنه محظور ومتداول بشدة هذه الأيام سأكتفي بأن أخبرك بأني أحد إخوة جيمس مور دروموند أو ماكريغور، والذي أشك بأنك سمعت عنه من قبل.

قلت:

- للاسف يا سيدي، وأنا مندهش قليلًا من ذلك؛ ولكن ليس بالنسبة لوالدك ماكريغور كامبل. ظننت أنه من الأفضل أن أثني عليه في حال كان فخورًا به حتى ولو كان خارجًا عن القانون.

انحنى في المقابل، ثم قال:

- لكن ما جئت لأقوله يا سيدي، أنه خلال أحداث عام ١٧٤٥ أصيب أخي بجروح بالغة، ولحسن الحظ فإن الطبيب الجراح الذي سار مع عشيرتنا، عالج جراح أخي واعتنى به جيدًا، ونجح في إصلاح ساقه عندما كسرت في بريستون بانز([89])، كان رجلًا نبيلًا يحمل نفس اللقب مثلك تمامًا، ولذلك جئت لأعرف إذا كنت في أي درجة من القرب من هذا الرجل المحترم، فقد جئت لأضع نفسي وأهلي تحت إمرتك، لعلي أرد ولو جزءًا بسيطًا من أفضاله.

- أخبرته بأني لا أعرف شيئًا عن جذوري سوى عمي إبينيزير، والذي ثرثر أمامي في مرة من المرات عن باقي أفراد عائلتي الذين لم أعرف عنهم شيئًا، وليس هناك شيء في رأسي الآن يمكن أن يخدم غرضه الحالي، فلم يبق لي من عائلتي سوى العار المرير الذي ارتكبه عمي معي، ولا أستطيع أن أبوح به.

أخبرني روبن بعد قليل أنه آسف لأنه أزعجني، وأدار ظهره لي دون أي إشارة تحية.

أسفت لحالي أكثر بعد تلك الزيارة، فقد أكون بين الناس من عائلة عريقة وأهلي أناس شريفون مستعدون لخدمة الآخرين ومنحهم الرعاية، لكني لم التقي سوي بالجزء الخبيث منهم، عمي إبينيزير، فهو سبب ما أنا عليه الآن، هو سبب عنائي وشقائي طوال هذه الفترة الماضية، عزمت على استعادة حقي منه واسترداد كرامتي جراء فعلته النكراء معي، لم يكن هناك شيء يستطيع أن يبث بداخلي القوة والحماس لاستكمال رحلتي أكثر من هذا الهدف الذي وضعته نصب عيني في الأيام التالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

نهاية الرحلة: عبورنا نهر فورث

ساعدنا هذا الطقس المعتدل الدافئ على الانطلاق، أصبح لدينا حينئذ مقدار ضئيل جدًّا من المال، لدرجة أنني توقعت أننا سنتضور جوعًا إن لم نصل بسرعة إلى السيد رانكيلور المحامي، حيث يمكنني المطالبة بإرثي، لم يعد يفصلنا عن الأراضي المنخفضة سوى نهر فورث، والطريق الرئيسية لعبوره كان عن طريق جسر سترلينغ(90)، من وجهة نظر آلان، يجب أن تكون عملية الصيد قد قلت الآن إلى حدٍّ كبير في هذا الوقت من العام، ربما ستكون المراقبة ليست مكثفة كالعادة، في الليلة الأولى ذهبنا إلى منزل أحد أفراد عائلة ماكلارين، صديق دنكن، حيث قضينا ليلة الحادي والعشرين من الشهر، ومن ثم انطلقنا مرة أخرى عند سقوط الليل لنمشي وسط الغابات، حتى تمكنا من الاستلقاء تحت شجرة خلنج صغيرة فوق منحدر على مرأى من قطيع من الغزلان، قضيت أفضل عشرة ساعات من النوم المتواصل تحت ضوء الشمس الناعم والنسمات العليلة وفوق أرض جافة لم أختبرها من قبل. رأينا الصحراء العارية بالكامل حول جسر سترلينغ تحت أقدامنا، كما لو كانت مسطحة مثل فطيرة، وكانت القلعة على تل في وسطها، تتلألأ تحت ضوء القمر، قال آلان:

- ها أنت الآن في ديارك مرة ثانية، إذا تمكنا من عبور نهر فورث سنصبح في أمان.

وجدنا جزيرة رملية صغيرة، ممتلئة بالأرقطيون(91) والقبعيات(92) وما شابهها من نباتات منخفضة، كان مكانًا جيدًا لأنه سيعمل على تغطيتنا بشكل كامل فقط إذا تمكنا من البقاء في وضع مسطح، مكثنا هناك أمام قلعة ستيرلينغ، لدرجة أننا تمكنا من سماع دقات الطبول عند عرض الجنود والضباط، كان الجزازون(93) يعملون طوال اليوم في حقل على جانب واحد من النهر، وكنا نسمع الحجارة تسير فوق العربات وأصوات الرجال الغليظة يتحدثون، وأصوات الضباط تأمرهم بالراحة لتناول الغذاء أحيانًا، وأحيانًا تأمرهم بالتزام الصمت والعمل، كنا قريبين منهم بالفعل، ولكن رمال الجزيرة الصغيرة كانت دافئة من أثر الشمس، كما أعطتنا النباتات الخضراء مخبأ آمنًا، تناولنا الطعام والشراب وارتحنا لبعض الوقت، وبمجرد أن ترك الجزازون عملهم وبدأ الغسق في السقوط، اقتربنا من الشاطئ وتوجهنا إلى صعود جسر ستيرلنغ، مع الحفاظ على الهدوء والاحتماء بالأسوار الميدانية، لا يمكن تصور مقدار الرهبة التي تملكتني وأنا أقترب من الجسر، ليس فقط لأنه كان أشهر معالم التاريخ، ولكن لأنه يمثل أبواب الخلاص بالنسبة لي ولآلان، مشينا آملين أن يكون البحث عنا قد توقف، ولكن بينما كنا نقترب أكثر فأكثر استطعنا أن نرى الحراس، قال آلان بصوت منخفض وهو يتراجع إلى الخلف:

- هذا لن يحدث أبدًا، لن أفعل ذلك أبدًا.

ودون إضافة كلمة أخرى، بدأ بالزحف بعيدًا عبر الحقول؛ وبعد ذلك بقليل، أصبح الجسر بعيد المنال، في الواقع لقد كنت منزعجًا بشدة من خيبة الأمل، لم يكن هناك أي فرصة للفرار من هذا الطريق، بعد ذلك عقدت العزم على العبور فوق إحدى مضخات النهر، حيث يمكننا أن نمشي عبر مياه النهر

الضحلة، لكن آلان لم يكن ليسمح بذلك لأنه لم يكن باستطاعتي السباحة لو حدثت اي ظروف، كما أن المضخات ستكون تحت الحراسة المشددة أيضًا، لم يكن معنا نقود، ولم يكن يفصل بيننا وبين بر الأمان سوى نصف ميل من الماء، جلست أئن قهرًا، فبعد الأهوال التي اجتزناها، يتم منعنا من بلوغ هدفنا الآن؟! أي عدل هذا؟

ولكن آلان لم يقبل أن يتسرب الضعف إلى قلبه، قادني شرقًا صوب البحر، وقال لي بصوت حازم:

- إن لم نتمكن من عبور الجسر فليس أمامنا سوى عبور النهر نفسه.

- كيف سنتمكن من عبور هذا النهر العريض؟

قال آلان بنبرة ساخرة:

- دعني أذكرك قليلًا، هناك شيء يُدعى مراكب.

أجبته بنفس نبرة السخرية:

- أجل، وهناك شيء آخر يُدعى مالًا، وبما أنه ليس لدينا هذا أو ذاك فمن الصعب أن نتمكن من تحقيق مرادك.

- هل تعتقد ذلك؟

- نعم.

- ديفيد، أنت فتى ذو خيال قليل، وطموح أقل، إن لم أستطِع العثور على مركب عن طريق التسول أو الاستعارة، أو حتى السرقة، سأصنع واحدة! وإن كان ضروريًّا سأصنع رجلًا ليجدف بنا، لذا لا تثبت همتي يا رجل ولا تزعجني بسخافتك، من فضلك امض صامتًا واترك التفكير عنك لآلان.

ارتفع الدخان من كوينزفيري، فأمامنا القرى والمزارع، كانت الحقول تحصد والفلاحون يعملون على قدم وساق، رأينا سفينتين راسيتين على الضفة الأخرى، وكانت القوارب تأتي وتذهب محملة بالركاب والمؤن. كان الأمر برمته يصور مشهدًا جميلًا وممتعًا بالنسبة لي. كان هناك منزل السيد رانكيلور على الشاطئ الجنوبي، حيث لم يكن لدي أدنى شك في أن الثروة تنتظرني، بينما أنا هنا على الجانب الآخر مرتديًا ثيابًا رثة، وفي جيبي ثلاث شلنات ومطلوب للعدالة، وأصحاب المعاطف الحمر يبحثون عني وعن صديقي الخارج عن القانون.

قلت:

- أوه يا آلان، فكر في ذلك، حتى العصافير تستطيع أن تعبر النهر، المراكب تعبر النهر، كل شخص حولي يستطيع أن يعبر النهر، إلا أنا، آه يا رجل! إنه لأمر مثير للشفقة.

دلفنا إلى نزل صغير، وجلسنا نستريح لفترة ثم اشترينا بعض الخبز والجبن من فتاة حسنة المظهر كان هذا هو كل ما نملك من طعام، حملناه معنا في حزمة، ثم جلسنا وأكلنا في الغابة بالقرب من شاطئ البحر، ظللتُ أنظر عبر المياه وأتنهد، وعلى الرغم من أنني لم أعطِ الأمر أهمية كبيرة، رأيت

آلان وقد وقع في تفكير عميق، ثم سألني إذا كنت قد لاحظت الفتاة التي خدمتنا، فأجبته نعم لقد فعلت، وذلك لأنها كانت جميلة بالفعل.

قال آلان:

- عظيم، لو استطعت كسب عطفها، فقد تساعدنا في الحصول على قارب، أنت مريض وهذا باد على وجهك، لكن تظاهر أنك أكثر مرضًا مما أنت عليه.

قلت بتردد:

- هل تعتقد بأن هذه هي الطريقة الصحيحة؟

- هيا يا ديفيد، لا أريد أن تقع الفتاة في حبك، أريدها فقط أن تأسف لحالك (وراح يتطلع إليّ في فضول) أتمنى لو كنت أكثر شحوبًا؛ لكن بصرف النظر عن ذلك أنا متأكد من أنك ستعمل بشكل جيد من أجل هدفي.

عندما اقتربنا من باب النزل أخذ ذراعي وعلقها حول رقبته كأنني شبه عاجز عن المشي بمفردي؛ ومع أنني كنت سأموت من الضحك، أدركت أن هذه اللعبة بمثابة الحياة أو الموت بالنسبة لكلينا، وخلال ذلك الوقت الذي دفع فيه باب النزل ليفتحه وكأنه نصف يحملني، بدت الفتاة متفاجئة من عودتنا السريعة، لم يكن لدى آلان أي كلمات ليشرح لها الموقف، ساعدني في الجلوس على كرسي، وطلب منها كأسًا من البراندي الذي سقاني به في رشفات صغيرة، ثم ساعدني على تناول كسر الخبز والجبن، اقتربت منا ووقفت تتكئ بظهرها على الطاولة المجاورة، ثم قالت أخيرًا:

- ما مشكلته؟

رد آلان عليها، ولدهشتي العظيمة، رأيت وجهه مصبوغًا بنوع من اللطف الممتزج بالغضب، وقال:

- لقد سار مئات الأميال، أكثر من عدد الشعر الذي ينبت فوق ذقنه، نام فوق الخلنج الرطب أكثر من الملاءات الجافة، ظلم! إنه ظلم بين! واستمر في التذمر لبعض الوقت.

- أليس لديه أهل؟

- بالتأكيد لديه، لو نستطيع فقط الوصول إليهم، لديه أهل أثرياء وأسرة جافة ينام عليها، وطعام وفير يأكله، وأطباء رائعون للاعتناء به، لكن بوضعه هذا وبوجوده هنا سيموت مثل الشحاذ.

- ولما هذا؟

- لا يسعني قول السبب هنا بأمان يا عزيزتي، ولكني سأصفر لكِ لحنًا...

وهكذا انحنى قريبًا منها على الطاولة، وبمجرد بعض الأنفاس الصافرة، وإحساس رائع، أعطاها قطعة صغيرة من (تشارلي حبيبي)، والتي يعرف كل إنسان يعيش في أسكتلندا أنها أغنية الخارجين عن القانون.

- صه! كفي! قالت وهي تنظر من فوق كتفها إلى مدخل الباب، ثم استكملت:

- ولكنه صغير جدًّا!

- إنه كبير بما يكفي لـ...، وضرب آلان سبابته على الجزء الخلفي من رقبته، مما يعني أنني كنت كبيرًا في السن أن أفقد رأسي.

صرخت عاليًا:

- سيكون عارًا علينا.

قال آلان:

- هذا ما سيكون بالفعل، إلا إذا نجحنا في تحقيق الأفضل له.

عند هذا استدارت الفتاة وخرجت من النزل، وتركتنا وحدنا معًا، كان آلان في حالة من التفكير والشرود لتعزيز مخططاته، وأنا في حالة مرارة، يدعى أنني يعقوبي ويعاملني كالطفل.

صرخت:

- آلان، لم يعد بإمكاني تحمل هذا الوضع أكثر من ذلك.

- لا ينبغي عليك التذمر! فبفضل هذه الطريقة ستكون تلك الفتاة هي من تنقذنا، إنها أمور بسيطة بالمقارنة بحياتنا المشردة هذه.

أدركت أن آلان على حق، فالتزمت الصمت تاركًا له الأمر يقوده كيفما يشاء، ما لبثت الفتاة أن عادت إلينا مرة أخرى مع طبق من البودينغ الأبيض، وزجاجة من البيرة القوية.

قالت وهي تربت على كتفي بلمسة حنونة جعلتني أبتهج إلى حد ما:

- يا لك من فتى مسكين!

ثم أخبرتنا أن والدها غائب ولسنا بحاجة أن ندفع ثمن الطعام، كان من الواضح عليها التأثر الشديد، انطوت على نفسها خلف الطاولة ممسكة بحزام مئزرها بين يدها، ثم قالت لآلان:

- أعتقد أنك ربما تحدثت مع كثير من الناس خلال رحلتك، فلديك لسان فصيح.

قال آلان:

- لكنك ترى أنني أجيد اختيار القوم الذي أتحدث معهم.

أجابته سريعًا:

- لن أخونكم أبدًا، إذا كنت تقصد ذلك.

- لا، أنت لست من هذا النوع أنا أعرف هذا تمامًا، بل على العكس ربما يمكنك مساعدتنا

قالت وهي تهز رأسها:

- أنا! لا أستطيع، كيف يمكنني ذلك؟

- انظري يا عزيزتي، هناك قوارب راسية على شاطئ مملكة فايف، لأني رأيت اثنين على الأقل، إذا كان بإمكاننا الحصول على واحد تحت سحابة الليل، سنتمكن من عبور النهر إلى الضفة الأخرى، وبذلك ستكونين السبب في إنقاذ روحين من الموت المحتم، لم يبق لدينا إلا ثلاثة شلنات في هذا العالم الواسع إلى أين نذهب، وماذا سنفعل بعد ذلك؟

كان بإمكاني أن أرى الفتاة تقع في اضطراب كبير، فقد تم إغراؤها بمساعدتنا، ومع ذلك فقد انتابها بعض الخوف من أنها ربما تساعد مجرمين، ولذا فقد قررتُ الآن أن أتدخّل وأهدئ من خوفها من التورط، ولو بإعلان جزء من الحقيقة، فسألتها:

- هل سبق لك أن سمعت عن السيد رانكيلور في كوينزفيري؟

- طبعًا.

- حسنًا، أنا ذاهب إلى منزله، وسأخبرك شيء آخر بالرغم من أن حياتي معرضة للخطر، ليس للملك جورج اتباع أفضل منا في أسكتلندا بأكملها.

أشرق وجهها بينما أكفهر وجه آلان، ثم قالت بشيء من الثقة:

- السيد رانكيلور رجل نبيل صادق يمكنك الوثوق به.

ثم اخبرتنا بأنها ستحاول بذل ما في وسعها حتى تساعدنا على عبور النهر.

قابلتنا مشكلة واحدة فقط طوال اليوم بينما كنا نجلس تحت ظلال الأشجار مستمتعين بالطقس الدافئ، جاء رجل مُشرد وجلس معنا في نفس الغابة، أحمر الأنف، مخمور، يرافقه كلب عجوز، ويحمل بيده زجاجة ويسكي كبيرة، أخذ يثرثر عن قصة حياته الطويلة والأخطاء التي ارتُكبت معه من قبل جميع الأشخاص المقربين له حتى وصل إلى السيد رئيس المحكمة، والحكم الذي حرمه من العدل وصولًا إلى الكفالة التي يتوجب عليه دفعها، في النهاية كان مستحيلًا ألا يحمل بعض الشك تجاهنا، فكنا أمامه رجلين مختبئين طوال اليوم في غابة وليس لديهم عمل للادعاء بالقيام به، بدأ يوجه إلينا أسئلة متطفلة؛ وعندما لم يجد استجابة ولم يعجبه الصمت والخمول الذي أظهرناه هَمّ بالرحيل مع كلبه، وحمدنا الله كثيرًا بعدها؛ لأنه كان رجلًا من غير المعقول أن يمسك لسانه، كما كنا في حالة نفاد صبر هائلة، انتهى اليوم وحل الليل صافيًا وهادئًا. شاهدنا الأنوار تخرج من المنازل والاكواخ الصغيرة، ثم بدأ إخمادها الواحد تلو الآخر، عندما بلغت الساعة الحادية عشرة، كنا قد تعرضنا للتعذيب البطيء جراء الانتظار والقلق لفترة طويلة قبل أن نسمع صرير المجاديف فوق المياه، في ذلك الوقت نظرنا ورأينا الفتاة نفسها تأتي إلينا وهي تجدف في قارب، لقد وثقت بنا حتى إنها عرضت نفسها للخطر، حالما نام والدها خرجت من المنزل، وسرقت قارب الجيران، وجاءت لمساعدتنا بمفردها.

شعرت بالحيرة كيف أجد تعبيرًا عن شكري لها؛ لكنها أبدت حرجًا بالغًا من فكرة سماعي، توسلت إلينا ألا نضيع الوقت ونحافظ على سلامنا، ثم ابتعدت عائدة إلى النزل مرة أخرى، حتى بعد رحيلها

لم يكن لدينا ما نقوله، كما هو الحال بالفعل، لم يكن هناك شيء كافيًا لمثل هذا اللطف. وقف آلان على الشاطئ يهز رأسه قائلًا:

- إنها فتاة جميلة جدًّا يا ديفيد.

وبعد مرور ساعة كنا قد وصلنا إلى الضفة الأخرى، استلقينا في وكر على شاطئ البحر وكنت قد غفوت بالفعل، بينما عاد آلان مرة أخرى إلى الثناء على الفتاة. من ناحيتي لم أستطع قول أي شيء، لقد كانت مخلوقًا بسيطًا جدًّا وعطوفًا لأقصي درجة، ضرب قلبي شعور ممتزج بالندم والخوف: الندم لأننا استغللنا جهلها وطيبة قلبها في مصالحنا، والخوف من أن نكون قد أشركناها بأي شكل في المخاطر التي تواجهنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

عندما ذهبت إلى السيد رانكيلور

في اليوم التالي، كان عليّ العثور على السيد رانكيلور، وهذا أمر عليّ القيام به بنفسي، لأن آلان كان رجل مطاردًا في الأراضي المنخفضة أيضًا، وهكذا تم الاتفاق فيما بيننا على أن يبقى في الغابة حتى الغروب، وحينما أعود لاصطحابه ينبغي أن أصفر لحنًا صغيرًا للأراضي المنخفضة، وهي أغنية «منزل بوني الصغير في إيرلي». والتي كانت مفضلة لدي؛ لكنه اعترض على ذلك لأن تلك القطعة شائعة بشكل كبير، ربما يصفرها أي عامل حرث عن طريق الصدفة؛ وعلمني بدلًا من ذلك القليل من لحن «هواء المرتفعات القديم»، ظلت ذكرى تلك اللحن تجول في رأسي إلى يومنا هذا، وبالأحرى ستظل تجول في رأسي حتى عندما أحتضر، ستذكرني بآلان وهو قابع هناك في مخبئه تحت الأشجار يعلمني إياها بينما تشرق الشمس في الأفق البعيد.

وبطلوع النهار بدأت الشمس تتأجج، فُتحت النوافذ وظهر الناس خارج البيوت، نما قلقي ويأسي أكثر من أي وقت مضى، فكرتُ الآن أنه ليس لدي أي إثباتات للاستناد عليها؛ ولا يوجد دليل واضح على حقوقي، ولا أملك الكثير لإثبات هويتي، بدا الأمر الذي كنت أسعى إليه كفقاعة كبيرة وأنني ربما عرضت نفسي لوهم ضخم، وركضت خلف سراب، حتى لو كانت الأمور كما تصورت، فسيستغرق الأمر على الأرجح وقتًا لإثبات مزاعمي؛ وما هو الوقت الذي يمكنني أن أقضيه بأقل من ثلاثة شلنات في جيبي! رأيت الناس ينظرون إلى وجهي بارتياب في الشارع أو من النوافذ، بدأت في الشعور بخوف جديد، قد لا يكون الأمر سهلًا حتى للوصول إلى منزل المحامي، ناهيك عن إقناعه بقصتي.

لم أجرؤ على التحدث إلى هؤلاء المواطنين ذوي الملامح الطيبة؛ ظننت أنه من العار أن أتحدث معهم في مثل هذه الثياب الرثة والأوساخ التي تكسوني من أعلى رأسي إلى أسفل قدمي؛ فإذا سألت عن منزل السيد رانكيلور ربما سينفجرون من الضحك في وجهي، وبالتالي صعدت وهبطت عبر الشوارع، ونزلت إلى جانب المرفأ، أتجول دون وجهة واضحة مثل كلب فقد سيده.

وبالصدفة توقفت أمام منزل جميل ذي نوافذ زجاجية، وعقد مزهرة على العتبات، وجدران مزركشة، كما كان هناك كلب صيد يجلس بكسل على الدرج من تلك الفصيلة التي تُربي في المنزل، أخذت أتأمل المنزل من الخارج في إعجاب شديد، حتى أنني كنت أحسد صاحبه، عندما فُتح الباب وخرج من هناك رجل طويل ذو وجه وردى لطيف يرتدي ملابس في غاية الأناقة مع شعر مستعار ونظارات، كنت أرتدي ثيابًا رثة للغاية لدرجة أن كل من رآني تطلع إليّ مرتين ليصدق عينه، ذهل هذا السيد من مظهري البائس، لدرجة أنه جاء مباشرة إليّ وسألني عما أفعل.

أخبرته أنني أتيت إلى كوينزفيري للعمل، وطلبت منه أن يوجهني إلى منزل السيد رانكيلور.

قال:

- لماذا؟! هذا هو منزله الذي خرجت منه للتو، وللصدفة الفريدة إلى حد ما، أنا هو الرجل نفسه الذي تبحث عنه.

- آه يا سيدي! لقد كنت أسعى لمقابلتك منذ وقت طويل، هل يمكنني التحدث إليك قليلًا.

- لكني لا أتذكر أنني رأيتك من قبل، أنا حتى لا أعرف اسمك.

- اسمي (ديفيد بلفور).

- (ديفيد بلفور)؟!

كرر بنبرة عالية نوعًا ما كأنه تفاجأ قليلًا، ثم سألني:

- من أين أتيت يا سيد (ديفيد بلفور)؟

- أتيت من أماكن كثيرة وغريبة يا سيدي، لكنني أعتقد أنه من الأفضل التحدث في مكان منعزل أكثر.

فكر للحظة متطلعًا إليّ أولًا، ثم إلى الشارع، وقال أخيرًا:

- أجل، ذلك سيكون أفضل من دون شك.

ثم قادني إلى داخل منزله، وأخبر الخدم أنه سيكون منشغلًا بداخل مكتبه لبعض الوقت.

قادني إلى حجرة صغيرة مغبرة مليئة بالكتب والمستندات، حيث جلس، وطلب مني أن أجلس؛ على الرغم من أنني شعرت أنه بدا مستاءً قليلًا من تلويثي للكرسي بسبب ملابسي الموحلة.

قال بصوت ثابت:

- والآن يا سيد بلفور أطلب منك أن تكون مختصرًا، فلدي أعمال كثيرة للقيام بها كما ترى.

على الرغم من أنني كنت متشجعًا بعض الشيء؛ شعرت بالحرارة و تورد وجهي ارتباكًا، وعضضت لساني وأنا أقول:

- أعتقد أنني صاحب الحق في ملكية قصر عائلة شو وأراضيهم.

أخرج كتابًا ورقيًّا من الدرج ووضعه أمامه قائلًا:

- حسنًا؟

لم يبد على المحامي بأنه تفاجأ بكلامي، بل اكتفى بأن نظر إليّ بتمعن وقال:

- هيا ياسيد بلفور، أكمل حديثك، أين ولدت؟

- في (إسندين) يا سيدي، الثاني عشر من مارس عام ١٧٣٣

يبدو أنه دَوّن هذه المعلومات في كتابه الورقي؛ لكن ما هدفه من وراء ذلك لم أكن أعرف.

- ما اسم والدك ووالدتك؟

- والدي ألكسندر بلفور، مدير مدرسة، وأمي غريس بيتارو؛ أعتقد أن شعبها كانوا من أنغوس([94]).

- هل لديك أي أوراق تثبت هويتك؟

- لا يا سيدي، لكنهما بين أيدي السيد كامبل قس (إسندين)، ويمكن أن يحضرهما بسهولة، السيد كامبل سيشهد معي، وسوف يعطيني كلمته بالتأكيد، وفي هذا الصدد، لا أعتقد أن عمي سينكرني ايضا.

- تقصد بذلك السيد إبينيزر بلفور؟

- بالتأكيد.

- هل قابلته؟

- بالطبع، لقد استقبلني في منزله.

- هل قابلت رجلًا اسمه هوسيزون من قبل؟

- نعم يا سيدي، لقد كان ذلك من سوء حظي، تم ذلك بتدبير من عمي، حيث تم اختطافي على مرأى من هذه المدينة، ثم تم بيعي وإرسالي في سفينة عبر البحر، عانيت من أهوال غرق السفينة، ومئة مشقة أخرى بعدها، حتى وصلت إلى هذا الحال وأنا أقف أمامك اليوم في هذا المنظر البائس.

- أنت تقول إن السفينة قد غرقت، أين كان هذا؟

- قبالة الطرف الجنوبي لجزيرة مُل، تحديدًا كان اسم الجزيرة التي ألقيت عليها هو جزيرة إيرريد.

- آه! -قال مبتسمًا- أنت أعمق مني في الجغرافيا، حتى الآن يمكنني أخبارك بأن هذا يتفق تمامًا مع المعلومات الأخرى التي أمتلكها، لكنك تقول إنك كنت مخطوفًا كيف حدث ذلك؟

- بالمعنى البسيط للكلمة يا سيدي، كنت في الطريق إلى منزلك، عندما تم اقتيادي إلى ظهر السفينة، ضُربت بقسوة، ثم ألقوا بي في أسفل السفينة، ولم أعرف أكثر من ذلك حتى وصلنا بعيدًا في البحر، كانوا متجهين إلى أمريكا حيث كنت سأباع هناك لأنهم يعملون في تجارة الرقيق، وهذا هو المصير الذي أنقذتني منه عناية الله.

- سفينة العهد فقدت يوم ٢٧ يونيو- قال وهو ينظر في كتابه- ونحن الآن في ٢٤ أغسطس، هنا فجوة كبيرة يا سيد بلفور، قرابة شهرين. لقد تسببت بالفعل في قدر كبير من المتاعب لأصدقائك في (إسندين)؛ وأنا لا يمكنني أن أصدقك إلا إن ملأت هذه الفجوة بشكل سليم.

- في الواقع يمكنني ان احكي لك كيف قضيت هذه الأشهر بسهولة، ولكن قبل أن أخبرك قصتي، سأكون سعيدًا بمعرفة إذا كنت أتحدث إلى صديق.

- هذه مجادلة في غير محلها، لا أستطيع أن أكون مقتنعًا حتى أسمعك، لا أستطيع أن أكون صديقك وأوليك ثقتي ما إن يتم إبلاغي بكل شئ وبشكل كامل، أنت تعلم يا سيد بلفور، لدينا مَثَل في هذه البلد يقول إن فاعلي الشر هم أنفسهم طالبين العدالة.

- لا تنسى يا سيدي أنني عانيتُ بالفعل من خلال ثقتي العمياء بالأشخاص الخطأ، وتم خطفي لأكون عبدًا من قبل نفس الرجل الذي (لو كنت فهمت بشكل صحيح) هو رب عملك.

ضحك بصوت عالٍ إلى حد ما، ثم قال:

- لا، لا، لا تسير الأمور هكذا، كنت بالفعل مسئولًا عن الكثير من الأعمال الخاصة بعمك، ولكن هذا لا يعني أنني سأقف بجانبه عندما يكون متهمًا في جريمة ما، أو حتى يرتكب أي خطأ، يمكنك أن تثق بي.

أدركت في تلك اللحظة أن علي أن أضع كامل ثقتي في ذلك الرجل، وعقدت العزم على إخباره بالحقيقة كاملة، فقلت:

- بداية يا سيدي إن أخبرتك قصتي، سأضع حياة صديق عزيز تحت رحمتك، أبلغني كلمة شرف منك بأنه سيكون بأمان، لن أطلب ضمانًا أفضل من مجرد كلمتك.

أعطاني وعدًا قاطعًا بجدية بالغة، ثم قال:

- لكن إذا كان في قصتك، أي فعل ولو صغيرًا خارج عن القانون، أتوسل إليك أن تضع في اعتبارك أنني محام، ولن أقبل أن أخالف ضميري أبدًا، عليك توخي الحذر.

وعندها أخبرته قصتي بأكملها من البداية، كان يستمع بنظاراته مرفوعة على وجهه وعيناه مغمضتين، حتي انني كنت أخشى أحيانًا أن يكون نائمًا. لكن لا يهم! لقد سمع كل كلمة بإنصات شديد ودقة، وحفظها في ذاكرته -كما علمت بعد ذلك- حتى الأسماء الغيلية الغريبة، التي سمع عنها مني، تذكرها وأخذ يذكرني بها بعد سنوات مضت، وعندما ذكرت اسم (آلان بريك)، والذي قد انتشر بالطبع عبر أسكتلندا عقب خبر جريمة أبين، وعرض المنشورات والمكافأة، تململ في مقعده وفتح عينيه، قائلًا:

- سيد بلفور لا داعي لذكر أسماء غير ضرورية.

- حسنًا، ربما كان من الأفضل ألا أفعل ذلك، لكن بما أنني تركته يفلت، سأواصل حديثي هكذا على أي حال.

قال السيد رانكيلور:

- لا، على الإطلاق، أنا ضعيف إلى حد ما في السمع، ربما تكون قد لاحظت ذلك؛ وأنا غير متيقن من أنني سمعت الاسم بالضبط، دعنا ندعو هذا الصديق باسم (طومسون) من فضلك.

وبهذه الطريقة أيضًا أخفيت عنه أسماء سكان المرتفعات الذين عشت بينهم، وهكذا إن سُئل السيد رانكليور عما إذا كان قد سمع عن أولئك الخارجين عن القانون فسيتمكن من الإجابة بكل صدق أن «لا».

وحين انتهيت من سرد قصتي وكل ما مررت به قال بصوت متأثر:

- حسنًا، إن قصتك هذه تعتبر ملحمة عظيمة، لقد أظهرت براعة مميزة في التعامل مع الأزمات والصعاب، يبدو أن السيد (طومسون) هو الآخر رجل شجاع على خلق رفيع، على الرغم من كونه

عنيفًا أحيانًا، فقد كان مخلصًا لك على الدوام مثلما انت مخلصًا له حتى الآن، حسنًا، أعتقد أن تلك الأيام الصعاب قد مضت، وأنك تُشرف الآن على نهاية مشكلاتك.

نهض ودعا الخادم مرة أخرى ليضع طبقًا إضافيًّا لي على العشاء، ثم قادني إلى غرفة نوم في الجزء العلوي من المنزل، ووضعني في المرحاض الخاص بالغرفة، أمامي الماء والصابون والمشط، وأيضًا بعض الملابس التي تخص ابن من أبنائه، ثم تركني لأتحمم، ودعاني إلى العشاء حالما انتهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون

في الطريق للمطالبة بميراثي

قمت بإجراء تغيير هائل في مظهري، نظرتُ في المرآة لأجد أن المتسول الذي كنتُ عليه قد ذهب بلا رجعة، وعاد (ديفيد بلفور) إلى الحياة مرة أخرى، مع ذلك كنت أشعر بالخجل من هذا التغيير المفاجئ، والأكثر من ذلك، من اقتراضي للملابس. عندما انتهيت من الاستحمام، وهممت بالخروج أمسك بي السيد رانكيلور على الدرج، وقدم لي تحياته بود مبالغ، ثم أدخلني مرة أخرى إلى الغرفة الخاصة به وقال:

- اجلس يا سيد ديفيد، والآن بعد أن أصبحت أكثر شبهًا بنفسك، دعني أرى ما إذا كان بإمكاني إجابتك على بعض الأسئلة التي تدور برأسك. سوف تتساءل بلا شك عن أباك وعمك، وكيف وصلت الأمور إلى ذلك فيما بينهم، ما دعا والدك إلى الذهاب إلى (إسندين) منذ البداية قبل ولادتك، التفسير الوحيد والصحيح الذي يجب أن أقدمه لك، أنه... وأخذ يتنحنح قليلًا ثم قال:

- بدأت المشاكل بعلاقة غرامية معقدة.

- حقًّا؟ لا يمكنني تقبل هذه الفكرة بالنسبة لعمي.

أجاب المحامي:

- لكن عمك يا سيد ديفيد لم يكن دائمًا كبيرًا في السن، وما قد يفاجئك أكثر أنه لم يكن قبيحًا أيضًا، بالعكس لقد كان شابًّا نبيلًا ووسيمًا في صباه، بل وكان شجاعًا إلى حدِّ التهور، فقد التحق عام ١٧١٥ بالثائرين على سلطة ملك الإنجليز، لكن أباك العاقل لحق به وأعاده إلى المنزل مرة أخرى قبل أن يتورط أكثر من ذلك، وقع الأخوان في حب صبية واحدة، وكان عمك الأصغر بينهم، قد عاش طفولة مدللة بعثت في نفسه الغرور، وقد ظن أنه من اليسير عليه أن يفوز بقلب الفتاة التي يحبها، ولكن الفتاة أحبت والدك واختارته، فأحس عمك بجرح كبير في قلبه، وشعر بأن كرامته طُعنت، صرخ وبكى ولجأ إلى الفراش وراحت الأسرة تبكي على حاله أيضًا، بعد ذلك امتطى جواده وراح يطوف في أنحاء البلد يروي قصته، ويزعم أن أخاه قد خدعه، قال رانكليور:

- والدك يا سيد ديفيد، كان رجلًا محترمًا لكنه كان ضعيفًا، طيب القلب للغاية، فعندما رأى عذاب أخيه، تخلى عن الفتاة التي أحبها، لكن الفتاة نفسها لم تكن تحب عمك إبينيزير، وقد أغضبها تصرف أبيك فأعرضت عن الأخوين معًا.

استكمل السيد رانكيلور حديثه بعد فترة توقف شرب خلالها كأسًا من البراندي وسكب القليل أمامي، أخبرني بعد ذلك أن نزاعًا طويلًا قد نشب بين الأخوين انتهى إلى اتفاق غريب لم يأخذا فيه برأي المحامي، وقضى الاتفاق بأن يتزوج والدي من الفتاة التي يحبها ويأخذ عمي إبينيزير القصر والأراضي.

كان نتيجة ذلك أن عاش أبي وأمي في فقر مدقع لسنوات وسنوات، بينما ظل عمي يشعر أنه مظلوم، ويزيده هذا الشعور مرارة وقسوة يومًا بعد يوم، أولئك الذين عرفوا القصة بأكملها عاملوه ببرود وتجاهل؛ وأولئك الذين لم يعرفوا وبمجرد رؤية أحدهم يختفي، والآخر ينفرد بالتركة، ظنوا أنه قتل أخيه وأخذوا يتناقلون الشائعات حتى يومنا هذا؛ وفي نهاية المطاف وجد نفسه مطرودًا من جميع الجهات، كان المال هو كل ما حصل عليه من صفقته؛ لقد كان أنانيًّا عندما كان صغيرًا وما زال أنانيًّا الآن حتي بعد أن تقدم في السن إلى هذا الحد.

قلت:

- حسنًا يا سيدي، بعد كل هذا، ما هو موقفي الآن؟

أجاب المحامي:

- التركة لك دون أدنى شك، لا يهم ما اتفق عليه والدك، أنت الوريث الشرعي لتلك الأموال في نظر القانون، إلا أن عمك لن يتخلى لك عن حقك بسهولة، كما أن صداقتك مع السيد (طومسون) لن تروق في عين السلطة، لو تمكنا من تأكيد عملية الاختطاف ستكون بطاقة رابحة إلى جانبنا، إذا تمكنا فقط من إثبات ذلك. لكن قد يكون من الصعب إثبات الأمر؛ ونصيحتي على العموم هي إجراء مفاوضة مباشرة وبسيطة معه، وهي أن تترك له قصر شو، حيث كان يعيش لمدة ربع قرن، وتكتفِي بتقسيم الأراضي فيما بينكم.

أخبرته أنني على استعداد تام لأن أكون متساهلًا معه في تلك المسألة، ولكن علينا أولًا أن نوقعه في فخ ما، وإلا فلن يتنازل لإعطائي نصيبي من الأرض أبدًا، علينا أن نجعله يعترف بذنبه أمام شهود.

دعينا إلى تناول العشاء بحضور السيدة رانكليور، التي سرعان ما تركتنا بمفردنا مع زجاجة النبيذ الفاخرة بعد العشاء، تناول المحامي قلمًا وورقة وأخذ يُفكر معي في الطريقة المثلى التي تجعل عمي يوافق على حقوقي دون اللجوء للقضاء، أعددت خطة للإيقاع بعمي، لكنها كانت تتطلب لقاء بين السيد رانكيلور و(آلان بريك)، وهو أمر لم يوافق عليه المحامي إلا بعد تردد شديد، بعد ذلك ضرب المحامي جرسًا فوق مكتبه فدخل كاتبه إلى الغرفة، قال له:

- تورانس! يجب أن أكتب هذا العقد الآن، وسوف يتم توقيعه هذه الليلة؛ حالما أنتهي من كتابته ارتدي قبعتك، وكن مستعدًا لمرافقتي أنا وهذا السيد، لأنك ربما تكون مطلوبًا كشاهد.

قرب الوقت الذي حددته مع آلان، انطلقنا من المنزل، السيد رانكيلور وأنا نسير جنبًا إلى جنب، وتَبِعَنَا تورانس والعقد في جيبه وسلة مغطاة في يده. كان المحامي ينحني يمينًا ويسارًا ليحيي الكثير من الناس بينما كان يسير بجواري، يستوقفه بعض السادة للاستفسار عن مسائل خاصة أو عن العمل؛ كان بإمكاني أن أرى أنه شخص يتطلع إليه بشدة في المقاطعة، أصبحنا بعيدًا من المنازل، وبدأنا في السير على جانب الساحل باتجاه فندق هاوس ورصيف العبّارات، هذا المشهد يجسد بداية محنتي، لم أتمكن من النظر إلى المكان دون أن تجتاحني عاطفة كئيبة، تذكرت عدد الذين كانوا معي في ذلك اليوم، والذي لم يعد لديهم وجود، رانسوم، وشون، والأرواح المسكينة التي استقرت مع العهد في

باطن الأرض، تذكرت وجوه كل هؤلاء، كما تذكرت السفينة نفسها، حيث عشت وتجاوزت العديد من الأزمات والمخاطر المخيفة.

من المفترض أن يكون شعوري الوحيد هو الامتنان؛ ومع ذلك فلم أستطع أن أتأمل هذا المكان دون حزن على الآخرين، وقشعريرة من الخوف تجتاح كياني.

كنت شاردًا أفكر في هذه الأحداث عندما صاح السيد رانكيلور فجأة وهو يصفق بيده على جيوبه كأنه يبحث عن شيء ما، ثم قال:

- لقد نسيت نظارتي!

بالطبع فهمت الغرض وراء هذه الحيلة، وعرفت أنه إذا ترك نظارته في المنزل فقد تم ذلك عن قصد، حتى يستفيد من مساعدة آلان دون التعرف عليه تمامًا، لنفترض أن الأمور سارت في أسوأ حالاتها فكيف يمكن أن يقسم رانكيلور على هوية صديقي، في النهاية رأيت أنها كانت فكرة جيدة إلى حدٍّ معقول، لا تصدر سوى من رجل متمرس.

صعدت التل وانا أصفِّر من وقت لآخر اللحن الذي علمه لي؛ كان من دواعي سروري أن أسمع الرد وأن أرى آلان ينهض من خلف الأدغال. لقد كانت معنوياته محطمة إلى حدٍّ ما بعد أن أمضى يومًا طويلًا بمفرده يتجول في المقاطعة، تناول وجبة سيئة في أحد المنازل القريبة، ولكن بمجرد رؤية ملابسي، بدأ وجهه يُشرق؛ وما أن أخبرته عن الوضع المتقدم لأمورنا والجزء الذي كنت أتطلع إليه ليلعبه حتى قفز وكأنه رجل جديد، ثم قال:

- إنها فكرة جيدة، ولن تستطيع أن تجد رجلًا أفضل من (آلان بريك) لينفذها، ليست شيئًا سهلًا يستطيع أي شخص تحقيقه، إنها تتطلب سيدًا ذا ذكاء غير عادي.

ثم استأنف قائلًا:

- أرى أن المحامي الخاص بك قلق إلى حد ما لرؤيتي.

وبناءً عليه، ناديت ولوحت للسيد رانكيلور، الذي جاء بمفرده فقدمته إلى صديقي السيد (طومسون).

قال مصافحًا آلان:

- السيد (طومسون)، يسعدني أن ألتقي بك، لكنني نسيت نظارتي وصديقنا السيد ديفيد هنا -وهو يربت على كتفي- يمكنه أن يخبرك بأنني أفضل قليلًا من الأعمى دون نظارتي، يجب ألا تتفاجأ إذا لم أتعرف عليك غدًا.

قال هذا معتقدًا أن آلان سيبتسم؛ لكن غرور رجل المرتفعات كان محتدمًا، فأسرع بالرد:

- لا تزعج نفسك بذلك يا سيدي -قالها بصلابة- أود أن أقول أن هذا ليس ذا أهمية كبيرة، لأننا نجتمع هنا من أجل غاية معينة، لنرى العدالة تتحقق إلى السيد بلفور، ليس إلا، لكنني أقبل اعتذارك الذي كان مناسبًا جدًّا لقوله.

سرنا نحن الأربعة إلى قصر شو، كانت الساعة العاشرة ليلًا عندما بلغناه، كان الجو مظلمًا ومعتدلًا، مع هبوب رياح لطيفة تأتي من الجنوب الغربي غطت صوت اقترابنا؛ عندما اقتربنا أكثر لم يكن هناك أي بصيص من الضوء في أي جزء من المبنى، توقعتُ أن عمي كان بالفعل في السرير، والذي كان أفضل شيء لترتيباتنا، تسللتُ أنا والمحامي وتورانس بهدوء واختبأنا خلف زاوية بالقرب من باب المنزل، وعندما استقررنا في أماكننا سار آلان نحو الباب وبدأ قرعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون

عدت إلى مملكتي

ظل آلان يطرق الباب لبعض الوقت، كان طرقه لا يؤدي إلى إحداث أي أصداء داخل المنزل، وأخيرًا تمكنت من سماع ضجيج خفيف، ثم تم دفع النافذة بلطف، عرفت أن عمي قد جاء إلى مرصده، استطاع فقط أن يرى ظل آلان على عتبة الباب نظرًا للظلام، أما نحن الشهود الثلاثة كنا بعيدين جدًّا عن رؤيته، قال أخيرًا بصوت مرتجف:

- ما هذا؟ ليس هذا وقتًا مناسبًا لإزعاج الناس.

تراجع آلان إلى الخلف ونظر إلى أعلى:

- أهذا أنت يا سيد بلفور؟ أحذر تلك البندقية، إنها أشياء خطيرة عندما تنفجر، ربما تؤذيك.

- مَن أنت؟ وماذا تريد؟

- ليس لدي أي رغبة في الهتاف باسمي هنا في هذا المكان، ولكني أستطيع أن أخبرك عن غرضي من الزيارة بكلمة واحدة: «ديفيد».

صرخ عمي بصوت مذهول:

- ماذا قلت؟

- هل تريدني أن أخبرك بباقي الاسم؟

ساد صمت لبضع ثوانٍ ثم قطعه عمي قائلًا:

- ربما من الأفضل أن أدعك تدخل.

- هل تظن ذلك؟ ولكن السؤال هو، هل سأقبل أنا بالدخول فعلًا؟ أعتقد أن هذه العتبة هي المكان الأمثل للحديث معك.

فوجئ عمي بذلك التغيير في الحديث، ولكنه أخيرًا أغلق النافذة، و استغرق وقتًا طويلًا لنزول الدرج، ووقتًا أطول لفك سلاسل الباب الحديدية، وأخيرًا سمعنا صرير المفصلات، قال وهو يخرج ببطء ويجلس على عتبة الباب:

- ضع في اعتبارك لدي بندقية في يدي، ولو اتخذت خطوة أقرب ستكون في عداد الأموات.

قال آلان:

- لا تخف، سأخبرك بغرضي سريعًا، أنت إنسان سريع الفهم، ستدرك بلا شك أنني من الأراضي المرتفعة، كنت أزور أصدقائي في مقاطعة ليست بعيدة جدًّا عن جزيرة مل، في تلك الأثناء كانت هناك سفينة محطمة، ذهب رجل نبيل من عائلتي يبحث في حطام السفينة من أجل الحصول على

بعض الخشب لإشعال النيران، حيث عثر فوق الرمال على فتي كان نصف غريق، تم أخذه إلى قلعة قديمة، و ما زال محتجزًا إلى يومنا هذا، إن قومي شرسون قليلًا يا سيد بلفور، عندما علموا أن الفتي هو ابن أخيك، أرسلوني إلى هنا لكي أتشاور معك، أستطيع أن أبلغك الآن إن لم توافق على دفع مبلغ من المال، فلن تتمكن من رؤية الفتي بعد الآن، ثم أضاف آلان في نبرة منخفضة بعد أن مال على عمي قليلًا: لأن أصدقائي هؤلاء ليسوا ميسوري الحال مثلك.

أخذ عمي يسعل ثم حك رأسه قائلًا:

- لا يهمني ذلك، لم يكن فتي صالحًا، ولا أستطيع مساعدته على أي حال.

آه، أنا أعرف هذه الحيلة، تتصنع بأنك غير مهتم لتقليل الفدية.

- لن أدفع فلسًا واحدًا حتى لو صنعتم منه طحينًا.

- كيف هذا؟ الدم لن يصبح ماءً أبدًا يا رجل! لا يمكنك أن تتخلى عن ابن أخيك، لو فعلت ذلك وعرف الناس فسيكون عارًا عليك، ولن تبقى محبوبًا.

- لست محبوبًا في كل الأحوال، كما أن لا أحد سيعلم بالأمر.

- إلا ديفيد شخصيًّا، فهو وحده سيعلم بذلك، يبدو أن أصدقائي أكثر ذكاءً منك، لقد رأوا أن هناك حالتين للقيام بهذا العمل، إما أنك تحب ديفيد كفاية لتدفع وتسترجعه، وإما لديك أسباب وجيهة لعدم رغبتك في استرجاعه، فتدفع مقابل الاحتفاظ به هناك، في أي حالة من الحالتين ستدفع بالتأكيد.

لم يَجِر عمي جوابًا، ولكنه تملل في مقعده، عندئذ صاح آلان:

- هيا يا سيدي، ينبغي أن أنبهك أنني سيد نبيل، أحمل اسم ملك في لقبي، ليس لدي وقت لأهدره معك، أنت لا تريد استرجاع الفتي أليس كذلك؟ حسنًا أخبرني الآن عما تنوي فعله وإلا سينقلب هذا الزناد إلى صدرك الآن؟

نهض عمي يصيح:

- أوه، ماذا بك يا سيد؟ ليست هذه بالطريقة المثلى للحديث؟

- أجبني بكلمتين ليس إلا، أتريده أن يُقتل أم أن نحافظ عليه؟

- ابقيه، ابقيه!

- حسنًا إذن مع أنك لا تجيد التفكير يا سيدي، فالقتل أسهل وأقل ثمنًا وأسرع، لكن الاحتفاظ به سيكون عملًا شاقًّا.

تردد عمي لبعض الوقت ثم قال:

- أنا رجل شريف، فلتحافظوا عليه حتى لو اضطررت أن أدفع، لا أريد تلويث يدي بالدماء، هل نسيت أنه ابن أخي؟

- حسنًا إذن، والآن لنتحدث عن المبلغ، كم دفعت إلى هوسيزون في المرة الأولى؟

- مقابل ماذا؟

- مقابل خطف ديفيد.

صاح عمي:

- كذب، من قال لك هذا إنما هو كاذب ماكر، لم يكن ديفيد مخطوفًا أبدًا؟

- لا تتفعل إلى هذا الحد، إنه ليس خطؤك، هوسيزون وأنا كنا شريكين أيها العجوز الأبله، لقد أخبرني بنفسه عن ذلك، فهو رجل لا يمكنك الوثوق به، عليك الاعتراف بأنك عقدت صفقة حمقاء عندما سمحت لبحار مثله أن يتدخل في الأمور الخاصة بك، والنقطة الهامة الآن، كم دفعت له؟

- الحقيقة إنني دفعت له عشرون جنيهًا نقدًا، ولكنك تعلم جيدًا أنه كان ينوي بيع الفتي في كارولينا ويكسب بذلك أضعاف هذا المبلغ أيضًا.

- شكرًا لك سيد (طومسون)، هذا كل ما نحتاج سماعه. صاح السيد رانكيلور بصوت مرتفع ثم أردف بتهذيب بالغ:

- مساء الخير سيد بلفور.

وقلت أنا:

- مساء الخير يا عمي إبينيزر.

وأضاف تورانس:

- إنه شخص قاسٍ هذا السيد بلفور، ولكنها ليلة دافئة حقًّا، هيا ندخل.

لم يقل عمي كلمة واحدة، لا أسود ولا أبيض، جلس فقط حيث كان على عتبة الباب العلوي، وحدق إلينا كرجل تحول إلى حجر. قام آلان بإبعاد بندقيته. وأخذ المحامي ذراعه واقتاده من عتبة الباب إلى المطبخ حيث تبعناه جميعًا، ووضعناه على كرسي بجانب الموقد، حيث انطفأت النار، نظرنا إليه جميعًا لفترة من الوقت، مبتهجين للغاية من نجاحنا، ولكن انتابنا نوع من الشفقة على العار الذي لحق بهذا الرجل البائس.

قال المحامي:

- هيا يا سيد إبينيزر، ليس عليك أن تكن حزينًا، أعدك بأننا سوف نجعل ذلك أمرًا يسيرًا، وفي أثناء ذلك عليك إعطاؤنا مفتاح القبو، وتورانس سوف يجلب لنا زجاجة من نبيذ والدك تكريمًا لهذا الحدث، ثم التفتَ إليّ وأخذ بيدي قائلًا:

- سيد ديفيد أتمنى لك كل السعادة والاستمتاع بثروتك الضخمة، الذي أعتقد أنك جدير بهما.

ثم إلى آلان بنبرة مبتهجة:

- سيد (طومسون)، أنا أثني عليك، لقد أتممت دورك بمهارة فائقة.

شكرت السيد رانكيلور بحرارة لكن بالنسبة لآلان، الذي كان حليفي وسبب نجاحي الرئيسي، فأعطيته عناقًا حارًّا، وسرعان ما أضرمت النار وجلسنا لتناول عشاء فاخر من السلة التي جلبها تورانس معه، بعدها دلف المحامي وعمي إلى الغرفة المجاورة للتشاور، مكثوا هناك حوالي ساعة؛ في نهاية تلك الفترة توصلوا إلى تفاهم جيد فيما بينهم، وبناء عليه تصافحت مع عمي بعد موافقتي على الاتفاق بشكل رسمي، التزم عمي بنفسه على دفع ثلثي الدخل السنوي لممتلكات وأراضي عائلة شو.

وبذلك عاد المتسول إلى المنزل مرة أخرى، وعندما استلقيتُ في تلك الليلة بجانب خزائن المطبخ كنتُ رجلًا نبيلًا له اسم في البلد، آلان وتورانس كانا يغطان في نوم عميق فوق أسرّتهم الصلبة؛ لكن بالنسبة لي، أنا الذي اعتدت على النوم تحت السماء وعلى التراب والحجارة لأيام وليالٍ كثيرة، وغالبًا مع بطن فارغة وخوف من الموت، فقد جفاني النوم طوال الليل، بقيت حتى الفجر أحدق في النار المتكاسلة، وأفكر في المستقبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

الختام

بقدر ما كنت أشعر بالراحة لعودتي إلى الديار سالمًا مرة أخرى، لكني كنتُ قلقًا بشأن آلان، الذي كنت مدينًا له كثيرًا، وشعرت بالعبء الثقيل الذي يحمله في مسألة القتل وجيمس ستيوارت. تحدثت إلى رانكيلور في صباح اليوم التالي حوالي الساعة السادسة صباحًا أمام قصر شو، ونحن نقطع الأرض جَيْئَة وذَهابًا، الحقول والغابات التي كانت لأجدادي وأصبحت الآن لي. حتى عندما تحدثت عن هذه الموضوعات الخطيرة كان قلبي يقفز بفخر واعتزاز لرؤية أملاكي من حولي؛ أما فيما يتعلق بواجبي الواضح تجاه صديقي، لم يكن لدى المحامي شك بأنني يجب أن أساعده على الخروج من المقاطعة مهما كانت المخاطر؛ أمدني ببعض المال اللازم من أجل سفر صديقي، وعندئذ عاد إلى المنزل في حالة من الحماس الشديد، وهناك كتب لي رسالتين، وأرفق توقيعه فوقهما ثم قال:

- هذا عنوان بنك لينين البريطاني[95]، البنك الذي أتعامل معه، سأضع حسابًا باسمك لتستطيع القيام بما هو ضروري من أجل ثروتك، استشر السيد (طومسون)، سوف يعرف الطريق؛ نصيحتي لك يا ديفيد ليس هناك أفضل من أن تبحث عن محامٍ خاص ومميز جدًّا، وتخبره بكل شيء عن تلك الجريمة، لا بد أن تطهر اسمك من الشبهات، وتقدَّم الشهادة كاملة كما رأيتها، أما هذه الرسالة الثانية فإنها رسالة توصية مني إلى محامٍ سيهتم بك جيدًا، ستجد اسمه ومكانه في هذه الورقة. كن حذرًا؛ وليكن الرب معك دائمًا.

وعندها تودعنا وانطلق مع تورانس من أجل ركوب العبارة، بينما أدرنا أنا وآلان وجوهنا صوب مدينة إدنبرة، لم تكن لدينا أي فكرة عن متى سنلتقي ثانية، تحدثنا عما سأقوله للمحامي، وكيف يمكنه العثور على سفينة تنقله إلى فرنسا، مازحته باسم (طومسون) ومازحني بشأن ملابسي الجديدة وثروتي، لكننا طوال الوقت كنا أقرب للدموع منا إلى الضحك.

وصلنا إلى تل كورستورفين[96]، توقف كلانا دون أن ننبس ببنت شفة، قال إننا وصلنا إلى مفترق الطرق، أعطته جنيهًا أو اثنين مما أخذتهم من السيد رانكيلور حتى يستطيع استكمال مسيرته، نظرنا إلى إدنبرة في صمت.

قال آلان وهو يمد لي يده اليسرى:

- حسنًا، إلى اللقاء.

- وداعًا (آلان بريك).

قلت وأنا أشد على يده قليلًا، ثم انطلقت إلى أسفل التل، لم ينظر أحد منا إلى الآخر في وجهه، ولم ألق نظرة واحدة إلى الخلف على الصديق الذي كنت أغادره، لكن بينما كنت في طريقي إلى المدينة، شعرت بالضياع والوحدة تمزق قلبي، جلست بجانب السد أبكي وأبكي مثل طفل صغير، بدأت أتجول في شوارع العاصمة، مررت بجوار الكنيسة الشرقية، ولاحظت الارتفاع الهائل للمباني، الذي قد

يصل ارتفاعه إلى عشرة وخمسة عشر طابقًا، المحلات والبضائع المختلفة، ضجيج الازدحام، والروائح المختلطة والملابس الجميلة، أصابني نوع من الذهول حتى إنني تركت الحشد يحملني جيئة وذهابًا.

حتى جلبتني يد العناية الإلهية وسط هذا الانجراف السريع أمام أبواب بنك لينين البريطاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

المخطوف..

مقدمة

الفصل الأول

بداية رحلتي إلى منزل عائلة شو

الفصل الثاني

نهاية سفري وبلوغ مقصدي

الفصل الثالث

لحظة تعارُفي على عمي

الفصل الرابع

خطر عظيم يواجهني داخل قصر شو

الفصل الخامس

عندما ذهبت إلى كوينزفيري()

الفصل السادس

أحداث كوينزفيري

الفصل السابع

بداية رحلتي البحرية على متن سفينة العهد

الفصل الثامن

القمرة المستديرة

الفصل التاسع

صاحب حزام الذهب

الفصل العاشر

حصار القمرة المستديرة

الفصل الحادي عشر

القبطان يستسلم

الفصل الثاني عشر

الثعلب الأحمر

الفصل الثالث عشر

تحطُّم السفينة

الفصل الرابع عشر

الجزيرة

الفصل الخامس عشر
الفتى ذو الزر الفضي داخل جزيرة مِلّ
الفصل السادس عشر
الفتى ذو الزر الفضي في جزيرة مورفن()
الفصل السابع عشر
موت الثعلب الأحمر
الفصل الثامن عشر
لقائي مع آلان في غابة ليترمور
الفصل التاسع عشر
منزل الخوف
الفصل العشرون
رحلة الصحراء: الصخور
الفصل الحادي والعشرون
رحلة الصحراء: هيوكوريناكيغ
الفصل الثاني والعشرون
الرحلة الصحراء: أرض المستنقعات
الفصل الثالث والعشرون
قفص كلاني
الفصل الرابع والعشرون
رحلة الصحراء: الخلاف
الفصل الخامس والعشرون
في بلكهيدر ()
الفصل السادس والعشرون
نهاية الرحلة: عبورنا نهر فورث
الفصل السابع والعشرون
عندما ذهبت إلى السيد رانكيلور
الفصل الثامن والعشرون
في الطريق للمطالبة بميراثي
الفصل التاسع والعشرون
عدت إلى مملكتي
الفصل الثلاثون
الختام

Notes

[←1]

(1) كان ويليام إرنست هينلي: شاعرًا وكاتبًا وناقدًا ومحررًا بريطانيًّا في أواخر العصر الفيكتوري بإنجلترا. على الرغم من أنه كتب العديد من الكتب الشعرية؛ فإنه غالبًا ما يتم تذكر هينلي بسبب قصيدته (إنفيكتوس) عام ١٨٧٥. وكان أيضًا مصدر إلهام لشخصية روبرت لويس ستيفنسون لونغ جون سيلفر من جزيرة الكنز، بينما ألهمت ابنته الصغيرة مارجريت هينلي اختيار لاسم ويندي بطلة مسرحيته بيتر بان (١٩٠٤).

(2) هي مدينة في مقاطعة دورست، في إنجلترا. [←2]

(3) المحكمة الجنائية المركزية في إنجلترا. [←3]

[←4]

(4) قرية دورور في أبين قرية ساحلية صغيرة بعيدة تقع في قاعدة غلين دورور، في منطقة أبين، في المرتفعات الغربية الأسكتلندية.

[←5]

(5) كولين كامبل غلينور.

[←6]

(6) الشحرور أو الزرياب أي الطائر الأسود الشائع، ويطلق عليه كذلك الطائر الأسود الأوراسي، خاصةً في البلدان التي لا ينتشر فيها طائر أسود غيره، يعيش ويتكاثر في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كذلك جرى استقدامه إلى أستراليا ونيوزيلندا.

[←7]

(7) الليلك: نوع نباتي ينتمي إلى جنس الليلك من الفصيلة الزيتونية، ينمو طبيعيًّا في البلقان، حيث ينمو على التلال الصخرية، يُستخدم هذا النوع على نطاقٍ واسع كشجرة تزينية، وقد توطّن في العديد من المناطق الأوروبية.

(8) هي قرية صغيرة وأبرشية مدنية في أسكتلندا. [←8]

[←9]

(9) مملكة المجر هي مملكة غطت منطقة من شرق أوروبا، وضمت المناطق الحالية للمجر وسلوفاكيا وترانسيلفانيا وكرواتيا وشمال صربيا، وأصبحت إمبراطورية يوم عيد الميلاد لسنة ١٠٠٠، اتبعت مملكة المجر النظام الملكي، وقامت في وسط أوروبا في فترة العصور الوسطى حتى القرن العشرين.

[←10]

(10) جزيرة كراموند هي واحدة من عدة جزر في نهر فورث في شرق أسكتلندا، بالقرب من إدنبرة.

[←11]

(11) هي قريةٍ صغيرة، وأبرشية مدنية في منطقة الحدود الأسكتلندية، وهي تقع على بُعد حوالي ١٧ ميلًا (٢٨ كم) جنوب غرب مدينة سيلكيرك.

[←12]

(12) البتولا هي نوع من الأشجار يظهر في نصف الكرة الشمالي وحتى أقصى نقطة جنوبًا، وينتشر في أمريكا الجنوبية، وأنواعها كثيرة جدًّا، وتتميز البتولا بأزهارها الذكرية والأنثوية التي تتخذ شكل عناقيد كثيفة.

[←13]
(13) الشلن عملة تاريخية، واسم وحدة من العملات الحديثة التي كانت تستخدم سابقًا في المملكة المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا ودول الكومنولث البريطانية الأخرى.

[←14]

(14) زنبق الوادي هو نبات عشبي صغير، طوله حوالي ١٠-٣٠ سم، ذو جذمور بيضاوي الشكل ومتشعب، تنشأ منه في أوائل فصل الربيع ورقتان بيضاويتا الشكل كبيرتان ومتقابلتان.

[←15]

(15) الخَلَنْج: شجيرات تشتهر بها مناطق أرض الخلنج، وهي تنمو في الأساس في أوروبا، ولكنها تنمو أيضًا في أمريكا الشمالية، حيث تم إدخالها هناك أيضًا، ويطلق على شجيرات الخلنج أيضًا اسم الخلنج أو الخلنج الأسكتلندي، ونبات الخلنج له أوراق صغيرة، وخشنة ذات أزهار لونها أرجواني أو أبيض، وهذه الأزهار تجذب النحل، ولذلك فإن عسله ذا نكهة مميزة.

[←16]

(16) شجرة السمن أو غبيراء الحابلين، هي شجرة من فصيلة الوردية برية أو زراعية، يبلغ ارتفاعها ١٦-٢١ مترًا، أوراقها خملية، أزهارها ذات رائحة كريهة، ثلاثية أو رباعية البتلات، وثمارها أرجوانية كروية يبلغ قطرها ١٠ ملم.

[←17]

(17) كيركيلاند هي أكبر مقبرة في إدنبرة، تقع في الطرف الجنوبي من المدينة القديمة، بجوار مدرسة جورج هيريوت، تم الدفن بها منذ أواخر القرن السادس عشر، وتم دفن عدد من سكان إدنبرة البارزين بداخلها.

(18) كولينتون هي إحدى ضواحي إدنبرة، أسكتلندا. [←18]

[←19]

(19) ، هي أكبر مدن أسكتلندا، وثالث أكبر مدن المملكة المتحدة.

[←20]

(20) غرينادير أو رماة القنابل. كان في الأصل جندي متخصص، تم تأسيسه أولًا كدور متميز في منتصف القرن السابع عشر وحتى أواخر القرن السابع عشر، من أجل إلقاء القنابل اليدوية والعمليات الهجومية في بعض الأحيان، في ذلك الوقت تم اختيار رماة القنابل من أقوى وأكبر الجنود.

[←21]

(21) كناية عن أعمال السحر.

[←22]

(22) الزعرور: جنس نباتي يتبع الفصيلة الوردية، أوراقها خضراء اللون، مفصصة وحوافها ناعمة، متقابلة، الساق خشبي ذات جذع قوي، ويصل ارتفاعه إلى ٦ أمتار.

[←23]

(23) كوينزفيري هي قرية في فايف، أسكتلندا، وتقع على نهر فيرث أوف فورث.

[←24]

(24) القَطلَس سيف قصير ثقيل مقوس يستخدمه البحارة.

[←25]

(25) فيرث أوف فورث: هو مصب فيرث للعديد من الأنهار الأسكتلندية بما في ذلك نهر فورث.

[←26]

(26) هو شجرة شوكية تنتمي إلى العائلة الوردية، أوراقها خضراء اللون، مفصصة، وحوافها ناعمة، متقابلة، الساق خشبي ذات جذع قوي، ويصل ارتفاعه إلى ٦ أمتار، وطنه فلسطين، يتواجد في المناطق الجبلية، مثل جبال نابلس، وجبال القدس، ومنطقة وادي الأردن. وهي غير مهددة. شجرة الزعرور معمرة، وقد تصل دورة حياتها لمئات السنين، استخدمها الإغريقيون لصناعة تيجان العرائس.

[←27]

(27) كارولاينا إحدى الولايات الأمريكية تقع على شاطئ المحيط الأطلسي في شرق البلاد.

[←28]

(28) هي مدينة سابقة وبرج ملكي يقع على الساحل الجنوبي الشرقي بين كيركالدي وويست ويميس في فايف.

[←29]

(29) الزرزوريات هي طيور صغيرة إلى متوسطة الحجم، يوجد الزرزور بشكل طبيعي في العالم القديم أوروبا وآسيا وأفريقيا.

[←30]

(30) هي جزر تقع قبالة الساحل الشمالي لأسكتلندا، تتكون من مجموعة من ٦٧ جزيرة، والعديد من الجزر الصغيرة، وهناك حوالي ٢١ جزيرة منها آهلة بالسكان.

[←31]

(31) ليث، ميناء في أدنبرة، يقع شمال وسط المدينة على الشاطئ الجنوبي لفورث، جنوب شرق أسكتلندا.

[←32]

(32) حركة اليعاقبة: كانت حركة سياسية في بريطانيا العظمى وأيرلندا تهدف إلى إرجاع الملك الكاثوليكي المخلوع جيمس الثاني من أسرة ستيوارت وورثته إلى عرش إنجلترا وأسكتلندا وأيرلندا.

[←33]

(33) البروتستانتية هي أحد مذاهب وأشكال الإيمان في الدين المسيحي، تعود أصول المذهب إلى الحركة الإصلاحية التي قامت في القرن السادس عشر، هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الغربية، وهي اليوم واحدة من الانقسامات الرئيسية في العالم المسيحي جنبًا إلى جنب الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية.

[←34]

(34) تمرّد اليعاقبة عام ١٧٤٥: هو محاولة من تشارلز إدوارد ستيوارت لاستعادة سلطة والده جيمس فرانسيس إدوارد ستيوارت على العرش البريطاني، حدث التمرد في أثناء حرب الخلافة النمساوية، عندما انشغل معظم الجيش البريطاني بالقتال في البر الرئيس لأوروبا، وتبين أن هذا التمرد هو الأخير في سلسلة من الثورات التي بدأت في عام ١٦٨٩، بدأ تشارلز التمرد في ١٩ أغسطس ١٧٤٥ من غلينفينان ضمن المرتفعات الأسكتلندية، مستوليًا على إدنبرة ومنتصرًا في معركة بريستونبان في سبتمبر. وافق الأسكتلنديون في أحد مجالس أكتوبر، على غزو إنجلترا بعد ضمان تشارلز الحصول على دعم كبير من اليعاقبة الإنجليز، بالإضافة إلى تزامن هذا الدعم مع إنزال فرنسي في جنوب إنجلترا.

[←35]

(35) عملة معدنية تم سكها وتداولها في بريطانيا العظمي منذ عام ١٦٦٣ إلى عام ١٨١٤، نصفها مصنوع من الذهب الخالص، جاء الاسم من منطقة غينيا في غرب أفريقيا، حيث تم الحصول على الكثير من الذهب المستخدم في صنع العملات المعدنية، وهي أول عملة مصقولة آليًّا وتساوي جنيهًا إسترلينيًّا واحدًا.

[←36]
(36) لوخ نيس: بحيرة كبيرة للماء العذب تقع في منطقة الجبال الأسكتلندية، تقع البحيرة جنوب غرب مدينة انفرنس.)

[←37]
(37) هي أرخبيل واسع النطاق ومتنوع قبالة الساحل الغربي من البر الرئيسي لأسكتلندا، وتتكون من مجموعتين رئيسيتين هما: جزر هبريدس الداخلية، وجزر هبرديس الخارجية.

[←38]

(38) جزيرة سكاي هي أكبر الجزر الداخلية لمنطقة أسكتلندا شمال بريطانيا، ورابع أكبر الجزر البريطانية، وسط الجزيرة هو منطقة جبلية تملؤها المنحدرات الصخريَّة، وتتشعَّب منها بضعة شبه جزرٍ تنتشر في مختلف الاتّجاهات.

[←39]

(39) هي إحدى الجزر الصغيرة لجبال هبريدس الداخلية، في مقاطعة لوخابير في أسكتلندا.

[←40]

(40) هو ملك الفرنجة وحاكم إمبراطوريتهم، وهو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

[←41]

(41) ردامورتشان هي شبه جزيرة مساحتها ٥٠ ميلًا مربعًا في منطقة لوخابر، هايلاند، أسكتلندا، وتشتهر بأنها غير ملوثة وهادئة.

[←42]

(42) سفينة حربية كبيرة أخذت دورها العسكري منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الباردة وهي أكبر من المدمرة لكن أصغر من البارجة، وفي الوقت الحاضر استبدلت الطرادات بالمدمرات للقيام بذات المهام الحربية.

[←43]

(43) هي الجزيرة الأكثر غربية في هبريدس الداخلية في أسكتلندا، تعتبر أرضها خصبة للغاية للزراعة، إلى جانب السياحة، وصيد الأسماك فهما المصادر الرئيسية للدخل بالنسبة لسكان الجزر.

[←44]

(44) الكتيبة السوداء: الكتيبة الثالثة، الفوج الملكي الأسكتلندي هي كتيبة مشاة تابعة للفوج الملكي الأسكتلندي.

[←45]
(45) الأمير وليام أوغسطس، دوق كمبرلاند، كان الابن الثالث والأصغر للملك جورج الثاني ملك بريطانيا العظمى وأيرلندا وزوجته كارولين.

[←46]

(46) هي منطقة ساحلية في المرتفعات الغربية الأسكتلندية.

[←47]

(47) معركة كلودين كانت المواجهة النهائية في ثورة اليعاقبة، وجزء من حرب أهلية دينية في بريطانيا في ١٦ أبريل ١٧٤٦، هزمت قوات اليعاقبة بقيادة تشارلز إدوارد ستيوارت بشكل حاسم من قبل القوات الموالية للتاج البريطاني بقيادة ويليام أغسطس دوق كمبرلاند قرب إنفرنيس في المرتفعات الأسكتلندية. التقي الجيشان المتحاربان في كلودن، في منطقة منحت الغَلَبة لقوات كمبرلاند المتفوقة عدديًا والتي نالت قسطًا كافيًا من الراحة قبل المعركة. استغرقت المعركة ساعة واحدة فقط، تمخضت عن هزيمة نكراء دامية لليعاقبة، وعلى الرغم من بقاء ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ من اليعاقبة مسلحين في أسكتلندا، فقد اتخذت قيادتهم قرار حل القوات، فنجم عن ذلك انتهاء الانتفاضة فعليًّا.

[←48]

(48) الطرطان: نوع من القماش الصوفي الطويل الذي ابتدعه الأسكتلنديون.يشتمل تصميم الطرطان على خطوط ذات عرض متنوع وذات ألوان مختلفة. تتقاطع الخطوط وفقًا لزوايا قائمة على خلفية من الألوان الثابتة. وللقبائل الأسكتلندية، وبالذات تلك التي تعيش في المرتفعات، أزياؤها المصنوعة من نوع خاص من الطرطان، كما أن كتائب الجيش تستخدم الطرطان أيضًا. أصبحت كلمة الطرطان في الولايات المتحدة تشمل، الأقمشة والملابس المصنوعة وفقًا لتصميمات الطرطان.

[←49]

(49) الحزب اليميني كان فصيلًا سياسيًا ثم أصبح حزبًا سياسيًا في البرلمان الأسكتلندي، ثم في البرلمان الإنجليزي، وبعده برلمان بريطانيا العظمى وبعدها المملكة المتحدة كان يقف في جنب الملك والذي كان بدوره يدعم من قبل الكنيسة.

[←50]

(50) آلة مزمار القرب: هي آلة هوائية تعزف عن طريق النفخ بداخل كيس جلدي واسع يخزن الهواء وينقله إلى أنبوب خشبي ذو ٩ ثقوب ليتم إنتاج نغمة من فتح وأقفال الثقوب عن طريق الأصابع. يربط مزمار القربة ثقافيا عادة بأسكتلندا، رغم عزف واستعمال الآلة لأغراض كشفية وثقافية في مختلف أنحاء العالم، تشتهر القربة عالميا في بلدها الأصل أسكتلندا.

[←51]
(51) هي ثاني أكبر جزيرة من جزر هبريدس الداخلية بعد سكاي، وتقع قبالة الساحل الغربي لأسكتلندنا.

[←52]

(52) بن مور هو أعلى جبل في جزيرة مل بأسكتلندا، إنها أيضًا أعلى قمة في الجزر الأسكتلندية باستثناء تلك الموجودة على جزيرة سكاي. يقع الجبل بالقرب من وسط الجزيرة، فوق شواطئ بحيرة لوخ نا كيل.

[←53]

(53) مجموعة من الصخور الكبيرة تقع بين جزيرتي مل وكولونساي في أسكتلندا.

[←54]
(54) هي جزيرة تبلغ مساحتها حوالي ميل واحد، وتقع في هبريدس الداخلية في أسكتلندا. تقع غرب مل وجنوب شرق إيونا.

[←55]

(55) معدن الميكا اسم لمجموعة من المعادن تحتوي على ذرات الألومنيوم والأكسجين والسليكون المرتبطة معًا في شكل رقائق منتظمة، وقد تكون الميكا غير ملونة أو قد تكسوها ظلال من اللون الأسود أو البنّي أو الأخضر أو البنفسجي.

[←56]

(56) البَطْلِينوس: هو حيوان لافقاري ينتمي إلى الرخويات، يتميز بصدفته القمعية أو المخروطية الشكل، يثبت البطلينوس نفسه بقوة على أسطح الصخور بالقرب من المسطحات المائية مثل البحار بواسطة قدمه وشفاطته القويتان، وفي بعض الأحيان لا يتحرك من مكانه، كما أنه يترك أثرًا مخاطيًا وراءه عند الحركة والبحث عن الغذاء ليستدل بذلك على موقعه السابق.

[←57]

(57) الونكة: هي نوع من الرخويات تتبع جنس الونكة من فصيلة الونكات، وهي من الحلازين المائية الصالحة للأكل، والتي تنتشر في السواحل الشمالية الشرقية والشمالية الغربية من المحيط الأطلسي، تعيش الونكة في السواحل الصخرية والبرك الصغيرة.

[←58]

(58) أيونا: هي جزيرة صغيرة في هبرديس الداخلية قبالة مجموعة جزر مل على الساحل الغربي لأسكتلندا، وكانت مركز الرهبنة الغيلية لمدة أربعة قرون، واليوم تشتهر بالهدوء والجمال الطبيعي. وهي مقصد سياحي شهير، ومكان معروف لممارسة الرياضة الروحية.

[←59]

(59) هو الحيوان الوحيد الذي له عظام على رأسه تسمى القرون المتساقطة، تختلف هذه القرون عن القرون الدائمة التي تتكون من طبقات صلبة قوية من الجلد ذات لُب عَظمي، وهو من أكثر الثدييات الأرضية الكبيرة انتشارًا، كما أنه مشهور بقدرته على العدو. والأيل الأحمر هو أحد أضخم أنواع الأيائل والذي يستوطن معظم أوروبا، وجبال القوقاز، وآسيا الصغرى.

[←60]

(60) مثل فرنسي قديم يدل على محاولة منع أو تصحيح مشكلة بعد حدوث الضرر بالفعل.

[←61]

(61) هي لغة كلتية يعود أصلها إلى أسكتلندا، تعد واحدة من اللغات الجودية مثل الأيرلندية الحديثة والمنكية، واللغة مشتقة من الإيرلندية القديمة.

[←62]

(62) هو نمط من الأحذية ذات الكعب المنخفض أو الحذاء الذي يتميز تقليديًّا بأجزاء من الجلد المتين متعدد القطع مع ثقوب مزخرفة.

[←63]

(63) وهو جزء تقليدي من ثوب ذكر الأسكتلندي، كيسًا يؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها جيوب التنورة دون جيب. مصنوعة من الجلد أو الفراء، يكون له حزام أو سلسلة من الجلد، ويتم وضعه بشكل تقليدي أمام الفخذ.

[←64]

(64) هي شبه جزيرة تقع في الساحل الغربي لأسكتلندا.

[←65]

(65) قلعة كلينوشالين هي عبارة عن برج أسكتلندي من القرن الخامس عشر يقع في جزيرة مورفن في منطقة المرتفعات إقامة وسكنة عشيرة ماكلين.

[←66]

(66) عشيرة ماكلين هي عشيرة أسكتلندية في المرتفعات، إنها واحدة من أقدم العشائر في المرتفعات، وتمتلك مساحات شاسعة من الأراضي في أرجيل، بالإضافة إلى هبرديس الداخلية، اشتهر العديد من أبناء ماكلين بشرفهم وقوتهم وشجاعتهم في المعركة.

[←67]

(67) هي بحيرة صغيرة غير منتظمة الشكل للمياه العذبة في غابة روثيمورشوس على بعد حوالي ٥ كم جنوب أسكتلندا في منتزه كيرنجورمس الوطني، تأتي بحيرة لوخ آن إيلين من الغيلية الأسكتلندية وتعني (بحيرة الجزيرة). تُعَد البحيرة جميلة والمشي حولها يحظى بشعبية واسعة للاسترخاء والمناظر الطبيعية الموجودة حولها.

[←68]

(68) سبوران حقيبة الخصر، في أغلب الأحيان جلد، تلبس على الحزام، على الحزام النقبة أو على حزام أو سلسلة ضيقة منفصلة. تاريخيًّا، كانت تستخدم لتخزين جميع أنواع الأشياء الصغيرة أو كمحفظة للمال.

[←69]

(69) هي منطقة من المرتفعات الأسكتلندية على الشاطئ الغربي لبحيرة لينهي، تقع شمال منطقة مورفن وشرق مقاطعة سونرت.

[←70]

(70) كوران هي قرية صيد سابقة، تقع على الجانب الغربي من بحيرة لينهي.

[←71]

(71) هي جزيرة نائية تقع قبالة الساحل الغربي لأسكتلندا، على بعد ١٢ ميلًا (١٩ كيلومترًا) جنوب غرب جزيرة تيري.

[←72]

(72) زَبَد البحر أو رغوة البحر أو رغوة المحيط ظاهرة تحدث في جميع البحار نتيجة امتزاج شديد لما تحمله مياه البحر من شوائب ومواد عضوية وأملاح ونباتات ميتة وأسماك متعفنة، مما يؤدي لتشكل رغوة خفيفة جدًا، ولكنها تمتد أحيانًا لمسافة خمسين كيلو مترًا.

[←73]

(73) وقعت مجزرة غلينكو في مرتفعات أسكتلندا في ١٣ فبراير ١٦٩٢. قُتل خلالها أكثر من ٣٠ شخصًا من أعضاء عشيرة غلينكو ماكدونالدز على يد قوات الحكومة الأسكتلندية، بحجة عدم ولائهم للملوك الجدد، ويليام الثاني وويليام الثالث وماري الثانية.

[←74]

(74) هي شعيبة من النباتات تتبع شعبة الحقيقات الأوراق، تنمو في الأوساط الرطبة، وتتميز بجهاز إنباتي جد متفرق يتضمن جذورًا وساقًا وتتوفر على أوعية ناقلة للنسغ.

[←75]

(75) القديس لورانس روما: ويلقب بـ(حامل إكليل الغار)، كان واحدًا من الشماسين السبعة في روما القديمة الذين كانوا يعملون تحت إمرة البابا سيكتوس الثاني، والذي قُتِل في أثناء فترة اضطهاد الإمبراطور فاليريان للمسيحيين في عام ٢٥٨، وكانت التقاليد تقضي بأن يتم حرق لورانس أو (شويه) حتى الموت، على المشواة.

[←76]

(76) المزامير هي تسابيح لله، وأناشيد حمد وسجود وتمجيد له، وردت في الكتاب المقدس.

[←77]

(77)-سمك السلمون المرقط عبارة عن سمكة ذات جسم ممدود، مضغوط قليلًا على الجانبين. المقاييس القياسية لها صغيرة جدًّا وبراقة قليلًا. يعتمد لونه على لون الماء الذي يعيش فيه، قد يكون لها حجم مختلف حسب النوع، على الرغم من أن وزنها القياسي لا يتجاوز ١ كجم، وطولها ٥٠ سم، وعادة ما تكون ذكور سمك السلمون المرقط أكبر من الإناث، ولها أيضًا رأس أكبر.

[←78]

(78) فورت ويليام هي أكبر بلدة في منطقة المرتفعات الأسكتلندية، وتقع على ضفاف بحيرة لوخ لينه، ويحيط بها أعلى جبل في بريطانيا.

[←79]

(79) هو جنس من الطيور يتبع فصيلة عصافير الملك من رتبة العصفوريات. ويحتوي على العديد من الأنواع المختلفة مثل بيوي أبيض الحنجرة، بيوي أخضر، بيوي أسود، بيوي جامايكي، وبيوي دخاني وبيوي رمادي.

[←80]

(80) بن ألدر هو أعلى جبل في المنطقة النائية من المرتفعات الأسكتلندية بين بحيرة إيريتش وغلين سبين. إنه يحتل المرتبة ٢٥ في قائمة مونرو، ونظرًا لموقعه النائي، فهو واحد من أقل المواقع التي يتم زيارتها.

[←81]

(81) المقامرة.

[←82]

(82) هو شيطان مائي محتال يكمن في البحيرات والأنهار في أسكتلندا القديمة. ويكون عادة على هيئة أو شكل حصان صغير. تَروي الأسطورة أنَّه عندما يتعب المسافر ويجلس ليستريح قرب بحيرة أو يريد أن يشرب من مائها أو نهر سوف يرى حصانًا ينظُر إليه في هيئة مسالمة ووادعة. وعندما يمتطي المسافر الحصانَ يغوص كيلبي في الماء، ويمضي المسافر طريقه بسلام سوى أن ثيابه تكون مبللة وفي رواية أخرى هو روح يكمن في البحيرات والأنهار وظيفته هي إغراق المسافرين. وعادة ما يظهر على شكل حصانٍ يقوم بإغواء وإغراء ضحاياه بركوبه ثم يجري مُسرعًا نحو بحيرةٍ أو نهرٍ لِيُغرِقَ من يمتطي ظَهره. ومن أجل ذلك، أصبحت أسطورة كيلبي تعني (الموت المحتم) أو الوشيك.

[←83]

(83) هي بحيرة المياه العذبة في بيرث وكينروس، أسكتلندا، يبلغ طوله أكثر من ١٥ كيلومترًا، محاطة إلى حد كبير بالغابات التجارية وسفوح التلال المفتوحة.

[←84]

(84) اتباع الملك جورج.

[←85]

(85) يقصد بذلك معركة كولودين سنة ١٧٤٥.

[←86]

(86) هي قرية صغيرة في منطقة ستيرلنغ في أسكتلندا، تطل عليها التضاريس الجبلية على رأس بحيرة فول، وتشتهر بصيد الأسماك ومشاهدة الطبيعة والمشي.

[←87]

(87) روب روي ماكغريغور: هو خارج عن القانون من أسكتلندا، وهو أحد أهم الأمثلة عن الخارجين عن القانون من أهل المرتفعات الأسكتلندية والذي كانت مآثره موضوعًا لإحدى روايات السير والتر سكوت.

[←88]

(88)- بلفرون هي قرية في منطقة مجلس ستيرلنغ في أسكتلندا.

[←89]

(89) هي مدينة صيد صغيرة، تقع على بعد حوالي ثمانية أميال شرق إدنبره، أسكتلندا.

[←90]

(90) جسر ستيرلنغ القديم هو جسر حجري يعبر النهر فورث، ولأكثر من ٣٠٠ عام يعتبر مكانًا لكثير من المواقع مثل موقعة جسر سترلينغ الشهيرة، فهي واحدة من المعارك الرئيسية في حرب الاستقلال الأسكتلندية الأولى، انتهت المَعركة بنَصر أسكتلندي، بَعدَ المَعْرَكة تمَ تعيين والاس وَصيًا على مملكة أسكتلندا وقائدًا لجيشها.

[←91]

(91) الأرقطيون نبات يعيش لمدة سنتين، ويصل ارتفاع سيقانه إلى نحو متر ونصف المتر، أوراقه بيضاوية معكوفة إلى الداخل، ورءوس أزهاره محمرة، وللنبات جذر مغطى بلحاء بني إلى أبيض اللون، وهو إسفنجي يصبح قاسيًا بعد تجفيفه.

[←92]

(92) نبات على شكل قُبَّعة عريضة الحواف، جنس نباتات معمرة مزهرة من فصيلة النجمية، يصل ارتفاعه إلى متر، له أوراق قلبية كبيرة جدًّا وواسعة، تشبه أوراق الراوند.

[←93]

(93) سلاخون الشاة.

[←94]

(94) هي إحدى المناطق الإدارية لأسكتلندا، وتشتهر بالزراعة وصيد السمك، ومن أهم منتجاتها سلاسل البقر المشهورة باسم بقر أنغوس.

[←95]

(95) بنك تجاري مقره في المملكة المتحدة.

[←96]
(96) تل ضخم على شكل سلسلة من التلال المرتفعة فوق الضواحي الغربية من أدنبرة، أسكتلندا.